مجلة ثقافية
تصدر كل
شهرين
عن
اللجنة الوطنية
للتربية والثقافة
والعلوم

الموكب الثقافي

لما كانت الحروب تتولد في عقول البشر
ففي عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام.

العددان
09
و
10
يناير
فبراير
مارس
ابريل
1997

الثمن
200 إوقية

معرض الكتاب الموريتاني الخامس

المتكلم في الرواية

حظر إسم الزوج في الثقافة الشعبية

المثقفون الشناقطة في المشرق العربي

رسائل

السيد المدير الناشر لمجلة الموكب الثقافي

بعد التحية:

كان لإهدائكم للمركز مجلة «الموكب الثقافي» الغراء أكبر الأثر في نفوسنا، وخاصة، لما تتميز به المجلة من بحوث ودراسات وموضوعات جادة وشاملة، وفي ذلك دلالة واضحة على حرصكم لتواصل الثقافات واتصالها، والمساهمة في بناء السلام في عقول البشر، وهذه هي إحدى توجهات المركز.

وتقبلوا فائق التقدير والاحترام

د/ سعد الدين ابراهيم

رئيس مجلس أمناء مركز بن خلدون

القاهرة بتاريخ 27 مايو 1996

الموكب الثقافي

العدد رقم 09 و 10

بتاريخ: يناير فبراير - و - مارس ابريل 1997

"لما كانت الحروب تتولد في عقول البشر
ففي عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام"

اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم

انواكشو ط- موريتانيا

المدير الناشر:

ذ. اعلي ولد ببوط

المدير الفني:

ذ. محمدو ولد أحظانا

يساعده في الملحق الفرنسي:

امبارك ولد بيروك

أحمد ولد الشيخ

أحمد سالم ولد ببوط

رئيس التحرير:

الأستاذ محمد الأمين ولد المنير

المحررون:

الأستاذ محمد فال ولد عبد الرحمن

الأستاذ بوبه ولد محمد نافع

الأستاذ الشيخ المعلوم ولد محمد سالم

الاستاذة مريم بنت بكر

الأستاذ عبد الله السيد

مصلحة المتابعة والاشتراكات:

سليمان ولد بونه مختار

الشيخ التجاني

سكرتاريا التحرير:

أحمد جدو ولد محمد

رسوم: م. احظانا

طباعة: مامي

ماكيت: عباس

سحب: المطبعة الوطنية

كتب في هذا العدد:

تطالعون في الجزء العربي:

رسائل: رسالة الدكتور سعد الدين ابراهيم
المعرض الخامس للكتاب الموريتاني .. قراءة في خطاب معالي وزير الثقافة والتوجيه الإسلامي.. السيد خطري ولد جدو:

المحور الثقافي:
- تقديم في منهج قراءة الثقافة الشعبية:
- حظر إسم الزوج في الثقافة الشعبية:
- سدوم ولد انجرتو وعبقرية التشاكل الصوتي المعجمي

المحور الأدبي:
نقد: - المتكلم في الرواية
شهادات: - تجربتي الروائية
تاريخ أدب: - المثقفون الشناقطة في المشرق العربي
- نموذج من المقامة الموريتانية: المقامة الأطارية
ابداعات: القصة: غامر تنجح
القصيدة: مرفأ الصمت
منوعات:

المحور التاريخي:
- الحضور الاروبي على الشواطئ الشنقيطية
- بعض الهموم الموريتانية والعربية في بداية القران العشرين
- ظاهرة اللثام عند سكان الصحراء خلال القرون الوسطى
- من نوادر مخطوطات المكتبة الشنقيطية

المحور التربوي:
- دور المحاظر في تأكيد الذات الموريتانية

المحور العلمي:
حق الرد: الطب التقليدي ماله وماعليه

أنباء ثقافية
أنباء المنظمات:
ملف عن الأدب الموريتاني في مجلة «الآداب» البيروتية

أ. أعلي ولد بيوط
أ. محمدو ولد أحظانا
أ. يسلم ولد حمدان
أ. السالك ولد محمد المصطفى
أ. محمد ولد أحمد ولد تتا
الدكتور سهيل إدريس
أ. حماه الله ولد سالم
الباحث محمد المصطفى ولد الندى
أ. محمد فال ولد عبد الرحمن
أ. خديجة بنت عبد الحي
د إزيد بيه ولد محمد محمود
أ. سيد أحمد ولد أحمد سالم
الباحث أحمد ولد محمد يحي
أ. الشيخ المعلوم ولد محمد سالم
الصحفي المختار لسان الدين
الطبيب عبد الله ولد أوفي
أ. لاله بنت محمد محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

أصبح من المسلم به اليوم - ونحن في آخر خمسية من القرن العشرين، أن الإعلام أخذ حيز الأولوية في اهتمامات البشرية: بل وأصبح أهم أداة تأثير، وأكثرها جلبا للمصالح بأقل الأثمان.

ومن المتوقع أن يعيش القرن القادم على الإعلام، ويمارس من خلاله مختلف فاعلياته.

وتخلق هذه السطوة الإعلامية استقطابا متزايدا لمستهلكين يتكاثرون تكاثرا طرديا مع كل تطور تقني جديد.

هذه الوضعية تؤدي إلى شغل الحواس والعقول لدى الناس بالصور والمعلومات والمضامين المختلفة. مما يجعل الوسيلة الإعلامية أهم سلاح مستقبلي على المدى القريب والمتوسط، إن لم يكن على المدى البعيد.

ومعنى هذا أنه ستتوفر لمن يملك وسائل إعلام متطورة، تحمل مضامين مؤثرة عربة ذهبية للسيادة عبر الأثير، وممارسة الأحادية الثقافية.

من جهة ثانية فإن التنوع الثقافي سر من أسرار التفاهم البشري، لأنه يضمن الأمن والإستقرار العالميين، فعادة لايقع احتكاك بين الشعوب إلا إذا ساد بينها عدم التفاهم المتبادل.

ومن هنا تأتي الأهمية الجلية لتقديم ثقافة شعب من الشعوب عبر وسيلة إعلامية ما، إلى بقية الشعوب للتعرف عليها، ومحاورتها محاورة سليمة.

وفي هذا المصب تنساق مجلة "الموكب الثقافي"، التي تحمل بين صفحاتها هذه المرة عددا هاما من المقالات الجادة والإبداعات الموريتانية، التي تعطي صورة متكاملة من عمق الحركة الثقافية، الحالية، وقراءتها للتراث الموريتاني: العربي الإسلامي الإفريقي والإنساني أيضا.

كما تتضمن المجلة أقلاما عربية من الطراز الأول، خصت المجلة بكتابة هي بمثابة الشهادة التاريخية على تجربتها الطويلة في حقل الكتابة والنشر. هذا إضافة للمحاور التقليدية التي تنشر فيها المجلة.

إننا نتمنى أن نكون عند حسن ظن القارئ الكريم، في وضع لبنة راسخة على طريق إعلام ثقافي موريتاني نوعي. فالتعريف بالثقافة الموريتانية وخصوصيتها وتقديمها للآخرين بالتوازي مع تعريف القارئ الموريتاني على دور المنظمات الثقافية والعلمية التي تعتبر لجنتنا وسيطا لها، إضافة للمواضيع الأخرى، من الأهداف الثابتة للمجلة.

وبما أنه وقع تأخر في صدور الأعداد الثلاثة الأولى من السنة، فإننا تلافيا لهذا التأخر، أصدرنا العددين 10/9 في مجلد واحد، مع الملحق الفرنسي، ليصدر العدد 11 منفردا، على أن يصدر العدد 12 في تاريخه المحدد، أي في نهاية شهر أغشت.

وأملنا أن تكون المجلة لبنة لتأسيس إعلام ثقافي موريتاني متميز في أجواء حرية البحث والتأليف والإبداع والنشر.

اعلي ولد ببوط

معرض الكتاب الموريتاني الخامس:

قراءة في خطاب معالي وزير الثقافة والتوجيه الإسلامي السيد خطري ولد جدو

في ضوء التحولات العميقة التي تشهدها وزارة الثقافة والتوجيه الإسلامي بعد صدور الأوامر السامية من فخامة رئيس الجمهورية السيد معاوية ولد سيد أحمد الطايع، بالشروع في تنفيذ الخطة الخمسية المقدمة من طرف الوزارة. ويمكن أن نقول إن مجهودا كبيرا بدأ ينفذ علي الأرض حيث وجد عمل الوزارة في هذه الخطة قاعدة لاغنى عنها للإنطلاق خدمة لبلادنا وثقافتها التليدة وحضارتها العريقة.

وتمثل هذا المجهود حتي الآن في عقد متمر رابطة الأدباء الموريتانية، وتنظيم جائزة وزارة الثقافة والتوجيه الإسلامي للإبداع الشعري، وإنشاء الجمعية الموريتانية للكتاب وإقامة معرض للفن التشكيلي، وعدة معارض للكتاب الموريتاني، إضافة إلي معرض الكتاب التونسي الخامس، ومشاركة بلادنا في المعرض الدولي للكتاب بتونس.

وفي هذا النطاق سنقتصر في الحديث خلال هذه الورقة علي المعرض الخامس للكتاب الموريتاني المطبوع والمخطوط والمنظم في العاصمة نواكشوط من 15 إلي 20 مارس 1997 علي أن نعود للحديث عن هذه المحطات الثقافية في الأعداد القادمة.

ويمكن أن نقول هنا إن المعرض كان ذا ذا أهمية بالغة نظرا لحجمه وغناه واتساع قاعدة المشاركين فيه كما أنه أسفر عن حدث ثقافي هام هو إقامة الجمعية الموريتانية التي بدأت من هذا التاريخ مساها ووضع نظامها الداخلي وبرنامجها في بحث ماعرف وتعريف خلف وتأطيرا للجهد الثقافي في هذا المضمار، حتي يستوي ويوثق.

كما يتحد النظام الأساسي للجمعية الموريتانية الي تحقيق الأهداف التالية:

تنشيط وتفعيل حركة التأليف والترجمة والطباعة والنش والتوزيع وترقية الكتاب المويتاني شكلا ومضمونا، وإحياء التراث من خلال نشر المخطوطات والتعريف بالمنشورات الموريتانية في المعارض والندوات المحلية والدولية وبربط الصلة بالهيئات المعنية بالكتاب والإنضمام إلي الإتحادات المغاربية والعربية والإفريقية والدولية النظيرة، والعمل علي بلورة سياسة وطنية للكتاب والإسهام في تنفيذها عن طريق تنسيق بني الجمعية والمؤسسات الوطنية المهتمة، والشركاء. كما تسعي الجمعية إلي الدفاع عن حقوق المؤلف والمترجم والناشر، والتصدي لعمليات توفير الكتاب ثم العمل علي تأسيس دار موريتانية للنشر.

وكما أشا لي ذلك معالي وزير الثقافة والتوجيه الاسلامي السيد خطر ولد جدو فإن تأسيس هذه الجمعية يشكل علامة مضيئة في تاريخ موريتانيا الحديثة، وهو ليس حركة معزولة ولكنه يأتي ضمن سياق عام هو مسيرة التحول المباركة التي تعرفها البلاد اليوم.

وأضاف أن هذا النشاط يأتي تطبيقا للتوجيهات النيرة لفخامة رئيس الجمهورية السيد معاوية ولد سيدي أحمد الطايع، التي تتخذ من إنعاش وتطوير الثقافة الوطنية أساسا صلبا لانجاز مسيرة التقدم المظفرة التي تقودها فخامته. كما أنه يأتي في طار انجاز البرنامج الحكومي الذي أعلن عنه معالي الوزير الأول الشيخ العافية ولد محمد خونا أمام البرلمان.

وأشار الوزير للأهمية البالغة التي بلغها الكتاب اليوم في الحركة الثقافية في العالم ونقل المعرفة وتوسيع دائرة المستفيدين منها مذكرا بدور موريتانيا وامتدادها الموصول لحركة رعيل أجدادنا الأول الذين حملوا راية الإسلام وجابوا الكثير من أصقاع الدنيا في العالم العرلي وافريقيا وأوربا وغيرها يحملون مشعل المعرفة أينما حلوا خدمة لجموع البشرالتي أخذت بفضلهم تستظل بنور الإسلام وقيمه السمحة، وأشار السيد الوزير إلي أن النهضة الثقافية التي تتطلع إلي إنجازها اليوم متخذين الكتاب الحجر الأساس لتنطلق فيه فروعها وتزهر وتثمر.

وأضاف أن الكتاب الذي لايعرف طريقه إلي النشر لايسمي كتابا، لأنه لم يدخل صلة مباشرة مع المتلقي مايسلبه أية فاعلية.

ونوه معالي الوزير بمجهود رجال أعمالنا الذين أخذو يسهمون بشكل متميز في العمل التنموي التطوعي، مشيرا إلي أمثلة نموذجية في حقول تنموية متعددة.

وتمني السيد الوزير في الأخير أن يتوسع ويتواصل مايختص منها بالمرفق الثقافي.

***

تقديم في منهج قراءة التراث الشعبي الموريتاني

مقاربة في البحث الميداني

محمد ولد احظانا
باحث في الثقافة الشعبية
جامعة انواكشوط

تقديم:

– خلال تجربتي المتواضعة في الكتابة عن التراث الشعبي الموريتاني، عشت التراوح ممزقا بين شعورين:

– شعور بالحبور يخامرني كلما أطل على من وراء حجب المعطيات، إشعاع حيي ينير الحواف التي تحيط به، فتتراءى لي انكسارات وانحرافات ونتوءات تلك الزوايا، كما تتراءى حواف السحب الكثيفة عندما يخترقها شعاع فضولي يتشوف إلى عناق الأرض.

– وشعور هبائى، معجون من هواجس: – السائر في القفر، والواقف موقفا محظورا، والمتفوه بكلام في غير محله، والجندي في منطقة مكشوفة،.. شعور هبائى لأنه غير قابل لوصف، يتوهج في لحظة وينطفئ دون أن يترك أثرا، كشعلة موقدة بحطب الوهم.. هذا الشعور يتولد في نفسي كلما نشرت بحثا من بحوثي، حول الثقافة الشعبية، فتأتي ردود الفعل سريعة عليه، أشبه بمقاومة الألم، والاعتداء على الحمى، لكن كانت تداخل تلك الردود، دغدغة خفية أحيانا للمشاعر الكتيمة حول الماضي.

وقعت هذه النوعيات من الردود عندما كتبت عن الفنون والآداب، ثم اشتد عندما كتبت عن الضرب على الرمل «لگزانه»، وبلغ أوجه لما كتبت عن أساطير الموسيقى والتفوق (أسطورة ««انوفَّلْ») وغيرها...

وقد حاولت أن أحاور من خلال تبيين الخطاطات المنهجية التي انطلق منها إخماد بعض الردود، لكن في كل مرة كتبت في عنوان جديد، أتاني الرد شفاهيا في الغالب، ومكتوبا أحيانا، وكان آخر عنوان كتبت عنه هو: «صورة الجن في المخيلة الموريتانية»، وأثار ردودا مختلفة لدى القراء والباحثين والنقاد... ولذلك بدا لي من الضروري أن أقف قليلا أمام أصناف هذه الردود؛ لا لأخوض نقاشا ثنائيا معها، وإنما لأبين مقاصدي من مشروع عملي علي الثقافة الشعبية الموريتانية، بمختلف تجلياتها الرمزية، وذلك: بوضع مدونة للتراث الشعبي، ثم القيام بتحليل أولي لها.

وليس الأمر سهلا، ولا يمكن القيام به في وقت واحد، وإنما هو عمل متطاول قد لايكفيه عمر فردي. لهذا كنت أقوم

في كل فترة بمحاولة تدوين وتحليل أولي لمظهر من مظاهر هذا الترميز الثقافي الموريتاني، بصورة فردية، أو بجهد جماعي. (1)

مواقف من البحوث المنشورة

– إن السؤال الذي سنتصدى للإجابة عليه هو: ما هي أصناف المواقف النظرية والعملية الملاحظة من عملي على الثقافة الشعبية، باعتبارها نموذجا من نماذج ردود الفعل علي البحوث الميدانية حول هذا النمط الثقافي، الذي أصبح معينا ثرا للإمتياح؟

1–إن المواقف النظرية متعددة، لكنها تنقسم عموما إلى أربعة أقسام:

أ– قسم يستهجن على انشغالي بمثل هذه المواضيع «التافهة»، ويرى أن على أن أنشغل بالمواضيع "المهمة"، «الشريفة». ويعجب كثيرا لقصور اهتمامي على "مالا يعنيه"، وعيبي عنده "نقص القادرين على التمام".

ب– قسم يحتج على كتابتي عن هذه المواضيع "المتخلفة"، ويطالبني بالعدول الفوري عنها إلى المواضيع "المتقدمة". وعيبي عند أصحاب هذا الموقف أنني أشد قافلة البحث إلى الخلف.

ج– قسم يستحسن هذه البحوث استحسانا مبالغا فيه ويستزيدني ويحثني على إتيان المزيد. وحجته أنني أكتب عما لايكتب عنه أحد. كذا!!

د– قسم ناقد يقف من البحوث موقفا تحدده قيمة البحث، وإسهامه في تحقيق الهدف المرجو منه علميا، وتاريخيا .. ولهؤلاء مواقفهم المحددة من كل بحث، بغض النظر عما سواه.

2– زيادة على هذه المواقف النظرية لاحظت ثلاثة أنواع من المواقف العملية، من الأعمال المنشورة:

أ– موقف الإستغلال المشروع: وذلك بالإستفادة من هذه البحوث حيث بدا لقارئها أنها يمكن أن تفيده، في ثنايا بحث يتقاطع معها، فأسند لها.

ب– موقف الإستغلال غير المشروع: وذلك بالإستعانة بهذه البحوث، واستنتاج أفكارها، كأنها أفكار للمستغِل. مع إهمال واضح لمبدأين أساسيين هما:

- مبدأ الأمانة العلمية.
- مبدأ حفظ الحقوق.

كل ذلك مع حضور قرائن مؤكدة هي:

– قرينة الأسبقية الزمنية.

– قرينة الإطلاع المؤكد على البحوث.

– لتأتي ثالثة الأثافي، وهي إنكار المصادر التي استقى منها المستغل استنتاجاته. مع أن المستفيد قد تكلف عناء البحث عن كاتب البحوث، من أجل استيضاح أفكارها ومعطياتها. لكن لينشر عمله لاحقا وقد أخرج بعض الأفكار عن سياقها، ونشر بعضها حرفيا وهو غفل من أي عزو أو مرجع يتعلق بالبحوث المنشورة.

ج– موقف الإهمال المطلق: وهو موقف غير مكثف، ولذلك لايدخل في دائرة التشخيص المنهجي إلا من باب الإقتضاء والوصف الخارجي.

ـ توضيحات:

لكي يتضح قصدي للقارئ الكريم، والباحث المحقق، والناقد المتبصر، أعود على بدء، وأذكر أنني قصدت من وراء بحثي في مظاهر الرمز الثقافي الموريتاني عدة مقاصد، أذكر منها هنا على سبيل المثال:

1- الإهتمام بكم هائل من المعطيات الثرة التي تتعرض للإندثار من أجل وضعها في حالة أبقى هي حالة التدوين. فإذا كانت التوجيهات الأكاديمية والإهتمامات لدى الجميع تنصب على التاريخ المدونة المكتوبة، العالمة أساسا. فإن ذلك يزيح إلى دائرة ظل الإهمال وليل الجهل، حقلا واسعا من المعطيات ذات الأهمية القصوى بالنسبة للتاريخ "غير المكتوب: (التأريخ الثقافي"، "التأريخ الرمزي).

وتوفير هذه المعطيات مكتوبة في غاية الأهمية، للشاعر، والكاتب، والباحث، والناقد، والفيلسوف، والروائي، والقاص، والاجتماعي، والمربي، وحتى للقارئ المستمتع ..

الهدف الأول إذن: هو تحصيل مادة للمؤول والمستنبط والقارئ، توسع مجال حركته، من التراث الثقافي العالِم المكتوب، إلى مجال التراث الشعبي الذي لم يكن مكتوبا، بما أودع من أبعاد سحرية الجمال، رحبة الأبعاد، مجنحة الخيال، غنية بالإحالة، مثقلة بالرمز..

– الهدف الثاني بعد التدوين هو إبراز إمكانيةَ القراءة المطلوبة، والاستغلال المتنوع للتراث الثقافي الشعْبي. وذلك بالنظر إليه من زوايا مختلفة، وبأدوات منهجية يحددها المجال المستغل.

فمنهج استنطاق الموسيقى مثلا، يختلف عن منهج استنطاق الآداب الشعبية، من حيث زاوية النظر، فقد انصب اهتمامي في الموسيقى، مثلا على ذلك استنطاق الظاهرة الفنية الموسيقية من خلال منهج قرائني. يعتمد المبادئ المنهجية التالية:

– القرينة الفعلية (الأداء الفني، من عزف وغناء) . ويقوم فيها الفنان بأداء موسيقى متميز عن غيره من أداء الفنانين غير الموريتانيين. ووراء هذه القرينة تكمن دلالة الوجود الشاخص للظاهرة الفنية.

– قرينة المصطلح: وهي المتعلقة بالتسميات: تسمية الآلة والوحدات الموسيقية والفنان ...

وتنكشف من وراء هذه القرينة دلالة الترميز اللغوي التسموي، بما تحمله من ثقالة حضارية، تاريخية.

– قرينة الحكاية المصاحبة (حكايات الموسيقى وأساطيرها) وتحمل في صلتها بالموسيقى وظيفة تربوية، إلى جانب الشحنة الكامنة في الأسطورة ذاتيا.

– القرينة النفسية من خلال الرمز لحالة الخوف أو الاطمئنان .. وتبطن هذه القرينة وظيفة إشباع نفسي.

– المدلول الرمزي للتلقي (التوقع/ الوقوع/ الإنعدام ...)، ويحمل في طياته دلالة إدراك وفهم.

– المدلول السياقي: وهو الذي يسمح بتأويل معطى مافي سياق شامل من المعطيات، مثل إعادة قراءة المصطلح وأية قرينة أخرى عن طريق فهمها في إطار ما يحيط بها من مصطلحات ووحدات وأفعال..

– القرينة المادية: وهي التمثيل التجسيدي، للحامل الطبيعي، في مواجهة المصاحبات الثقافية، في القرائن الأخرى، إضافة لتمثيل الآلة للعلاقة الموجبة ما بين الثقافة والطبيعة في صورة آلة مصنعة لتؤدي وظيفة جمالية محددة.

وخلف هذه القرينة تحضر ثنائية الثقافة/ الطبيعة في حالة التضايف المحبب.

– قرينة المضمون المباشر: كما في "الشاهد"، وهو الفحوى الواعي المصاحب للفعل الفني (الصوت) ، ويسمح بتلمس الدلالة التاريخية المباشرة والقيمة الأخلاقية كما يعكسها مضمون النص المصاحب للغناء والعزف (تسمية شخص معروف تاريخيا، أو حادثة مدونة، أو مجموعة قيم اجتماعية ما) (2).

لكن زاوية نظري إلى الآداب الشعبية تركزت على: نماذج الإدراك عند الموريتاني من خلال الكشف عن هذه النماذج الناظمة للإدراك في زوايا مختلفة من تمظهرات الأدب الشعبي، لجعلها تنطق بتشاكلها الأكبر، من خلف التباين الظاهري، الذي يحجب النمط الموحد، متخذا من المضمون المباشر دريئة للتخفي، والهرب من صريح التشاكل.(3)

أما في «الضرب على الرمل» فتجلى اهتمامي في محاولة التأريخ للوعي الذي انتج هذه اللعبة الإحتمالية، من خلال قراءة الشكل والتوليد والدلالة اللغوية والحسابية والهندسية.(4)

وكان بحث الأساطير مستغلا استغلالا منهجيا منصبا على الوظيفة النفسية والعقلية والجمالية والأخلاقية والتربوية...(5)

أما البحث الأخير حول «صورة الجن في المخيلة الموريتانية» فهو تدوين أولا، وتحليل ثانيا. وننظر إليه من حيث يمكن أن نعيد بناء صورة متكاملة عن موضوع تراثي بمنهج تجميع الصورة المفككة أولا. فالتراث عموما في وضعية مفككة، ولكي نعيد بناءه ندخل إليه نوعا من الإنتظام أو العقلنة، من خلال تقديمه في صورة موحدة. وثانيا بتحليل لاحق على الصورة المجمعة، من أجل وضعها في دائرة إمكانية الاستغلال والقراءة.(6)

إن هذا الاستغلال من زوايا مختلفة، لايعني أن المبادئ المنهجية في موضوع ما، لايمكن أن يستنطق بها موضوع آخر، بل يعني شيئين أكثر من ذلك:

– أن هذه المبادئ هي أجلى المنطلقات، بالنسبة لي، لقراءة هذا الموضوع الثقافي الشعبي، وهذا يسهل علي أي قارئ أو مؤول آخر أن يحدد المسافة اللائقة به بين زاويته المنهجية والمعطي المدوَّن.

– أن هذه المبادئ يمكن أن تكون حاضرة في كل موضوع بدرجة ما، لكن طبيعة الثقافة المتشعبة(7)، تتطلب النمذجة، فإذا قرأنا وأولنا هذا الموضوع من منظور معين، تطلب منا تكامل القراءة والتأويل أن نقدم خطاطة منهجية مختلفة تنير زاوية أخرى في موضوع آخر. ليتشكل من كل الخطاطات المنهجية، منهج شبه متكامل لقراءة وتأويل الثقافة الشعبية، هو عماد الرؤى المنهجية، التي خيل إلي أنها هي الأنسب لاستنطاق الثقافة الشعبية.

وغني عن القول أن وجود نُصبة منهجية عامة حول حقل معرفي معين، مهما كان، تحث وتشحذ اهتمام المهتمين بذلك الحقل المعرفي، من أجل تصحيح الرؤى، ونقد المبادئ، وطرح البدائل، وبالقراءة والمراجعة والنقد، يخطو الموضوع خطوات حثيثة إلى دائرة الجدية والاتضاح.

ردود:

– لقد استعرضت أعلاه نماذج من المواقف النظرية والعملية من البحوث التي قمت بها حول الثقافة الشعبية، وسأورد هنا بعض الردود التي لا أقصد منها إلا تصحيح الصورة التي لاتزال مشوشة في بعض الأحيان حول محاولتي لتأويل التراث، ويحثني على هذه الردود.

– جذب هذه المواضيع لمزيد من المهتمين، والإلتفات اليها، كمشغل منهجي، يمكن أن يستغله الباحثون والطلاب الجامعيون في بحوثهم ووسائلهم.

– أن قراء جادين يلحون علي لإعادة نشر ما نشرت والإنسياح إلى مواضيع أخرى جديدة.

فما هي التصحيحات التي وعدت بها، حول المواقف السابقة؟.

المواقف النظرية

أولا: عن موقف الاستهجان: أرى أن فهم المواضيع على أساس مبدأ التفاوت، فهم معياري فج يخلو من الإحساس بالهم المعرفي لأن المواضيع، من منظور معرفي وعلمي، لاتعرف التفاوت إلا من خلال قيم: الإجرائية المنهجية، والخصوبة الإستنتاجية، والصحة. أما السؤال عن الفائدة النفعية والأهمية في منظومة التداول المعرفية السابقة، فإن الفائدة النفعية ترجع إلى الفنون القائمة على العلم، كفن التقنية بالنسبة لعلم الفيزياء والطب بالنسبة للبيولوجيا والفيزيولوجيا، والعمران بالنسبة للهندسة، فالبحث الجاد يلغى بطبيعته هاجس الفائدة النفعية، لأنها تناصبه عداء مستحكما أثناء انجازها، إذ تشوش عليه وتشاغبه قبل الوصول إلى قيمه الخاصة به (القيم المعرفية).

ومع مراعاتنا لمقولة القياس مع وجود الفارق، نرى أن استحضار الفائدة النفعية خلال البحث في أية ظاهرة ثقافية ينقل البحث من حقل معرفي، إلى حقل أخلاقي معياري، أو حرفي عملي وهو ما يفقده صفة الجدية المعرفية.

فالفائدة بالنسبة لمن؟ ومن أية مرجعية؟ وبأي مقياس؟

– أما بالنسبة لمقولة: "الأهمية" في المنظومة المعرفية الجاهزة، فإن المعارف ليست ذات أهمية بذاتها، ولا بدرجة الحضور السابق لها في الأذهان، لأن المعارف السابقة تخلق أجهزة قامعة لما سواها، تحبس الرؤية في قوالب تجميدية لاتسمح للمعارف بديمومة التطور، وعادة ما يكون كسر هذه القوالب من طرف المنظومة المعرفية العامة، لاينبعث من مركزها وإنما من هوامشها ولهذا فليست هناك مواضيع مهمة ولا مواضيع غير مهمة، لأن "الأهمية" مفهوم متولد عن سلطة معرفية سابقة، ليس من صلبها أصلا، بل هو حمى أدلوجي للدفاع السطحي عن تلك المنظومة، وهالة تمجيد وأبهة.

زيادة على هذا فإن "شرف" المواضيع و"خساستها" اسقاط واضح، لقيم بشرية اعتبارية أخلاقية واجتماعية على حقل معرفي لاعلاقة له بها، من حيث الطبيعة والجنس.

لكل هذا فإن الاعتراض على موضوع بعينيه لأنه ليس "مهما" ولا ذا فائدة" اعتراض ينبع من مشاغل غير معرفية، فهو محل نظر من أساسه، لأكثر من سبب.

ثانيا: بالنسبة لمن يحتج على كتابتي حول هذه المواضيع لأنها "متخلفة" أنبه إلى أن طبيعة المعالجة هي التي تعطي صفة التخلف لموضوع من المواضيع. مثلا: قد يكتب أحدنا بحثا عن ظاهرة تباعد الكون وتمدده، لكن بأسلوب ومنهج التدوين في القرن الثاني للهجرة، وتكون معالجته متخلفة، لأن التخلف هو غياب هاجسي المعطى المنهجي والاستنتاجي المحيط بالباحث. لكن قد تكون المعالجة متقدمة مع أن موضوعها متقادم. ويكفي أن نذكر بأن اكثر البحوث حداثة قد يطبق علي أقدم المواضيع في عالمنا هذا: من ذلك ظاهرة التمدد الكوني الآنفة، فهي من أقدم الظواهر زمانا، لكن البحث فيها من أحدث العلوم. وكذا الأبعاد العقدية، وغير وغير...

فمفهوما "التقدم" و"التخلف" مفهومان نسبيان أولا، ولا يرتبطان بالمواضيع، وإنما بالمناهج وأساليب الاستغلال، ثانيا. هذا إذا كان المقصود من وراء "التقدم و"التخلف" دلالتهما المعرفية. أما إذا كان المقصود غير ذلك فالأمر ينزلق من حقل المعرفة لينخرط في منظومة اعتبارية مخارجة للمبادئ المعرفية المتداولة.

ثالثا: وبخصوص الإعجاب المبالغ فيه، أعتقد أنه هو أخطر ما يواجه مبتدئة الباحثين عندنا، لأننا في طور نشأة أخلاقيات البحث. فإذا اشبعنا غرور ناشئة الباحثين بالتمجيد والموافقة لم يعد إلي أحدهم صدى صوته ليقدر حقيقة عمله، وحجمه من رجع الصدى، فيندفع في حقل متجانس، يفقر تجربته، ويحولها إلى لعب بهلواني، في حقل

خال من العوائق والمنافسين. ولا خطر أكثر جسامة على مبتدئ من امتداح غير مستحق، وإشادة جزافية.

رابعا: فيما يتعلق بمن يقف موقفا نقديا، ينظر إلى أي بحث من زاوية خصوبته أو عقمه المنهجيين واستنتاجاته، ومحله من خارطة المحاولات التأويلية للثقافة الشعبية فهم الشاهدون لا المشهود عليه، وهم المقدِّرون لا المقَدَّرون. فأكلهم لمن هو أهل للشهادة عليهم أو لهم، والتقدير، لهم أو عليهم.

2ـ المواقف العملية

أما المواقف العملية فأولها مطلوب، للأمانة العلمية.

وثانيها مرفوض، لأنه مستهجن لما فيه من عدم أمانة.

وأما الثالث فإن صاحبه غائب، والغائب على حجته، حتى يعود.

أخيرا

لم تكن هذه التوضيحات دفاعا عن موقفبقدر ماكانت بالأساس توضيحا منهجيا، القصد منه فهم الأمور في سياقها. وسياق الأمور أنني أهتم بالتأريخ للعقل واللاعقل الموريتانيين، ويتطلب مني ذلك أحيانا أن أخمش اللاشعور الجمعي، لكني ألاحظ في كل مرة أن ألم امتياح هذا اللاشعور إلى دائرة التداول الواعي، يخف مرة بعد مرة، ومن أدراني أن يوما يأتي لاتثير فيه هذه الهواية المنهجية ردودا نشازا على سياقها؟!

هوامش:

1- انظر موسوعة الحكايات والأساطير الموريتانية/ تأليف مجموعة من الباحثين.
نشر اللجنة الوطنية لجمع ونشر التراث الشعبي الموريتاني.
طبع المعهد التربوي الوطني/ ط 1 بدون تاريخ/ (تم الطبع فعلا سنة 1995)

2- انظر بحثنا: الفن الموسيقي الموريتاني، بحث مسلسل من 20 حلقة جريدة «الشعب» ابتداء من نوفمبر 1989 إلى غاية ابريل 1990.

3- انظر بحثنا: نماذج الإدراك عند الموريتانيين من خلال شعر الحسانية، بحث في 12 حلقة «الشعب» /93

4- بحثنا: «لگزانه» بحث في المعقول الإجتماعي، الشعب 1991

5- انظر بحثنا: الأساطير الموريتانية أسطورة «انوفل» الشعب / اكتوبر / نوفمبر/ دجمبر/ 1991

6- تعود إلى الجزء الأول من هذا البحث «الموكب الثقافي» الأعداد 4/5و6/7/8. 1996.

7- للاستزادة راجع بحثنا: مقاربات في منهج استنطاق الثقافة الشعبية الموريتانية: ندوة شنقيط العالمية حول الحواضر والتراث من 13/20 نشرت في الموكب الثقافي 2/3. 1995 الصفحات 13 إلى 20 وكـــذلك: Ehdana Revue entrhopologique, Juillet 96 Publication: l'Institut International d'Enthropologique P137-139.

حظر اسم الزوج في الثقافة الشعبية

يسلم بن حمدان
جامعة تواكشوط

يرتبط الإسم الشخصي بشعائرية خاصة وضعا واستعمالا. ذلك أنه مناط الفصل الحاسم بين البيولوجي والإجتماعي، كما أنه رمز الهوية وعنوان الذاتية، ومن ثم فقد نزهته المجتمعات عن الإبتذال عبر سن نظم الكنى والألقاب وصانت حرمته بفرض صارم القيود على استعماله وتداوله مما يرقى أحيانا إلى الحظر بأنواعه الديني والإجتماعي والخلقي.

ورغم عالمية حظر الإسم الشخصي، فإن ثمة تنوعا شديدا في أشكال ذلك الحظر، بصرف النظر عن أنواعه، كما أن هنالك تعددا كبيرا في دلالته ووظائفه خاصة، عبر الثقافات. فقد ينصب الحظر، حصرا، على أسماء البالغين كافة، توقيرا أو لياقة، ورما يشمل أسماء الصغار تعمية أو استحياء، إلا أن الغلبة في ذلك تبقى للذكور البالغين لاسيما في المجتمعات المحافظة.

وفي الثقافة الشعبية البيضانية، يخضع الإسم الشخصي لمعاملة جد مقننة في نطاق الأسرة، بوجه خاص. فالآباء والأمهات -بدرجة أقل - محظور على الأبناء تجريد أسمائهم غالبا، كما أن النساء محظور عليهن، بصورة أوكد، التلفظ بأسماء بعولتهن الشخصية، خاصة طالما أنهن لم يطعن بعد في السن. وثمة بئات وأوساط اجتماعية يكتسي فيها هذا الحظر صبغة شبه مطلقة.

والواقع أن ظاهرة حظر اسم الزوج في الثقافة الشعبية أخذت تتغير بسرعة جراء عوامل المثاقفة حتى أصبحت كالمحصورة جغرافيا في البادية واجتماعيا في الأوساط المحافظة. ونظرا إلى منزلة المرأة في البيئات المذكورة، فربما دعا المراقب تشدد البدو في صيانة شعائرية الإسم الشخصي إلى أن يرى ذلك مؤشرا دالا على انبتات صلتهم الثقافية بتراث أجدادهم الأمي نتيجة لقوة دوافعهم الدينية، لاسيما وأن تحرر سكان المدن الظاهر من نير مختلف أنواع الحظر الإجتماعي التقليدي كثيرا ما اقترن بمستوى محدود من الثقافة الدينية، كما أنه يتجلى بصورة أوضح

لدى شرائح المجتمع المتميزة سلاليا وثقافيا عن الفئة الأكثر محافظة . وعلى ذلك يكون حظر اسم الزوج آية انسحاق المرآة البدوية المحافظة ودليل ترسخ الأبوية في المجتمع البيضاني التقليدي استغلالا لأصوليته التي يتخذها شعارا وإن لم ينتهجها سلوكا دائما.

على أنه يحسن هنا، كما في أي مجال آخر، استكشاف إمكانيات إضافية غير تلك التي تتبادر لأول وهلة. ومن أجل هذا، يتساءل المرء عن المدى الذي يمكن الإنتهاء إليه في الدفاع عن القضية المقابلة، أي الإفتراض أن احترام البدو المحظورات الإجتماعية عامة وتشبثهم على الخصوص بما يتصل من ذلك بصيانة شعائرية الإسم الشخصي للزوج، قد يدلان بالمخالفة على قوة حضور الموروث الأمي في عمق الثقافة الشعبية، إذ لاعلاقة لتلك الممارسات في جوهرها بالإسلام (مهما اضطلعت بوظيفة معينة في نطاق التدين الشعبي والأخلاق الإسلامية) كما أنها ربما تخفي موقفا للمرأة البيضانية من التقاليد أكثر تعقيدا من مجرد الإنصياع الأعمى (كما في البادية) أوالرفض المستلب (كما في المدينة).

وقبل البوح بتفاصيل المغامرة التأويلية التي يستلزمها طرح الإشكالية على هذا النحو، دعنا نستعرض أولا معطيات حظر اسم الزوج في الثقافة البيضانية من النواحي اللغوية والإجتماعية والنفسية.

بين نسق اللغة وبنية المجتمع

تقوم المحظورات اللغوية، على مبدإ الإستبدال. ففكرة ما أو مفهوم أو مرجع خارجي، يعبر عنها، إلزاما، بدال غير الدال المعتاد، طيرة أو تلطيفا أو حياء. وبهذا الإعتبار، فالحظر لاينصب مباشرة على المعطى الخارجي (كما في الطوطم) ولا على المفهوم، بل على الدال المعياري.

وينطبق هذا المبدأ العام على حظر الإسم الشخصي، فالنساء المحافظات يستعضن عن أسماء أزواجهن الشخصية، في المقامات الإجتماعية التي تقتضي ذلك، بأنواع مختلفة من المتواليات الصوتية الشفافة بنية ودلالة أحيانا أو غير الشفافة أحيانا أخرى. فقد يأخذ الدال البديل عن الإسم الشخصي شكل ضمير غيبة مفردا أو جمعا، أو اسم إشارة لغير القريب مبدلا أو غير مبدل منه لفظ "الراجل" (ذاك، ذاك الراجل). وقد ترتجل النساء أسماء وألقابا خاصة تستعملنها في الحديث عن بعولتهن عندما يضطرهن سياق الكلام إلى أن تنسبن إليهم أمرا من الأمور، وربما تستخدمنها أحيانا في مخاطبتهم المباشرة. ويغلب أن تكون الأسماء والألقاب المرتجلة غريبة من الناحية الصوتية ولا معنى لها.

وعلاوة على اختيار بدائل الإسم المحظور بالرجوع إلى نسق اللغة، قد تلجأ النساء إلى توظيف نسق القرابة في هذا المضمار، وحينئذ يستعاض عن العلاقات الغيابية بالعلاقات الحضورية في بناء المتواليات الصوتية البديلة عن الإسم المحظور على أساس المصاقبة في فضاء الأنساب لا الإختيار ضمن نسق اللغة، وبذلك تتمكن المرأة من الإحالة المطابقة إلى زوجها عند الإقتضاء عبر تحديد منزلته القرابية (أب، عم، خال، أخ ...) من المخاطب أو من شخص معهود حضوريا أو ذكريا، على أن يكون المرجع في الفضاء النسبي أصغر سنا في كل الأحوال من المرأة المتكلمة، إذ لا تحترم مواضعة اجتماعية بخرق أخرى.

وإذا أنعمنا النظر في مجمل الطرائق الموصوفة التي تلجأ إليها النساء البيضانيات بديلا عن أسماء أزواجهن، وجدنا أنها، من منظور لساني نفسي، تحقق جميعا وظيفة ضمير الغائب. ومعلوم أن ضمير الغيبة يجسد اللاشخص

بامتياز. ذلك أن الضمائر، من حيث هي علامات لغوية فارغة، تتقابل فيما بينها تقابلا ثنائيا على أساس مقولة الشخص، فتدخل ضمائر التكلم والخطاب في تلازم تقابلي بين ذاتي، مشكلة طبقة شخصية متميزة، في مقابل ضمائر الغيبة اللاشخصية، وينتج عن ذلك أن ضمائر الغيبة ليست ضمائر بالمعنى الذاتي وإنما هي مجرد قرائن إحالية أقرب إلى أسماء الإشارة التي تحيل إلى وضع الخطاب أو موضوعه وتبقى، على أية حال، محايدة من جهة الدلالة على الشخص.

ويصدق هذاالتعميم، بالأحرى، على بدائل الإسم الشخصي المبنية انطلاقا من تقطيع فضاء الأنساب، ذلك أن موضوعية العلاقات القرابية خليقة، في هذه الحالة، بأن تستوعب كل ذاتية وأن تستبعد بالتالي أي بوح بمكنونها العميق.

وبالجملة، فإن ضمائر الغيبة وأسماء الإشارة، وما في حكمها، كل أولئك إنما يتعلق أساسا بالكيان الظاهري ولا يستطيع، على الأرجح، التعبير عن الوجود البسيكولوجي التام أو الذاتية. فهل تنعكس الآية متى تعلق الأمر، كما في الحالة الراهنة، باستعمال تلك العناصر اللغوية والعلائق الإجتماعية بدائل عن الإسم الشخصي امتثالا لشريعة المجتمع؟ أم أن ثمة بدائل أخرى تتيح للذاتية الإفلات من قيود المجتمع والمروق من سلطان اللغة؟

المسافة، تعظيما ورفضا

لئن جرد الإنسان الحديث عنه بالإشاريات اللاشخصية (ضمائر أو غيرها) من صفاته البشرية (أيا كانت دلالة ذلك في المقام المخصوص)، فما ذلك إلا لأنها تزيح آليا موضوع الخطاب بعيدا عن الحيز التلفظي الذي يكتنف حدي التقابل الثنائي بين الذاتي، أي المتكلم والمخاطب. وعلى ذلك يمكن القول، باطمئنان، إن الوظيفة الأساسية لبدائل الإسم الشخصي جميعا إنما هي خلق المسافة بين المتكلم والمخاطب من جهة، او بين المتكلم وموضوع الخطاب، من جهة أخرى.

وحيث أن حظر الإسم في الثقافة البيضانية ينطبق في حالتي التحدث إلى الزوج والتحدث عنه، فمعنى ذلك أن النساء البيضانيات، وهن ينصعن لإلزامات المجتمع، يأخذن مسافة مزدوجة من حضور موضوع الحظر كما من غيابه، مما يضفي على هذه الممارسة طرافة خاصة وعمقا انتروبولوجيا أكيدا.

وبالإمكان قراءة هذه المسافة الناتجة عن بدائل الإسم الشخصي، في ضوء ثنائية الحضور / الغياب، استثمارا لأبعادها الدلالية والنفسية والرمزية الغنية واستئناسا بالتناظر القائم بين طرفيها وبين المنظورين الثقافيين اللذين يكتنفان ممارسة حظر اسم الزوج بوصفها جزءا من الثقافة الشعبية، وحينئذ تكون المسافة بالمطابقة، تعظيما وتفريدا، كما تكون بالخروج، رفضا وقتلا رمزيا.

تتلخص المؤولة الأساسية المقترحة للنقاش هنا في الإفتراض، إذن، أن إزاحة موضوع الحظر عبر استعمال بدائله الموصوفة، ينطوي، من منظور سلبي، على رفض ضمني للموقف برمته، كما أنه يخفي نزعة تمردية ضد الموضوع المزاح مهما كانت مكبوتة عميقا في اللاشعور نظرا للقمع المادي والرمزي الذي يخضع له المجتمع الأنا النسوي.

وبديهي أن دلالة الرفض والتمرد لاتستطيع النهوض بمعزل عن دلالة الإنصياع والإمتثال، فاصطناع بدائل للإسم الشخصي وفقا للسنة الإجتماعية يدل بالأحرى على التفريد والتوقير وباختصار، على عبادة المجتمع.

والواقع أن وظيفة التعظيم والتوفير التي يضطلع بها الحظر تنسجم تماما مع الطابع الإستثنائي لدور الرجل في المجتمع التقليدي البيضاني، ففي نطاق الأسرة البدوية الزاوية يبدو الرجل – الزوج والرجل– الأب بمثابة كائن أعلى يستقطب أشكال السلطة جميعا ويبررها.

وإذا كانت دلالة التعظيم والعبادة جلية بديهية، فإن دلالة رفض السلطة الإجتماعية تبدو أقل وضوحا رغم أن عنف الضغط الإجتماعي على المرأة من المتوقع أن تتولد عنه ردة فعل غير مطابقة قد تأخذ شكل القتل الرمزي أو التمرد. كيف إذن يتأتى التأليف بين دلالتي القتل والعبادة في ضوء بنية المسافة الثنائية ومستتبعاتها النفسية والإجتماعية؟

من المغري محاولة اشتقاق الآلية الرابطة بين هاتين الدلالتين المركزيتين انطلاقا من صيغة معينة من علم نفس الأساطير، فالماضي الأسطوري للبشرية يؤكد –حسب دارسية– التلازم المنشئ بين حادثة قتل الأب ومؤسسة الزواج وعبادة الأسلاف.

على أن اعتباطية هذا النوع من التفاسير خليقة بإثارة الشكوك رغم شعبيتها في التحليل النفسي التقليدي، وبالتالي فمن المناسب البحث عن مبدإ موحد في إطار نفسي اجتماعي أكثر تقييدا.

ويبدو أن مفتاح هذا الإشكال يكمن في استغلال تناظر دوري الزوج والأب في الأسرة والمجتمع. إن الزوج شخص مزدوج بكل وضوح، فهو من جهة، مثير للكراهية، لأنه يجسد السلطة المستبدة، إلا أنه بالمقابل يعكس صورة الأب، أي الشخص المخوف المحبوب المجهول جميعا. ولعل هذا التناظر بين الرجل –الزوج والرجل– الأب هو، بالتحديد، ما يفسر معاملتهما على قدم المساواة في إطار شعائرية الإسم الشخصي، حيث يخضع اسم الأب لحظر مشابه، مما يجعل صورة الزوج تتداخل دائما في اللاشعور النسوي مع صورة الأب (خاصة وأن الزوج يكبر امرأته عادة في المجتمع البدوي المحافظ).

وهكذا، فلئن كانت المرأة البيضانية مدفوعة موضوعيا إلى الرغبة في قتل الزوج الطاغية رمزيا، من خلال التمرد على سلطته المطلقة، إلا أن الضغوط النفسية والإجتماعية والأخلاقية، وحتى الدينية، كفيلة بأن تضطرها إلى كبت تلك الرغبة المحرمة عنيفا، وحينئذ تلجأ، إجراء عقابيا موازيا، إلى تعظيم الزوج –الأب، وبذلك تحتفظ بتوازنها النفسي الإجتماعي. وعلى هذا، فإن انصياع المرأة للحظر قد يخفي أكثر مما يبدي.

البدائل المرتجلة بين بقاء المجتمع وانعتاق الأنا

مهما طفحت شعائرية حظر الإسم الشخصي بعلامات انسحاق المرأة البيضانية الزاوية وبمؤشرات انغراس المؤسسات الإجتماعية القمعية في اغوار بنيتها النفسية، فإن احتفاظها بتوازنها النفسي الإجتماعي يدل على وجود صمام أمان يقيها خطر تفكك الهوية وبطلان الذاتية (الجنون). فأين عسى يوجد المتنفس الضروري لانفلات الخطاب المضاد الضمني الذي يقتضيه، بالمخالفة، الإنصياع لشعائرية الحظر، كما قد ظهر؟

إذا أعدنا النظر في بدائل الإسم الشخصي للزوج في حديث النساء البدويات اليومي، لاحظنا، كما سبق، أن منها ما ينشأ من اصطناعهن أسماء وألقابا غريبة صوتيا وغير مكرسة اجتماعيا. ولا شك أن هذا «الإرتجال» يمثل خلقا جديرا بالعناية والإستثمار، على الأقل لما ينطوي عليه من سخرية ضمنية احترام مواضعة اجتماعية من خلال خرق مواضعات أخرى أكثر جوهرية.

فلئن انصاعت المرأة للسنن الإجتماعي باستعمالها النوع المذكور من البدائل عن الإسم المحظور، فلقد خرقت في

نفس الوقت السنن اللغوي بارتجالها لفظا جديدا غير موجود في المعجم، معبرة إذن عن موقف إيجابي واضح. وبما أن الحظر الذي يؤسس شعائرية الإسم الشخصي إنما ينصب على الدال لا على المدلول ولا على المرجع، كما بين قبل، فإن المرأة بتصرفها الإيجابي ذاك ترد بحظر مضاد مزدوج، إذ أنها بإبدالها دالا بآخر من غير اكتراث بالحقل الدلالي ولا بالنسيج الصوتي، ترفض ببساطة السنن الدال أي اللغة، وبتسريبها إلى المعجم الرسمي دالا غير اجتماعي – لأنه خال من المعنى عاطل عن التكريس –ترفض السنن المدلول– أي الثقافة.

إن هذا الرفض الجذري المضاد يؤسس منطقا آخر ضمن شعائرية الإسم المحظور، ذلك أن ارتجال اسم "خاص" للزوج يشكل احتواء للكون الإجتماعي الذي يضع ويفرض الأسماء والألقاب، كما يمثل انتزاعا للمسمى، من دائرة نفوذ المجتمع وإدراجه ضمن دائرة نفوذ مغايرة. وحيث أن الزوج يرمز للسلطة الإجتماعية بمختلف أبعادها ومصادرها، فإن التسمية غير المطابقة تصبح شكلا صريحا من أشكال الزعزعة الرمزية، يكشف عن انقلابية الأنا النسوي العميقة رغم مؤشرات المهادنة الشكلية.

على أن الإطاحة بسلطة الرجل ليست كل شيء وإنما هي مقدمة ضرورية لتحقق مشروع ايروسي ضد اجتماعي بصورة عميقة. ذلك أن الرجل مفرغا من قيمته الرمزية وسلطته لايعود شيئا أكثر من موضوع يمكن أن يكون محلا للتملك والإشتهاء.

وتفضح التسمية غير المطابقة بنفسها الأبعاد الشبقية لاستراتيجية الأنا النسوي، إذ أنها تعني الوسم ووضع العلامة وبالتالي امتلاك الموضوع.

ولئن اضطرت اللساني ضرورات عمله الخاص إلى اعتبار الدال الفردي لغوا باطلا، فإن المنظور الدلالي النفسي الإجتماعي المتبنى هنا يخول معاملة هذا اللغو بوصفه لغة تقوم تحديدا، على خرق قانون المعنى الإجتماعي. فكون اللغة الفردية لغوا لايعني، من منظور اللساني نفسه، أنها خالية من الدلالة وإنما يعني فحسب أنها لاتؤدي وظيفة الإبلاغ، بل تحول دون الإبلاغ مع ما يترتب على ذلك من قطع صلات الفرد بالكون الإجتماعي، وهذا بالضبط ما ألح عليه التأويل المقترح باعتباره تمردا ضمنيا.

وحاصل الأمر أن شعائرية الإسم الشخصي للزوج في الثقافة الشعبية البيضانية محل اصطراع استراتيجيات متباينة مناطها المجتمع بقاء والأنا انعتاقا، ومهما يختلف في تأويلها النهائي فإنها تكشف عن وضع النساء البدويات الحرج إزاء مشكلات الجنس والسلطة والتربية والثقافة بوجه عام، ومن هنا أهمية طرحها موضوعا للنقاش المتبصر.

*

**

***

سدوم ولد انچرتو..

وعبقرية التشاكل الصوتي والمعجمي

الحلقة الثانية

السالك ولد محمد المصطفى
رئيس مصلحة المعلوماتية ـ وزارة الثقافة والتوجيه الإسلامي

لقد تعرضنا في الحلقة الماضية لأهم النماذج التي تعامل بها سدوم ولد انچرتو مع المتاح اللغوي والمعرفي ، واليوم نواصل مع هذه النماذج، ونبدأها كالتالي:

اللّي يقوم النفسيَ
هو بُعرف المشهرْ
يڤطايَ بسبنيَّ
لاويهَ بتهليلْ أحمر
تحت فالروغ اژڤيطي
أفيدُ بفمينْ امعمرْ
عطايْ الخندودْ اخليَ
وأحايك والعكر لحمرْ
بعين شفتْ السيديَ
الحمرَ والرهج امغبر
هي ڤاع الڤدامي
ماتكاب والراصْ إمصيرْ
تركصْ كيف القانوتيَ
من ژيْ الڤالبْ تجمرْ
تحت أفڤكراش العربيَ
عثمانْ أفڤراشْ أهل أعمرْ
كتالْ ابليد السخيَ
اتكوشْ أهل التلب فالشرْ

هذا الفارس البطل السخي تجسدت صورته الخارجية والداخلية (المادية والمعنوية): هو بعرف ويعني نؤابة من الشعر في مقدمة الرأس، المشهر: المتجمل اللابس لأحسن ثيابه، وهو: بڤطايَ وهي نؤابة الشعر في مؤخرة الرأس، وبسبني: وهي قطعة من قماش الحرير ناصعة اللون حمرة أو خضرة، وتلوي فوق الرأس وتارة في الرقبة، وعثمان يلويها الآن في هذه الصورة في رقبته، وبتهليل ويعنى محفظة صغيرة من الجلد تصنع محليا، وتزخرف بالكثير من الرسوم يعلقها الرجال على صدورهم، وهو يركب اژكيطيَ: من مدارك خيل إدوعيش الشهيرة، وبيده مدفع "بفمين" أي له فوهتان،

هذه صورة مادية واضحة تتداخل فيها عدة ألوان، ثم تبدأ الصورة الداخلية: عطاي الخندود، اخلى، ومعناهما على التوالي: الممتلئة لبنا، حديثة النتاج، و"أحايك" والعكر هي أقمشة من أغلى المنسوجات في ذلك الزمن.

ولقد رأيت فرسه الحمراء من مدارك "السيديات" تندفع به في غبار المعركة، وهو يتقدم الشجعان وفرسه ترقص بأرجلها (اتكاب) وبرأسها (الراص إمصيرْ).

هذه القيم (قيم المروءة والدين) قد تأتي

في نصوص مختلفة كما مر معنا، وقد تتداخل في تشاكل دلالي معجمي في نص واحد، يهدف منه الشاعر إلى زخرفة اللوحة الفنية التي يريد أن يرسم لبطله كما في اتهيدينت "ڤرو" (لبتيت) التي أنشد في حق سيد أحمد ولد امحمد المشهور ب "شيخ آسكر" رئيس أولاد لغويز:

سيد أحمد كتال إڤيارْ
ول امحمدْ سند الصلاحْ
سيد أحمد غشوتهم ديارْ
اقيود أهل التلبّ رواحْ
سيد أحمد سند أهل التفسار
عطاي أڤطاي الروجاحْ
جمع فالخط أكان اعسارْ
يرفد ثقلت حمل المرواح
قومه بأفڤراش تحمارْ
اعفيس المشكيط الصياح

فصورة سيد أحمد هنا فيها مقابلة بين من يقتل الملوك (إڤيار) وبين من يكون ملجأ وسندا للصالحين من المجتمع، إنه قتل في سبيل الأخلاق الحميدة وليس من أجل القتل فقط. وتتواصل المروآت: ديار اقيود أهل التلبّ، الباحث عن قواد الظلمة ورؤسائهم، وعطاي أڤطاي ويعني الطرد الكبير من القماش الذي يتأرجح حامله من شدة ثقله، ثم إن جمعه ويعني به قبيلته وحيه إذا كان زمن العسرة والشدة يحمل عنهم حمل الكسالى والعاجزين (المرزاح)، وحافظ على أفضليته هذه بالقوة (تحمار المشكيط الصياح) المشكيط: الرصاص.

وقد نلاحظ هنا في نص سيد أحمد غياب الصورة الخارجية، والتركيز على الصورة الداخلية، فهل لذلك علاقة بكون الشاعر يعيش في إدوعيش ويزور سيد أحمد ولد امحمد من حين لآخر لقضاء بعض حوائجه، وهذا ما تؤكده الرواية الشفوية، التي تقول بأن هذه اتهيدين قالها له بعد أن أرسل له أمة تدعى "اكنيب"

وقد ركز في تصميمه لصورة امحمد شين ولد بكار ولد أعمر على العنصر المعرفي وطغيان العبادة في سلوكه على باقي شخصيته، فيقول في نص معنون بيون "انضي" (تيدوم):

محمد طلح الشباتْ
ملاحْ فالدنبّ أراح
والقرآن أتلت مراتْ
كرر نصْ في الالواحْ
أم گاع الدعياتْ
والسنوس بيهمْ راحْ
والسلبي والنفسياتْ
إسرهم بالتطراحْ
أواگفْ گدام المماتْ
والنوبّ توبتْ نصاحْ
أيد اتشطط فالكوماتْ
اعشار أمخظ والڤاحْ
وأيد اتوفّ فالفدياتْ
ذيك اشتغلتْ بالتسباحْ

أما التشاكل الصوتي فيما يشبه الانسجام التام بين مدلول اللغة (مرجعيتها) وبين ما يحدثه إيقاعها من تصعيد وجداني، فذلك هو المجال الحقيقي لعبقرية سدوم ولد انچرتو، سواء فيما يتعلق بتلك المقامات او تلك.

لبتوته المخترعة من طرفه ك "الرسم، و"اسروزي"، او تلك التي تمت زخرفتها وتدبيجها بمداكه الفني المعتمد على النغمات، مما أضاف إلى إيقاعها نفسا فنيا ملحميا جديدا لعب فيه تغيير صوت المعجم دورا هاما داخل وجدان الشاعر مثل "ادڤسري" وهو في الأصل بت اكبير من فئة الواكدي، لكن سدوم أطلق عليه في طبعته "السدومية" ادڤسري" ويعني في الاصطلاح الشعبي: حركة انفعال واضطراب جسدي ونفسي تدل على التعلق بأمر ما إلى درجة تشبه فقدان الوعي غيرة أو حبا أو ألما) فاستعار سدوم اللوحة النفسية المنتزعة من متعدد الحركات الجسدية والنفسية ليعبر بها عن شدة تعلقه بممدوحه (عثمان ولد اعل باب) وشحن النص بالكثير من المفردات الدالة على الانشغال بمصير وحاضر هذه الشخصية (في الدنيا أو في الآخرة)، وأدخل تعديلات على مواقع حركات الواكدي العشر، ونفس الترميم الإيقاعي والصباغة الموسيقية أدخلها الشاعر على مقام لبتيت وأنتج منه نسخة خاصة سماها: "اللحن" وهو تلحين حقيقي جديد لهذا المقام اعتمد

فيه الشاعر على إدغام بعض حروف الحلق في بعضها (الهاء والعين يقلبها حاء) فنشأت عن ذلك موسيقى من الآهات أو بالأحرى الآحات تشبه إلى حد كبير صوت الفعل الشعبي.

(هح-حه-هح) الذي ينتج عادة عن شدة الإعجاب أو التأثر التام، واستمع إلى المقطع التالي من هذا التلحين الجديد ل "لبتيت":

بسم اللهْ اعلَ شكر ازعيمْ
خيل إدوعيش واسبحَهْ
حيطام الزعمَ فاتلاطيمْ
الحومَ منهمْ يشبحْهَ
فارسْ الحمرَ أفارسْ امعيليمْ
أخمرازْ يومنْ صفحهَ
فأيرشْ للرجل فأراتيمْ
بارصاص القالبْ طيَّحْهَ
أفارس الزركَ لاحهَ فاجْحيمْ
فالهيبُ يحظيهْ ادفحهَ

عندما تقرأ هذا النص تجد أنه من الناحية الدلالية لا يضيف جديدا لكنه من الناحية الإيقاعية ينم عن انفعال شديد قد يكون مرده شدة الخوف من هذا البطل أو الطمع فيه أو ترضيته في موقف من المواقف.

أما الإيقاعات المخترعة من الأساس فأكثرها تفجيرا لطاقة اللغة من أجل تشكيل سيمفونية ملحمية اشتركت فيها كافة الامكانيات الصوتية والمعجمية هو: البت (المقام) المسمى الرسم، إن هذا الرسم بالكلمات الذي ألفه وأنشده سدوم في حق أحمد ديه ولد بكار ولد أعمر اعتمد فيه صوتيا على تسعين في المائة من حروف الشدة والتفشي، وعلى نسبة كبيرة من المقاطع القصيرة، والمقاطع الطويلة الأقل المستخدمة فيه تنتهي بالسكون الناتج عن الادغام (تنزلاط-وراط..)

إن هذا الرسم عبارة عن خمسة مقاطع يتخلل كل مقطع منها قاف (اتعرقيب) تغاير روي المقطع الرئيسي ووزنه، فمن بداية المقطع الأول مثلا:

ميرْ اعربْ تنزلاطْ
أقيْ وراطْ
وانيرزرڤ وانتشماطْ
باسمع شاعْ

وبعد العديد من الأبيات على هذا النحو ينتهي هذا المقطع بقوله:

أهدَ واللَّ مظلامَ
وجه الوند لولْ
فيه يحتل
عاد ل درس اعلام
ألا يحظرْ ما حتلْ
رايسْ أو حلْ
أو دار اعل خبيبْ اعمامَ
سعد باللَّ معطاهْ
كادْ نظراهْ
عرش آنيشْ الجرامَ

ثم يبدأ كذلك المقطع الثاني ب:

أخيار انجوعْ أڤوفْ
أڤانبْ أتوفْ
والمبرز معروفْ
باتفوليطْ

ويتابع على هذا النحو، ثم ينهي المقطع باتعرڤيبَ التالية:

أيكرم بيه الحوامَ
من هنون امبهدل
الفوڤ وأسهل
وأعمر فارس مريامَ
أمثل فاعرب درڤل
فأسمع ڤل
وأغفارُ ما تطامَ
ثمرَ ما يتبدَّلْ
ولا إموَّلْ
من ش فيه العلامَ
سعد باللَّ معطاهْ
كاد نظراهْ
عرش آنيش الجرامَ

ثم يبدأ المقطع الثالث بقوله:

أحمد صنجت لصناجْ
نهر الانتاجْ
أفحرمتْ مولَ التاجْ
لا اتخاطر

وينهيه بقوله:

يسغناي الجرامَ
ترهيبك لحڤ التل
مر سوحل واستقبلْ
والظلام
من حذرك ما تعملْ
يارجل اعرب لوت أمريامَ
سعد باللَّ معطاهْ
كاد نظراهْ
عرش آنيش الجرامَ

ويبدأ المقطع الرابع بقوله:

إجيـــر أخيـارْ إعيشْ
ريظـــت آنيـــش
للشعـرَ بالتغريـشْ
كـــان قصـــدوهْ

ثم ينهيه بقوله:

والعاتـق وأم اخـزامَ
أمـنْ هنـون امبهدلْ
الفـوك وأسهـلْ
وأعمـر فارس مريـامَ
مثـل فاعـرب درقلْ
فاسمـع قـلْ
عـن سمعُ ما يتعـامَ
وامسانـين تعجـلْ
مـا اتمـللْ
واغفـارُ مـا تطـامَ
ثمـرَ مـا يتبـدَّلْ
ألا إمـولْ
مـن ش فيـه العلامَ
سعـد باللّ معطـاهْ
كـادْ نظـراهْ
عـرش آنيـش الجرام

أما المقطع الخامس والأخير فيبدؤه بقوله:

خالـق ش يالقمـان
شـاع ل كـان
ألا قلنـاه إلن بـانْ
أنسـل حسـانْ
والطلـبَ والكحـلانْ
قـاع ردُّوهْ

وينهيه بقوله:

بيـات اعـدوهْ اصقامْ
اعـرب لـوتْ ألولْ
أتفنقـلْ
واعـرب جـوك أصيلامَ
وامسانـينُ تعجـلْ
ألا اتملّـلْ
واغفـارُ ما تطـامَ
أثمـرَ ما يتبـدَّلْ
ألا إمـولّْ
مـن ش فيـعْ العلامَ
عـرش آنيـش الجرام
سعـد باللّ معطـاهْ
كـاد نظـراهْ

إن التشاكل الصوتي والمعجمي الناتج عن طغيان حروف الشدة والتفشي، وارتفاع نسبة المقاطع القصيرة، والتقاء الساكن في جميع مقاطع النص، وكذلك عدم التوازن البين بين أشطار (أغصان الموشح) البيتين الذين يشكلان الوحدة الأساسية لهذا الوزن... كل ذلك حشد الكثير من مظاهر الانفعال النفسي أو إن شئت قلت صدق العاطفة عند الشاعر يضاف إلى ذلك الانشاد نفسه في المقام الذي ينشد فيه، إنه عراي اسروز من الجانب الكحله من مقام فاغ إنها أصوات المعركة الحقيقية أو المتخيلة استدعاها الشاعر سدوم ولد انچرت في ذهنه وخلق لها إطارا صوتيا ودلاليا ألفه من قعقعة السلاح وحمحمة الخيل ورهج المعركة، في شكل لغة صائتة في الكثير من حروفها ومكسرة في الكثير من مقاطعها، إنها لغة منفعلة منشدة في مقام الانفعال، لقد هيدن الشاعر هنا بها ل أو علي أحد الشجعان ليسكن من غضبه أو يواسيه في مصيبته أو ليفرحه بعد حزن المعركة أو ليتقي شره أو ليشيع خصاله بين عامة الناس في جو من الانسجام والتشاكل التام بين دلالات لغة هذا الشاعر وبين إيقاعها الخارجي والداخلي.

***

**

*

المتكلم في الرواية

محمد بن أحمد بن تتا

1- توطئة

يحمل هذا العنوان (1) مقال ذائع الصيت للناقد الروسي ميخائيل باختين، نشره ضمن «استتيقا الرواية ونظريتها» يتناول فيه المتكلم داخل الجنس الروائي بوصفه فردا اجتماعيا ملموسا متفردا ومنتجا للأيديولوجيا. غير أن هذا التشابه في العنوان، يخفي اختلافا كبيرا بين هذه السطور وبين مقال الناقد العظيم. وهو اختلاف يعود -من بعض وجوهه التي لاتحصى- إلا أن هذه السطور لاتعدو، في أحسن الأحوال، نوعا من محاولة تبرير الذات. وهي محاولة لاتنطلق من نظرية الرواية كنموذج مزكى معصوم، لكنها، في نفس الوقت، لاتنطلق من موقف "المنافرة" أو السجال الملحمي. إنها، وهي تتموضع داخل اهتمامات ومشاغل السرد العربي الحديث (2) الذي يتجاوز الاستنساخ المدرسي لقواعد النوع (3)، تطمح إلى الإسهام في دراسة نظم القصص في الثقافة العربية، أي كيفية تعليق بعض أجزائه ببعض "وجعل بعضها بسبب من بعض" (4). ذلك أن الوعي النقدي بالتراث وبتجارب الآخرين شرط لاغنى عنه لكل كاتب ينبذ التكرار والاستنساخ ويرفض القوالب الجاهزة إطارا لأسئلته وقضاياه.

2- تحديد أولي: الرواية، أي رواية؟

يعبر في اللسان العربي عن تتبع الأحداث بواسطة الكلام بألفاظ مختلفة: كالقصص والحكاية والحديث والخبر. وهي كلها ألفاظ تفيد بدرجات متفاوتة معنى التتبع (تتبع الأثر بواسطة الكلام، المحاكاة بواسطة الكلام، وهما في النهاية حديث أو إخبار عن الحدث). غير أن كل لفظ من هذه الألفاظ قد تمحض داخل الثقافة العربية أو كاد يتمحض لدلالة أخرى.

فقد اختص لفظ القصص في الثقافة العربية القديمة بقصص القُصَّاص أي بما كان يمارسه قصاص متخصصون من الوعظ والتذكير (5) والتسلية أحيانا (6)، في المساجد وفي الطرقات، وفقا لأنظمة مخصوصة. هذا هو معنى القصص عند رجال الحديث (7) ورجال الأدب (8) وعند المؤرخين (9).

أما الحكاية فقد تحولت منذ عهد مبكر للدلالة على التشخيص والتمثيل. وفرضت نفسها في أوساط العامة

بحيث لانصل إلى عهد الجاحظ حتى نجدها قد أصبحت «شغلا» مستقلا له من يتخصص فيه كما يستفاد من هذا النص: «إنا مع هذا الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن ومخارج كلامهم لايغادر من ذلك شيئا. وكذلك تكون حكايته للخراساني والأهوازي والزنجي والسندي والأحباش وغيرهم. نعم. حتى تجده كأنه أطبع منهم. فإذا حكى كلام الفأفاء فكأنما جمعت كل طرفة في كل فأفاء في الأرض في لسان واحد. وتجده يحكى الأعمى بصور ينشئها لوجهه وعينيه وأعضائه لاتكاد تجد من ألف أعمى أحدا يجمع ذلك كله. فكأنما جمع جميع طرف العميان في أعمى واحد. وكان أبو دبوبة الزنجي مولى آل زياد يقف بباب الكرخ بحضرة المكارين فينهق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب بهير إلا نهق. وقبل ذلك كانت تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبعث ولا يتحرك منها متحرك حتى كان أبو دبوبة يحركه وقد جمع جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد. وكـــذلك كان في نباح الكلاب» (10) هذه – مع الاعتذار عن طول الاستشهاد –هي الحكاية على نحو ما كانت معروفة عند العرب. وقد درسها، بهذا المعنى، بعض الدارسين المعاصرين (11) كما لايستبعد أن تكون المقصودة بهذا المعنى أيضا، في «حكاية أبي القاسم البغدادي» (12).

وما ينطبق على لفظي القصص والحكاية ينطبق على لفظ الحديث الذي تمحض للدلالة على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، كما ينطبق على لفظ الخبر الذي جرى استعماله بمعنى أقرب إلى التاريخ. فالأخباري ليس قصاصا ولا محدثا ولا حاكية إنما هو ناقل أخبار. (13)

وإذا كانت هذه الألفاظ قد أتيتْ من قبل نزوعها نحو تقليص الدلالة، فإن لفظ الرواية– الذي سنختاره هنا مضافا إليه لفظ القصة– قد كان ينزع إلى توسيع دلالته (رواية القرآن، رواية الحديث، رواية التفسير، رواية الشعر، رواية الأخبار) نزوعا طغى على معنى تتبع الحدث فيه، **غير أن هذه الخصوصية**، بالمقابل، أتاحت للفظ الرواية من العناية و«التقنين» ومن رسوخ «الثقة فيه» **أكثر مما أتيح للألفاظ الأخرى**.

الرواية، بهذا المعنى، خصوصا **رواية القصة ذات النزعة الفنية** (14) كرواية الجاحظ في البخلاء وبعض روايات التوحيدي، هي موضوع معالجتنا. **لأنها استطاعت أن تحقق للمتكلم** داخلها بعض التميز، ولأنها – أى رواية القصة أو قصة الرواية– بتواشجها مع ما سواها **من الروايات والقصص والحكاية** ظلت شكلا مفتوحا يمكن أن تتخلله الأجناس السالفة الذكر علنا، كما **يمكن أن تحاوره في الخفاء**.

3– المتكلم في الرواية

3–1. لكي نفهم العلاقة **بين المتكلمين في قصة الرواية لابد أن نستعرض** النموذج الأصل الذي صيغت على منواله. هذا الأصل – كما هو معلوم– هو **رواية علوم الدين «إن هذا العلم**– كما يقول مالك– دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم» (15). **وهذا العلم – كما يقول أيضا– «لايؤخذ من سفيه**، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس **وإن كان لايتهم على أحاديث رسـول** الله صلى الله عليه وسلم (16). إن الذي تقبل روايته لكلام الدين **ينبغي أن يكون مزكى بتوفر مجموعة من الشروط** فيه: صفات العدالة مضافا إليها الضبط. فإذا اختلت هذه الشروط في حلقة من **الحلقات انتفت صفة الصحة** عن هذا الكلام. وما ينطبق على رواية الحديث ينطبق إلي حد بعيد على رواية الأخبار **فمن الرواة عدول مأمونون** «ذوو إشفاق على عدالتهم» ومنهم غير مأمونين. يقول الجاحظ معلقا على خبر:

«هذا حفظك الله حديث مصنوع من توليد الروافض» (17) **ثم يضيف بعد إيراد حجج** عقلية على ذلك «والحديث ليس إسناد» (18) «**ومن أراد الأخبار فليأخذها عن مثل قتادة وأبي عمرو بن العلاء** (...) وأبي عبيدة (...) فإن

هؤلاء وأشباههم مأمونون وأصحاب خوف وتوق من الزوائد وصون لما في أيديهم وإشفاق على عدالتهم» (19).

هكذا يتمترس المروي غير الفني خلف حواجز العدالة والضبط ليحتمي من دخول أقوال الآخرين. ويتحصن داخل روايات الإسناد التي تشكل حوله دوائر مغلقة تحمي كل منها سابقتها بشكل تتكسر على جدرانه أقوال الآخرين.

3-2. في قصة الرواية التي تستنسخ هذا النموذج لايتغير الشكل الظاهري للنص من حيث انقسامه إلى سند ومتن، إلى راو ومروي، بل من حيث تمترس المروي وتحصنه - دهاء ومكرا- داخل أسوار الرواية. ومن حيث انقسام المتكلمين فيه إلى متكلمين خارج المروي ومتكلمين داخله.

والراوي الوسيط أو الرواة الوسطاء بين المروي وراويه الواقعي (الكاتب) ذوو سلطة وهمية أو سلطته إيهام بالصحة وبأهمية المروي وتميزه، وهي سلطة لاغنى عنها في ثقافة لابد أن يعرف فيها مصدر الكلام «المهم» الذي «يكتب» و ينقل كما لابد أن يعرف ناقله عن المصدر.

وقد يكون هذا الراوي محملا بلغة الراوي الواقعي (الكاتب) ونواياه حين يكون نموذجا معروفا داخل العالم الفني للكاتب (20). إنه يحفظ مسافة ما، ما بين المروي وراويه الواقعي لأنه منذ البداية محدد اجتماعيا (21) ويستطيع أن يفرض اختلافه علي الراوي الواقعي.

أما الراوي الواقعي، فهو -غالبا- خارج فضاء النص: يوزع الأدوار بين الرواة الوسطاء ويفضح من خلال تباين منظوراتهم وزوايا نظرهم ما يريد فضحه. «ويركز منظار الراوي الثاني (الراوي الوسيط حسب تعبيرنا) على ما يراه» (22) وفي حالة قصص الروايات التي تتكون من عدة قصص غير مترابطة ظاهريا، مثل (قصة أهل البصرة من المسجديين) يلعب الراوي الواقعي من خلال السياق دور الموحد، ويملأ بحضوره الفراغ بين النصوص.

3.3. هذه التقسيمات ليست مجرد استمتاع مرضي بالتفكيك وإلا لكان بوسعنا أن نضيف، على غرار النظرية السردية الحديثة، درجات أخرى. هذه التقسيمات - كما هو مألوف في الجنس الروائي- سبل لدخول التعدد اللغوي إلى النص من خلال خطاب الراوي الواقعي وخطابات الرواة الوسطاء وخطابات الشخصيات من غير الرواة. هذا بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من قبل من إمكانية دخول أجناس متخللة، وغيرها.

غير أن الأهم في هذا المقام هو كيفية تنظيم هذه اللغات: فالراوي الواقعي وهو يرص متكلميه رواة وأبطالا متميزين ومتفردين اجتماعيا يولد من بين التقابلات وتباين المنظورات رؤيته المتميزة عن رؤاهم. وهذا مألوف في كثير من نصوص السرد. لكن ما يلفت الانتباه في قصة الرواية، خصوصا تلك المؤلفة من عدة نصوص لارابط في الظاهر بينها، أن الراوي الواقعي وهو يدعو القارئ المفترض إلى الإسهام في كتابة النص من خلال ملء الفراغ الدلالي بين أجزائه، إنما يستدرجه بهذا الطعم إلى أرضية إيديولوجية، قد نصب له فيها الفخاخ، وهيأ له المزالق سلفا.

4-إذا كنا في نظر القارئ المبجل من ناقد بصير وكاتب نحرير قد تطاولنا على مقام أهل العلم بانتحالنا عنوان مقال لناقد عظيم، وتناولنا أشكالا من السرد قد "فرغ النقاد الحقيقيون من شأنها" وقرروا بعد تفكير عميق أنها لاترقى الى مستوى الآداب العالمية..، فلعل من خير ما نستشفع به إليهم هذه الفقرة من كلام باختين نفسه عن نفسه:

«إننا لم نتناول سوى الأشكال الأساسية المميزة للأنواع الأكثر أهمية في الرواية الأوربية وبطبيعة الحال، فإنها لاتستنفد جميع الوسائل الممكنة لإدخال وتنظيم التعدد اللغوي داخل الرواية.. (23)

الإحالات:

1- نشر هذا المقال مترجما إلى العربية محمد برادة في مجلة فصول سنة 1985 قبل أن ينشره في "الخطاب الروائي" الذي صدرت الطبعة الأولى منه عن دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة 1987.

2- في ندوة مكناس 1983 دعا عبد الفتاح كليطو الى دراسة أشكال السرد الكلاسيكي من أجل الإحاطة بأشكاله وعناصره وإلى الإستفادة من التراث السردي من أجل إبداع أنواع سردية جديدة. ومن الصدف أننا كنا قد بدأنا في هذا التاريخ، على وجه التقريب، محاولة تطويع شكل الرواية التقليدي للمضمون الواقعي.

3- انظر مثلا: محمد برادة: القصة العربية: الهوية، التجريب، الصيرورة. مجلة الوحدة، السنة الخامسة، العدد 58/59 يوليو/ أغسطس 1989 ص. 72.

4-هذه العبارة لعبد القاهر الجرجاني في معرض حديثه عن النظم. انظر دلائل الاعجاز، صحح أصله محمد عبده والشيخ الشنقيطي ووقف علي تصحيح طبعه وعلق حواشيه محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت لبنان 1981 ص: ف.

5- انظر كتاب القصاص والمذكرين لابن الفرج بن الجوزي، تحقيق محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي 1984 ص: 157

6- انظر علي سبيل المثال قاص مرو الذي يورد ابن قتيبة خبره في عيون الأخبار «عن علي بن هشام قال كان عندنا قاص بمرو يقص فيبكينا ثم يخرج بعد ذلك طنبورا صغيرا من كمه فيضرب به ويغني ويقول: «بااين تيمار بايد أندكي شادي» معناه: ينبغي بعد هذا الغم قليل فرح- عيون الأخبار. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة 1963 ص: 4: 91. كما يتكرر ذكر الصبيان اللاهين، والنساء المستحسنات» عن ابن الجوزي في حديثه عن مجالس القصص. كتاب القصاص. ص: 371 ، 328.

7-وذلك أمر مستفيض في كتب الرجال، كالكامل لابن عدي، والميزان للذهبي، ونحوها.

8- انظر مثلا البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة الخانجي القاهرة 1968 ص. 367

9- انظر مثلا خطط المقريزي دار التحرير للطبع والنشر، طبعة صدرت في 47 عددا ما بين 27 أغشت 1967 و 21 يوليو 1969 ص 3: 120 وما يليها. 10- البيان والتبيين ص.ص 69-70

11- فمن اهتم بموضوع الحكاية الدكتور على عقلة عرسان في «الظواهر المسرحية عند العرب» والدكتور محمد حسين الأعرجي في «فن التمثيل عند العرب». 12- نشرها آدم متز سنة 1902 في هيدبرج.

13- يصنف ابن النديم الأخباريين أمثال أبي مخنف والشرقي بن القطامي وابن داب مع النسابين، انظر الفهرست للنديم، تحقيق رضا تجدد طبعه طهران 1978 ص 101 وما يليها.

14-تناول هذه النزعة الفنية طه الحاجري في مقدمته لكتاب البخلاء.

15- انظر إسعاف المبطإ برجال الموطأ، بذيل تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك للسيوطي، توزيع دار الفكر بيروت دون تاريخ ص 3

16- إسعاف المبطأ ص.3

17- رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام محمد هارون. مطبعة الخانجي. القاهرة / ص2: 223

18- رسائل الجاحظ ص 2: 225

19- رسائل الجاحظ ص 2: 227 - 228

20- يوسع الكاتب، إذا كان قد أحكم بناء عالمه الفني، أن يستخدم بعض شخصياته المعروفة في نصوص سابقة، رواة للنصوص الجديدة.

21- لامعنى -في نظرنا- لراو غفل غير محدد الانتماء، وسواء تحدد انتماء الراوي من لازمه التعريف التقليدية، أو من لغته لهو دوما محدد اجتماعيا.

22- انظر محمد ولد عبد الحي، في تناوله للمنظور في كرامات الشيخ (التجديد في الأدب الموريتاني في العصر الحديث بحث مرقون بكلية الآداب بمنوبة - جامعة تونس- 1989م ص 64

23- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، ص. 81 (طبعة دار الأمان ، المغرب، 1987).

تجربتي الروائية

د/سهيل ادريس

لم أعط في الرواية كثيرا.

خلال عشرة أعوام (1952 - 1962) كتبت ثلاث روايات يرعبني الشعور أحيانا بأني لن أكتب بعد رواية .. وتأخذني النقمة على الأدباء أنهم صرفوني عن الكتابة لأهتم بما يكتبون. حين أتسلم من أحدهم مخطوطة، أفرح له وأحزن لنفسي. وقد يأخذني الحسد، وأندم أني لست أنانيا بما فيه الكفاية. كانت الأنانية تقتضيني أن أفعل كما يفعل آخرون: ألا ينشروا إلا إنتاجهم الرائج. ولكنني ألتمس العزاء بأني أشارك في إقامة بنيان ثقافتنا الجديدة، ولو بلبنات الآخرين. أعزي نفسي بذلك، ثم أحزن من جديد.

وفي كل مرة، ينتهي بي الأمر الى أني لايحق لي أن أيأس. كُتبت منذ سنوات قصة قصيرة بعنوان «التل والنورس» لا أزال أتعلق بها كخشبة إنقاذ، كانت في الأصل مشروع رواية، ثم خفت أن تصرفني الأحداث في لبنان عن أن أكتبها رواية، فجمعتُ خيطوها وركزتها، على أمل أن أعود إليها فأحل هذه الخيوط وأنشرها فوق الرمال نهبا للريح والشمس، من غير أن أتساءل إذا كانت الشروط الفنية تسمح بتحويل قصة قصيرة إلى رواية، حتى ولو كانت بالأصل مشروع رواية.

أكره الشروط، فنية أو غير فنية، يشرعها النقاد، لكل كاتب شروط يفرضها مزاجه وحساسيته، أعطني حساسية متفردة وأطحْ بكل نظريات النقاد!

تفضل الدكتور سهيل ادريس أثناء زيارته الأخيرة لموريتانيا بكتابة هذه الشهادة لمجلة «الموكب الثقافي» وننشرها هنا كما هي إفادة للتاريخ والنقد. ولاشك أن لهذه الشهادة أكثر من قيمة، لأن الكاتب اللبناني والعربي الكبير سهيل إدريس عندما يشهد على الآخرين فإن شهادته مزكاة، وعندما يشهد على نفسه فإن لشهادته عمق الإخلاص للمشغل الذي خدمه منذ أكثر من سبعة عقود من الزمن. فإليكم شهادته.

للتذكير فإن الدكتور سهيل إدريس نشر في مجلته «الآداب» ملفا قيما عن الأدب الموريتاني نقدم عنه عرضا في هذا العدد.

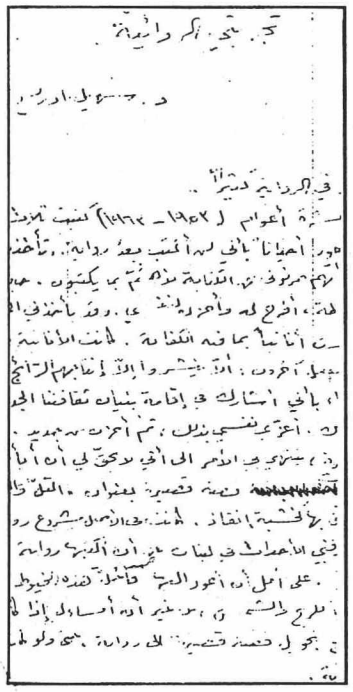

على اختلاف في ايديولوجيتها سيف الأحكام القيمية، ليدينا البطل ويصفاه بأنه سفيه خسيس ارتكب عملا لا أخلاقيا بتخيله عن الفتاة التي حملت منه، وخرجا من ذلك بأن المؤلف، مثل بطله، سيفه خيس!.

ولكن من حسن حظ بطل "الحي اللاتيني" أن قام عشرات من الدارسين يتعاطفون معه، محللين سلوكه بين الوقائع والأحداث ويربطونه بوضع الإنسان العربي المحروم المقموع، جنسيا وفكريا واجتماعيا، الذي يذهب ليلتمس الحرية في فترة من الاغتراب المؤقت، حتى إذا أشبع هذه الرغبة المقموعة والتي كانت تكبت معظم طاقاته الإنسانية والإبداعية، بدأ يعي ذاته ويستكمل مختلف أبعادها، ويوظف طاقته في خدمة قومه الذين يعود اليهم. لقد ارتكب هذا الإنسان كثيرا من الآثام والأخطاء، لأنه كان يعتقد أن الحرية بلا ثمن، ولكنه حين أراد التكفير عن خطئه أثبت أنه أصبح يعي مسؤوليته، وأنه مدعو لتوظيفها في خدمة قضاياه المصيرية، وهذا ما تعبر عنه العبارة الأخيرة في الرواية، حين تسأل أم البطل ابنها: "هل انتهينا يا بني؟، فيجيبها: "بل الآن نبدأ يا أمي!".

كنت أعرف، من غير أن يعلم الدارسون، أني معني في رواياتي بفكرة محورية هي "الصراع"، لأني، بصفتي إنسانا عربيا، أعيش هذا الصراع في كل لحظة من الحياة. وحضور هذاالصراع المحوري يدل على أن ما قد يعتبره البعض من أن رواياتي الثلاث يمكن وصفها بأنها سيرة ذاتية مروية Autobiographie romancée وظف لطرح قضية عامة ولو كانت تتخذ اللهجة الذاتية. وقد وصفت "الحي اللاتيني" بأنها صراع الشرق والغرب في وجدان إنسان عربي يعيش تمزقا اجتماعيا وحضاريا. ووصفت "الخندق الغميق"، بأنها صراع جيلين في أسرة واحدة، يقوم فيها الأب والأخ الأكبر بدور القوة الرجعية المعوقة التي تتمحور على النفاق والتناقضات والهموم الصغيرة بينما يقوم الابن الثاني وشقيقته بدور القوة المتطورة التي تسعى إلى التغيير. أما "أصابعنا التي تحترق" فتصور في رأي الدارسين صراع مثقف عربي من أجل الحفاظ على استقلاليته وحريته وكرامته في جو مليء بالعوامل التي تغري بالانحراف.

وقد طمحت ذات يوم، عند إعلان ميلاد المقاومة الفلسطينية المسلحة، الى تجسيد الصراع الكبير الذي نخوضه في الوطن العربي لاسترداد الحق المسلوب.

وكان أول عمل ينبغي أن أقوم به، هو أن أدرس تاريخ فلسطين، فعكفت على مراجعة المصادر وقراءة المراجع لتكوين الخلفية التاريخية لرواية كبيرة، ربما كانت ثلاثية او رباعية، تتناول حياة ثلاثة أجيال عبر أسرة فلسطينية واحدة. وكنت على يقين من أن هذه "الرواية الفلسطينية" ستكون، على نحو ما، "الرواية العربية" لتداخل تاريخ فلسطين بتاريخ العرب الحديث، بل إن التاريخ الفلسطيني، منذ عام 1948 خاصة، أصبح التاريخ العربي بعناوينه الكبرى.

ولم تكن ولادة هذا المشروع في ذهني وارتباطه بميلاد المقاومة الفلسطينية امرا اعتباطيا او مجانيا. بل كان ذلك حصيلة وعي عميق بأن زمن الهزائم التي عاشها العرب بصورة عامة والفلسطينيون بصورة خاصة، أوشك على الانتهاء. كانت الأمة العربية، في تلك الفترة بالذات، تتشد للمعركة المصيرية التي كانت المقاومة الفلسطينية تشكل طلائعها، وكان ثمة شعور عميق، وإن كان حدسيا، لدى الناس جميعا عندنا، بأن هذه المعركة ستنفجر بين يوم وآخر وفي تلك الفترة، وضعت العنوان الكبير للرواية، مستوحى من تاريخ الماضي مزوجا باستشراق المستقبل القريب، وكان العنوان، "زمن الهزيمة والنصر".

وقضيت أكثر من عام في مراجعة المصادر والتقميش، حتى بدأت "رؤية" الرواية تتكون رويدا في مخيلتي، ثم أحسست بحاجة ماسة إلى أن أعايش بعض رجال المقاومة عن كثب، وأن أقضي بينهم، ولو فترة قصيرة

تمكنني من أن أقتبس منهم بعض الملامح الواقعية لنماذجي الروائية، وبقيت بضعة أيام في "الأغوار" لم تكن كافية بالطبع لمنحي الذخيرة الضرورية، ولكنها نجحت في إزالة التهيب الذي كنت أعانيه كلما هممت ببدء الكتابة. وفي أوائل عام 1967، شرعت في تأليف الرواية، وقد نشرت بالفعل الفصل الأول منها في العدد الثاني من العام نفسه (شباط 1967) في مجلة "الآداب"، وفي الأشهر التالية، كانت حماستي للرواية تتضاعف مع تفاقم الأحداث والاقتراب من حزيران، وفي أيار من ذلك العام، تجسد أمامي المعنى الحقيقي المحسوس للقسم الثاني من ذلك العنوان، وهو "النصر"، بعد زمن الهزيمة.

لست بحاجة بعد، إلى الإطالة، كان حزيران في تخطيطي الأول، يعني انتهاء زمن الهزيمة، ولكنه حين وقع كرس ذلك الزمن، وكان طبيعيا في تلك الظروف، وهذا بالطبع موقف ضعيف مني، لأنه يتناقض مع ما كنت ولا أزال اؤمن به حقا من أن الأمة العربية لايمكن أن تنهزم إلى الأبد.

ولكنه ضعف بشري لابد، من أجل القضاء عليه، من وقوع أحداث مضادة في مثل خطورة 5 حزيران، ولا نزال حتى اليوم، بين الخيبة والإحباط، في انتظار مثل هذه الأحداث التي لاتأتي.

قد يرى بعض الدارسين سببا آخر لإخفاقي في كتابة الرواية الفلسطينية: هو أني لا أنجح في أخذ موضوعاتي من غير تجربتي الحياتية الخاصة.

وأنا لا أعتبر ذلك تهمة، ولا أشعر من ذلك بعقدة. إذا استطعت أن أوظف تجاربي الخاصة لأصور هموما عامة، كما يقول الكثيرون فليست تلك بنقيصة. بل قد تكون مزية أن يتمكن أحدنا من خلق شفافية ما تستطيع أن تعبر بالمتلقي من برزخ الأنا الى محيط الآخر، الآخرين، لاسيما إذا لم يخطط مسبقا لهذه الشفافية، بل كانت محصلة مزيج من الوعي التلقائي واللاوعي الكامن.

إنني لا أرسم لأبطالي مسير سلوكهم، أتصور لهم حركة إجمالية دالة أضعهم في إطارها حتى إذا انتفضوا بالحياة أملوا علي - في كثير من الأحيان- تطور سيرتهم. بل إن بطلي "أصابعنا التي تحترق" سارا بعكس ما كنت أظن، إذ أن مقتضيات التطور الحدثي في استشفاف الصراع فرض علي البطل ان يخون زوجته، وفرض عليها هي أن توشك علي خيانته. إنه على المؤلف، في مثل هذه المواقف، أن يخضع لتصرفات أبطاله، وأن يدعهم يخرجون على خطه، وقد يراهم يبتعدون عنه وهم يمدون له لسان السخرية!

ومثل هذا هو موقفي من التقنية الروائية. إن الرؤية الموضوعية، أي المتعلقة بالموضوع، تفرض هي أيضا الشكل، ومع ذلك، فأنا متأكد من أني قد تأثرت بالرواية الوجودية -موضوعا وتقنية- حين كتبت "الحي اللاتيني" اما "الخندق الغميق" فقد اعتمدت السرد الكلاسيكي" باستثناء أنها راوحت -عبر قسميها- بين صيغة الغائب، وصيغة المتكلم -المتكلمة.

وأود أن أعترف الآن - بهذه المناسبة- أني كتبت "الخندق الغميق" على عجل، من غير تريث ولا تعمق، كأنني كنت أسترق لها الوقت استراقا من أيام ثورة 1958 التي كانت تستأثر باهتمامي. وكم أتمنى أن تتاح لي فرصة إعادة كتابة هذه الرواية التي يفضلها المستشرقون على روايتي الأولى بسبب من لونها المحلي وتصويرها الاجتماعي. وقد عدها صديقي جاك بيرك وثيقة اجتماعية هامة.

وأما "أصابعنا التي تحترق"، فقد تنوعت فيها أساليب التكنيك وفقا للحظات النفسية والزمان الروائي وطبيعة العلاقات بين الأبطال.

وأحسب تقنيتها أنضج من الروايتين السابقتين.

هذه، أيها الأصدقاء، ملامح من تجربتي الروائية.

ولكن إلى أي حد يحق لي، بعد انقطاع تجاوز ربع قرن، أن أتحدث بعد عن تجربتي الروائية؟

ان الروائي الذي يغذي أملا، أو حتى وهما،

في العودة إلى ميدان غاب عنه، يظل على حقه، كما أعتقد، في تذكر تجربته وابتعاثها، ما دام على قيد الحياة.

لقد قطعت الرواية العربية، في مسيرتها منذ الستينات، أشواطا طويلة من التطور والتقدم، وليس استمرار الاقبال على قراءة روايات صدرت في الخمسينات دليلا على أن هذه الروايات لم تتجاوز، ولكن الاعتراف بواقع الانقطاع الى التوقف قد يخفي أزمة حقيقية يعيشها الكاتب العربي، روائيا كان ام شاعرا ام قصاصا أم مسرحيا، أليست هذه الأزمة حقا هي أزمة حرية التعبير؟ وهل تحدي الأزمة هو دائما في طاقة الكاتب العربي؟

الا يعرضه هذا التحدي، في كثير من الأحيان، الى إخضاعه لشتى ألوان القمع والإرهاب، وربما التضييق عليه في الرزق؟

حتى ولو انطلق الروائي من أحداث ذاتية، ألا ينبغي للعمل الفني أن يشف حتى يخرج الى الموضوعية فيتحدث عن الآخرين فيما هو يتحدث عن نفسه؟ وماذا تراه سيقول عن الآخرين في مناخ التدهور الهائل الذي تعيشه الأمة العربية اليوم؟ ألا ينبغي له أن يدين الأنظمة والمؤسسات السائدة ويعزو اليها كل أسباب هذا التدهور؟ ولكن أين يجد مجال التعبير عن هذا التحدي إذا كانت وسائل الإعلام كلها في أيدي الأنظمة وبتمويل منها؟

وحتى لو كانت ثمة وسيلة إعلام مستقلة، أليست مهددة دائما بالاحتجاب إذا حرمت الأنظمة قراءها من قراءتها؟ أليست مضطرة أحيانا إلى الصمت أو المهادنة لتستطيع الاستمرار؟

تلك ، أيها الأصدقاء، أسئلة أطرحها على وجدانكم، لأني طرحتها على وجداني وأنا أحاول أن أبحث عن سبب لانقطاعي طوال هذه الفترة عن كتابة الرواية...

صحيح أني منهمك منذ أكثر من عشر سنوات في وضع معجم لغوي عربي كبير، بدأه معي المرحوم الدكتور صبحي الصالح، ويتممه الآن معي ابني الدكتور سماح ادريس، ولكن هذا، كما اعتقد، ليس سببا كافيا لتوقفي عن الإبداع الروائي، وقد اعتدت أن أعد نفسي وأعد الآخرين بأني عائد إلى الرواية فور إنجاز هذا المعجم، فهل تراني سأحقق هذا الوعد بعد عام أو عامين على الأكثر، أم أنها ذريعة لتبرير الكسل او إيثار الراحة أو طلب الرفاهية، أو، ولأقلها بلا مواربة، التقدم في السن؟

تلك شهادة أضعها بين أيديكم، وبين أيدي النقاد بصورة خاصة، إيمانا مني بأنهم يحللون ما توحيه أفضل ما أحلل، حسبي أن أكون صادقا في طرحها، أن أكون صادقا مع نفسي قبل كل شيء!

***

المثقفون الشناقطة في المشرق العربي

مراجعات حول صورة موريتانيا في الآداب العربية

حماه الله ولد السالم
كلية الآداب – نواكشوط

كغيرها من أطراف بلاد العرب،"اندمجت" موريتانيا الأمس، على عهد الفتوحات، ضمن فضاء دولة الخلافة، منذ أن خضدت السرايا العربية المنطلقة من السوس)1(، شوكة قبائل صنهاجة التي كانت تعمر المجال الصحراوي آنذاك، وقد أدت هذه العملية إلى تعرف المعنيين لأول مرة على الإسلام السني السلفي (ولو بمستوى لفظي) تعرفا كفل لهم الاحتماء الدائم من بطش الفاتحين العرب، وانتماء مجالهم الترابي (بلادُ أنبيةَ = صحراء صنهاجة) إلى الفضاء العربي الإسلامي بشكل حاسم.

ثم جاءت حركة المرابطين التي رسّخت الإسلام الصنهاجي وبعثت من أحضانه حركة توحيدية، ربطت بين المنطقة والمجال الإسلامي المغربي من جهة، ومع مركز الخلافة العباسية، عبر الولاء السياسي والتواصل البروتوكولي الدائم، من وجه آخر.

غير أن موريتانيا لم تكن آنذاك قد وضعت بينها والمشرق العربي أسسا مكينة للعلاقات الفكرية والحضارية، بدرجة تجعل المصادر المشرقية تشير إلى حضور (موريتاني) يشار إليه وتوثق عنه أخبار يمكن أن تكون أساسا لصورة له عند المعنيين، وبذا فإنه لايمكننا الحديث عن صورة الموريتانيين في المشرق إبان الحقبة المرابطية وإلا لكان الأمر مقصورا على قلة من الصنهاجيين، ومن أوساط نبيلة في الغالب، رحلت إلى المشرق من أجل أداء الحج ولم تدون عنها المصادر المشرقية أي شيء يذكر، ناهيك عن أن المجتمع الموريتاني لايقوم على أساس صنهاجي فقط بل يشمل مجموعات أخرى عديدة (هلاليين، حسانيين، شريفيين ...) صهرتها الثقافة العربية الإسلامية عبر مسار تاريخي معقد.

إننا نحسب أن صورة موريتانيا الأمس في المشرق، هي صورة نخبها العلمية التي رحلت شرقا بعد أن تبلور كيان حضاري محدد تنتمي إليه وتمثله، وهي مرحلة تنطبق بشكل خاص على "الفضاء الثقافي الموريتاني" بعد أن أصبح يعرف مشرقيا ببلاد شنقيط وينسب إليه القادمون منه عبر ركاب الحج، فيسمون بالشناقطة.

وقد تمت عملية إطلاق هذه التسمية على البلاد وسكانها، في ظرفية يشرحها إجمالا ضمن رسالة من تأليفه الفقيه الشنقيطي عبد الله بن إبراهيم العلوي (ت ١٢٣٣-١٨١٤) وعنوانها: صحيحة النقل في علوية إدوعل وبكرية محمد قل، والمكتوبة سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠ (أو ١٢٠٨هـ)، وفيها يقول:)2("وكان الركب يمشي من شنجيط إلى مكة كل عام ويحج معهم من أراد الحج من سائر الآفاق، حتى أن أهل هذه البلاد: أعني من الساقية الحمراء إلى السودان

إلى أروانْ يعرفون عند أهل المشرق إلى الآن بالشناجطة ..." لكن ابن الحاج ابراهيم لايشرح متى تم انتشار هذه التسمية مشرقيا تبعا لاستقلال ركاب الحاج الشنقيطية عن صنوتها السودانية (التكرورية) التي كان الشناقطة ينضمون إليها أثناء استقرارهم في ظل إشراف سياسي لبعض الممالك السودانية المسلمة على شرق موريتانيا الأمس.

ونعتقد أن هذا الاستقلال قد تم على عهد الفقيه الشنقيطي أحمد بن أحمد بن الحاج العلوي الملقب أگد الحاج (ت١٠٨٦هـ/١٦٧٥م) والذي كان جده هو أول من حج من أهل مدينة شنقيط حسب الرواية المحلية،)3(وفي عهده أضحى اسم بلاد شنقيط علما على المنطقة ورائجا في المشرق وفي بلاد المغرب ذات الركب الحجي العريق الذي بدأ الشناقطة يلتحقون به كل عام، إلا أن ذيوع اسم بلاد شنقيط والشناقطة على مستوى المشرق يظل راجعا إلى كون حجاج موريتانيا الأمس الذين وصلوا إلى المشرق بأعداد تكفي لتمييزهم كمجموعة مستقلة قد يكونون وصلوا من مدينة شنقيط، بحكم ازدهارها الذي أضحى ماثلا للعيان منذ نهاية القرن الحادي عشر (ق ١٧م)، ولاستقلالها بركاب حج خاصة في فترة متزامنة تقريبا مع انهيار ركاب الحاج الإفريقية بانفراط عقد السلط التي كانت تشرف عليها، وهو تحول تم –بالتزامن تقريبا– مع إفضاء عملية تكوين تاريخية معقدة لمجتمع الصحراء، إلى نتيجة أضحت ماثلة للعيان وهي بروز كيان شنقيطي متميز بلغته العربية الملحونة (الحسانية) وبأنماط عيشه المشتركة إلى كثير من السمات التي تميزه على ما يجاوره من كيانات حضارية، وهو الكيان الذي صار سكانه يعرفون مشرقيا بالشناقطة ومحليا بالبيضان.

إن هذه المنظومة الشنقيطية هي التي سنلتزم في هذا العرض تقديم أصداء حضور نخبها المعرفية إلى المشرق ضمن الكتابات التي دبجها المشارقة، وذلك في سياق تتبعنا لأطوار التفاعل الثقافي المشرقي الشنقيطي الذي هو الإطار الذي ربط موريتانيا بالمشرق العربي.

١ـ بدايات الحضور الشنقيطي في المشرق (ق ١٤/١٦م)

"عهد الصورة الغائبة أو المشوشة":

قبل تعرف الشناقطة على أنفسهم مشرقيا، تبعا لانتظام أركاب حجهم الخاصة، كانت صلتهم بالمشرق قبل ذلك تتم عبر ركاب الحاج السودانية، أو من خلال الالتحاق العشوائي بالركاب المغربية الجهوية (السوس، سجلماسه ...). ولذلك فإن المنتقلين من الشناقطة إلى المشرق، خلال هذه الفترة، لم يكونوا يعرفون باسم عام موحد يميزهم عن غيرهم من حجاج الآفاق، وإنما كان الكتاب المشارقة يضيفونهم إلى الجهة التي قدموا منها حتى ولو لم يكونوا من سكانها أو من المنتمين إليها حضاريا، وينسحب هذا الطابع العام على الفترة الواقعة قبل ق ١٠هـ/١٦م والتي ترددت خلالها أصداء خافتة لبعض الشخصيات الشنقيطية ضمن كتابات المشارقة مثل الترجمة التي عقدها ابن حجر في الدرر الكامنة (٣٥٤/١) للمسمى الحسن الصوفي التكروري، فقال: "إنه هاجر إلى المدينة وبها دفن، وقد هاجر إليها في عشر الستين وسبعمائة، ووصف بأنه كان معتبرا ذا نعمة محبا في الصالحين والعلماء واقتنى كثيرا من كتب العلم...")4(إن المترجم نسب مسُوفهْ، القبيلة الصنهاجية الشنقيطية المعروفة، ثم عقِّبت النسبة باسم التكرور الذي هو مجال محدود عممه المشارقة، في فترة خاصة، على كل القادمين عبر ركاب الحاج السودانية، حتى ولو لم يكونوا سودانا في الأصل.

ومن نفس المنطلق يمكن فهم الإشارات التي تتحدث عن الفقيه المتمكن عبد العزيز التكروري الذي تبالغ الروايات

الشنقيطية المدونة في "تنبكتُ"، في قدرته المعرفية ورسوخ قدمه في الفقه المالكي، بمستوى جعل المشارقة ينهالون إليه طلبا لتقريراته وشروحه على مختصر خليل.)5(والأمر يصدق على سميه الذي يذكره السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) في معجمه الذي دبجهُ حول أسماء شيوخه وتلاميذه ومن في معناهم من أهل الآفاق.)6(

إن هذه الأصداء الشنقيطية الخافتة في كتابات المشارقة، كانت تقابلها، خلال هذه الفترة أصداء أقوى منها للعلماء المشارقة ومؤلفاتهم وأسانيدهم ومناقبهم في الدوائر العلمية الشنقيطية، خصوصا في مدن ك: "تنبكتُ" و"ولاته"، وهو ما يرجع إلى أن النخب العلمية في هذه المدن كانت في بداية استيعابها لثقافة المشرق، مما جعل صورة المشارقة طاغية، نتيجة لوهجها الحضاري على صورة الشناقطة في الديار المشرقية.

2_ مرحلة الحقل الوسط في التفاعل الشنقيطي _ المشرقي:

منذ نهاية القرن الحادي عشر الهجري وبداية تاليه، تنامى الحضور الشنقيطي في المشرق وبدأ الكتاب المشارقة يدونون عنه أخبارا أكثر دقة، بشكل يجعل صورة الشناقطة أقرب إلى الوضوح والانسجام ضمن كتابات المعنيين. ومن أبرز هؤلاء الكتاب يرد اسم اللغوي المصري المتمكن محمد مرتضى الزبيدي (ت 1212 -1790م) الذي سجل في مؤلفه معجم المشايخ)7(عدة تراجم لشناقطة لقوه واستمعوا لدروسه وأجازهم إجازات حافلة، وذكرهم بأسمائهم ونسبهم إلى أوطانهم وقبائلهم في جملة أخرى من التفاصيل التي تبرز عمق التواصل الفكري بين الشناقطة والمشارقة، مما انعكس إيجابيا على دقة هؤلاء في تدوين أخبار زائريهم من الشناقطة. وتمثل نصوص الزبيدي أنصع الأمثلة على هذا النوع من الدقة، لأنه هو نفسه قد أضحى عند حجاج الآفاق "من وجوه العصر" الذين يتبرك بهم، الأمر الذي مكنه من أن يدبج أخبارا دقيقة عن زائريه من الشناقطة وغيرهم، لأنه يتلقى هذه الأخبار من المعنيين مباشرة ومن هنا فهو في تراجمه يميز بين الشناقطة الذين أجازهم حسب مستوياتهم العملية، وبألفاظ وصفات وتلقيبات تبرز دقته في استخدام موروث الثقافة العثمانية الذي يمده بمعجم تصنيفي خصب فالفقهاء والمتمكنون يحلى بعضهم بجمل من قبيل "الشيخ الصالح، الولي العارف العلامة" في حين يقدم المتصوفة الزهاد بصفات مثل "الشيخ الصالح"، "الشاب الصالح" أما متوسطوا الثقافة فهو يكثر من تعريف كل فرد منهم علي حدة ب "الشيخ الفاضل..."، ولا تكاد عملية التقسيم هذه للمعنيين تخرج عما يعرفون به في الدائرة العلمية الشنقيطية، وهي دقة تبقى راجعة إلى أن الزبيدي كان ينتمي إلى عصر له طابعه الخاص في فضاء التفاعل الفكري الشنقيطي – المشرقي.

ذلك أن عهد حضور المعنيين إلى المشرق، وإلى مصر بالذات، كان عصرا تميزت الحياة الفكرية فيه بطابع يمكن أن نسميه تجوزا بالحقل الثقافي الوسط القائم على تزامن حضور نزعات فكرية مختلفة، تتبادل المواقع والآراء ويضفي بعضها المشروعية على البعض الآخر في تكامل تربوي ومؤسسي راسخ تحتضنه تشكيلات اجتماعية مكينة. إلا أن مستوى الثقافة السائد في هذا الحقل قد تراجع على مستوى الإجازات العلمية، التي تعكس، في الغالب المستوى المعرفي السائد، وحيث أضحت تبركية لاتشير إلى قيمة معرفية محددة، رغم علو أسانيدها. مما مكن الشناقطة الوافدين على المنطقة خلال القرن الثاني عشر الهجري، وقد استوعبوا إجازات التدريس المشرقية في فترات سابقة، من أن يتميزوا على الدوائر التعليمية التي احتضنتهم، تميزا يكفل لهم قدرا من الاحتفاظ بخصوصية ثقافية، تجعل الزبيدي وأمثاله من كتاب المشرق يدبجون عنهم أخبارا أكثر دقة.

والأمر نفسه ينسحب على الانطباعات التي تركها كتاب مشارقة آخرون، يمتاحون من نفس المرجعية، وتحكم نظرتهم إلى الشناقطة نفس الظرفية والمحددات.

من ذلك حديث الجبرتي)8(عن الشناقطة في سياق ترجمته لأحد متصوفة المشرق، وحيث يقول عن المسمى الحسين بن النور على بن عبد الشكور الحنفي الطائفي الحريري «أنه ورد مصر سنة 1147هـ وكانت له أشعار ورسائل على لسان القوم (الصوفية) والناس فيه مختلفون منهم من يصفه بالبراءة ومنهم من يرميه بالحلول. وقد اجتمع به العلامة الشيخ محمد بن يعقوب بن الفاضل الشمشاوي (شنقيطي ترجم له فتح الشكور ص: 169) وصحبه مدة اتصلت فيها بينهما أسباب المودة» ثم أنكر الشمشاوي الشنقيطي على الحسين بن النور آراءه الطرقية واعتزل لذلك مساكنته. ويعلل الجبروتي هذه الحادثة بأن "المغاربة (سكان الغرب الإسلامي) لايتحملون كلام الصوفية لأنهم ألفوا ظاهر الشريعة ولم يفقهوا نوادر أهل العرفان"؟.

وبغض النظر عن هذا الحكم وملابساته، فإن النص يندرج في سياق المرحلة المشار إليها.

ومن نفس المنطلق يمكن فهم التعريف الذي يقدمه عبد الغني النابلسي (ت١١٤٣هـ/١٧٣١م) عن أحد فقهاء الشناقطة، من أساطين العلم في مدينة تنبكت الشنقيطية، حيث يعرف به تعريفا شاملا. بادئا بتحليته ب "الإمام المحقق والهمام المدقق: أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر. وبغيغ (...) لقب له ولكل واحد من آبائه وأجداده، الونكري نسبة إلى ونكر (...) اسم قبيلة من قبائل السودان في بلاد تنبكت (وهي ...) مدينة عظيمة من بلاد التكرور، وكان من العلماء العاملين مشتغلا بالعلم والعبادة وله كرامات كثيرة ولأهل تلك البلاد غاية الاعتقاد فيه وكانت له كلمة مقبولة مسموعة وشفاعة لاترد وله مصنفات منها هذه المنظومة المذكورة وهي من بحر الرجز نظم لطيف. وله شرح على منظومة بدء الأمالي سماه نيل المعالي شرح عقيدة بدء الأمالي ...")9(وتعود أصالة هذا التعرف على هذا الفقيه، وبعد وفاته بوقت طويل، إلى أن النابلسي كان يلقي شناقطة ينتمون إلى مدينة تنبكت وأحوازها. مما مكنه من أن يقدم هذا التعريف الشامل بحيث أتى غير مختلف عن الترجمة التي عقدها بعض الشناقطة للمعني ضمن مؤلفاتهم في تراجم الأعلام.

ومن الشخصيات الشنقيطية المتمكنة علميا والتي اتصلت بالمشرق اتصالا عميقا يرد اسم الشنقيطي محمد بن حبيب الله المجيدري اليعقوبي (ت١٢٠٤هـ / ١٧٩٠م) والذي كان من أبرز العلماء الشناقطة، وممن جمعوا بين التصوف الطرقي والمنزع السلفي الصارم إضافة إلى معارفه اللغوية والفقهية الواسعة التي بهرت من لقيهم من نظرائه في المشرق. وبالرغم من أن بعض هذه الأصداء قد بقي على مستوى الذاكرة المحلية إلا أن بعضها يتردد صريحا أو تلميحا في نصوص مشرقية، دبجها كتاب مشارقة أو شناقطة زاروا المشرق في نفس الفترة تقريبا.

ففي مصر كانت للمجيدري صلة مشهورة باللغوي المصري محمد مرتضي الزبيدي، ويذكر أنه ساهم في صياغة تاج العروس الذي ألفه هذا اللغوي شارحا به القاموس المحيط، وأنه كان ربما خط على سطر أو سطرين من هذا الشرح فيتقبل الزبيدي ذلك.) 10(وعن مكانته الأسطورية في المشرق، منعنا من تتبعها غياب الترجمة التي عقدها الزبيدي للمجيدري، ضمن معجم المشايخ، ضمن جزئه الثاني الذي لايزال في حكم المفقود.

وعن مكانة المجيدري في الحجاز يشير المحدث صالح الفلاني الشنقيطي (ت 1803م) إلى المجيدري قائلا: "إنه أكبر حافظين اثنين وردا على الحجاز في تلك الفترة) 11(وعلى المجيدري تتلمذ جل أعلام الحجاز، واستمرت مراسلاتهم تصل إليه، بعد عودته إلى بلاده.

غير أن آراء هذا العالم المتمكن لم تكن دوما رائجة في الأوساط المشرقية، بل اختلفت ردود الفعل عليها في مصر عنها، على مستوى الحجاز مثلا ربما لقلة مكثه في تلك الديار. ولما كانت تعرفه بلاد الحجاز من خصوصية ثقافية لاتعارض الزاد العلمي الذي شدد بسببه النكير على المجيدري، مثل آراء المتصوف الباطني ابن عربي، والالتزام

بالمنزع السلفي الصارم. بينما عرفت آراؤه معارضة صارمة في الأوساط المصرية، نظرا لغياب العناصر الفكرية التي تميز الساحة الحجازية. حيث تشير المصادر إلى أن المجيدري قد ردَّ عليه عالم مصري يسمى علي بن محمد الميلي (ت 1248هـ - 1833م) في إحدى رسائله العديدة. ويذكر أيضا رد يسير كتبه محمد الأمير لايزال في حكم المفقود .)12(

وبذا يتضح من طابع هذه الردود، واختلافها زمانا ومكانا، أن خصوصية الوسط الثقافي لكل مِصْرٍ من الأمصار التي مر بها المجيدري، كانت هي الفيصل في تحديد نوعية الردود ومستواها، أو عدم حدوثها إبتداء وهو ما يشرحه أبرز مترجم للمجيدري قائلا: "وقلَّ مِصْرٌ مرَّ به لمجيدري إلا سلّم له أهله وأعجبهم من ولي وعالم، وعندي أن ذلك سببه كثرة الأئمة الذين في مكان واحد وكلهم على مذهب ولا ينكر بعضهم على بعض. فلما رجع إلى بلادنا (...) تعاوره علماءُ أهلُنا وجُهَّالُهم ...".) 13(

وبفعل هذه الأسباب مجتمعة استمرت صلة المشارقة بلمجيدري وثيقة، عبر المراسلات والمشاعرات التي تركت عنه في المشرق صورة وضاءة حيوية. وهو ما يلخصه الفقيه الشنقيطي ابن البخاري قائلا: "وأخبار شيخنا محمد بن حبيب الله "المجيدري" مشهورة من أرضنا إلى الغرب إلى إفريقية إلى مصر إلى مكة إلى المدينة وإن تتبعت أثره لم تجد موضعا مما ذكر إلا له فيه تلميذ أو أخ ناصح أو شيخ ظاهر أو باطن..." وقد صاغ هذا المعنى شعرا تلميذ آخر للمجيذري وهو المامون بن الصوفي اليعقوبي (ت 1235هـ - 1820م) بقوله:

... سل المدينة والبطحاء أي فتى

يُخبرك من فيهما من عالم وولي

أ هل كان يدعى كمال الدين بينما

كان في المدن إلا غاية الأمل

فذي رسائلهم يسعى بها أبدا

من كان حجَّ لبيت الله ذا قفلِ ...) 14(

ويذكر ابن البخاري أيضا، أنه اطلع على رسالتين إلى المجيدري إحداهما كتبها الزبيدي والأخرى دبجها جمل الليل.) 15(

وبعد المجيدري حج علماءُ وفقهاءُ شناقطة آخرون، وتركوا انطباعات عامة عن حسن اللقيا الذي يقابلهم به مضيفوهم من المشارقة ولكنها تبقى صورة يسجلها الشناقطة عن أنفسهم وهي مع أهميتها، على غير شرطنا في هذا العرض.

غير أنه منذ العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر وبداية تاليه (19-20م) كانت الثقافة الشنقيطية قد وصلت إلى أوج ازدهارها، مما جعل من يُعْمِلُونَ الرحلة إلى المشرق من الشناقطة، في هذه الفترة، يمثلون أصالة هذا الازدهار فصار حضورهم وانعكاسه مشرقيا يمثل الصورة الموريتانية في أنصع مظاهرها. لأنها شكلت نهاية مسار طويل من الاحتكاك المشرقي - الشنقيطي.

3ـ مرحلة بواكير النهضة:

عرفت هذه الفترة جملة من الهموم الاجتماعية والفكرية التي طرحتها بالحاح عملية الحضور المتنامي للنخب الشنقيطية إلى المشرق.

ومن هذه المرحلة أضحى الحضور الشنقيطي في المشرق، واضحا جليا. بحيث أن المقيمين من أصحاب الرحلات وخصوصا من كبار الأدباء اللغويين الشناقطة، كانوا يندمجون في المجتمعين المصري والحجازي وغالبا ما تترتب عن هذا المستوى من الاستقرار هموم الإقامة في وطن جديد. وتعتبر مسألة استفادة الشناقطة من الأوقاف المشرقية، مجالا طرح عديد الإشكالات، بحيث طرحت على الحضور الشنقيطي وهوية الشناقطة، أسئلة حاسمة مثلت جانبا هاما من الصورة التي انعكست عنهم في كتابات المشارقة.

وقد كانت أعداد المستقرين في مصر من الشناقطة قليلة، قياسا بمن جاوروا في الحرمين، فانعكست على ظروف إقامة هؤلاء وصورتهم في كتابات المشارقة، الهموم التي طرحتها عملية استفادتهم من الأوقاف الحجازية.

وللوهلة الأولى يجب التأكيد على قدم علاقة الشناقطة بأوقاف الحجاز إذ تعود هذه العلاقة إلى عهد التحبيس الذي أقره الأسكيا محمد ملك السانغاي، في حجته سنة 902-3هـ باسم "أهل التكرور" من سودانيين وشناقطة مما جعل هؤلاء ينالون حصة دائمة من أوقاف مسلمي غرب إفريقيا، نظرا لعلاقتهم بركابهم الحجية.)16(

غير أنه منذ استقلال الشناقطة عن ممالك السودان الغربي وركابها الحجية، وهو ما أسلفنا إليه الإشارة، صارت علاقتهم بالمغرب أكثر قوة، عبر انتظام حجاجهم مع ركبه المنطلق من فاس. كما ارتبطوا بأوقاف مغاربة الشمال الإفريقي (أي بالمغرب حسب مفهومه الواسع) لكنه ارتباط لم يدم طويلا، حيث اعترض عليه بعض المدينيينَ وغيرهم من أهل شمال افريقيا مما طرح صراعا ثقافيا حول أحقية الشناقطة في الاستفادة من الوقف المغربي، الذي أضحى رهينا بالبت في انتمائهم إلى مجال محدد: سودانيا كان أو مغربيا. وشكلت هذه النقاشات جانبا من صورة الهوية الشنقيطية في الذاكرة المشرقية المكتوبة.

وتعود أولى هموم المسألة إلى ما قبل سنة 1200هـ،)17(حيث يذكر الزبيدي فقيها شنقيطيا يسمى عبد الرشيد قدم عليه بشأن نازلة تتعلق بالوقف الشنقيطي في المدينة. وسببها هو أن بعض المجاورين (؟) رفض قيام الشناقطة بأخذ حصة من الأوقاف المغربية، على اعتبار أنهم من السودان وليسوا مغاربة. وقد كتب الزبيدي بشأن الموضوع فتوى جزم فيها بأحقية الشناقطة في حصتهم من الوقف المغربي وكذا كتب غيره من علماء مصر، مؤكدين بذلك انتماء الشناقطة وبلادهم إلى الفضاء المغاربي الحالي. وهو حكم يرجع في نظرنا إلى دقة معرفة الزبيدي وأضرابه من المصريين بشؤون الشناقطة وغيرهم من حجاج الآفاق. وينسحب الحال نفسه على السلطة المغربية التي أكدت الانتماء المغربي الشنقيطي، كما أكده علماء المغرب كالتاودي بن سودة الذي كتب عن الشناقطة "أنهم من خَلْفِ المغربة".

وفي مطلع القرن الرابع عشر (ق 20م) نجد المسألة تتجدد مع العالم الشنقيطي محمد محمود ابن التلاميد التركزي (ت 1323هـ - 1904م) الذي صارع العالمَ المغربيَّ الدَّرَّاجَ، على توليه كرسي المالكية بالمدينة)18(ولكن طرح المسألة على مستوى الباب العالي يرجح أن لها خلفية أعمق من مجرد صراع شخصي بين الرجلين. وبغض النظر عن هذه الملابسات فإن الأساسي منها لموضوعنا، هو أصداؤها وما عكسته من معالم الهوية الشنقيطية في الأوساط المشرقية وكتاباتها.

وقبل ابن التلاميد، كان أحمد بن الأمين الشنقيطي حاضرا في نزاع على الوقف الشنقيطي سنة 1902. ومؤدى هذا الصراع أن بعض الشناقطة كان مقيما بالمدينة وأراد أن يأخذ من وقف "المغاربة العمومي" فعارضه الجزائريون خاصة وقالوا "إن الشناقطة، ليسو مغاربة، فمنعوه من أخذ حصته ...". وقدم ابن الأمين للشنقيطي المعني بالمسألة، حججا يرد بها علي مانعيه حصته من الوقف. ومن هذه الحجج فتاوي العلماء المغاربة والمشارقة التي أشار إليها الزبيدي، هذا إلى جانب رأي للفقيه المغربي العربي بن السائح، أورده في كتابه بغية المستفيد، ومؤداهُ إن شنقيط من المغرب... لكن مفتى المدينة تاج الدين الياس لم يقبل في تلك النصوص من أدلة، وأفتى سنة 1899م بأن الشناقطة من السودان ...)19(

فإلى ما ترجع أسباب هذا الحكم وفي فترة لم تعد للشناقطة أي صلة بالتكرور؟

إن الأمر في نظرنا يرجع إلى أن النخب المشرقية (الحجازية)، قد تعاملت مع الهوية الشنقيطية بنوع من اللاتاريخية، مما جعلها تبقى أسيرة فترة تأسيسية (استثنائية) من علاقة الشناقطة مع الفضاء المشرقي عبر ركاب الحاج السودانية (التكرورية) وفي فترة محددة، ولم تتفهم المتغيرات التي حكمت تلك العلاقة على مستوى قنواتها وملابساتها المحلية في الغرب الإفريقي. ومن هنا جاء حكم مفتي المدينة تاج الدين الياس بكون الشناقطة ينتمون إلى السودان، لأنه كان متأثرا، فيما يبدو، بصدى العلاقة السابقة بين الشناقطة وممالك السودان الغربي التي كانت تعرف عند المشارقة "ببلاد التكرور".

ثم إنه كان من الواضح أن أهل المدينة كانوا يميزون بين فئتين تستفيدان من أوقاف المجاورة المخصصة لمسلمي افريقيا:

- الحجاج القادمون من السودان الغربي وهم السودانيون من "أهل التكرور".
- المجاورون الآتون من شمال إفريقيا ويعرفون ب "المغاربة".

وبالتأكيد فإنه تبعا لهذه القسمة الضيزي، كان وقف المغاربة يقدم لكامل سكان الغرب الإسلامي باستثناء الشناقطة والسودانيين من أهل غرب إفريقيا.

ويرجع الأمر، من وجه آخر، إلى أن رسوخ هذا التقسيم قد جاء في وقت استقلت فيه ركاب الحاج الشنقيطية عن صنوتها السودانية التي انفرط عقدها بانهيار الممالك التي كانت تشرف عليها منذ عهود خلت. مما جعل الشناقطة لايقدمون أنفسهم للاستفادة من الوقف "السوداني" هذا إذا قبل السودانيون ذلك وفي نفس الوقت كان المجاورون من إفريقيا الشمالية قد تعودوا على طابع العلاقة الشنقيطية مع الركب الحجي السوداني وأوقاف مجاوريه، فرفضوا للتو أية مطالبة جديدة بحصص للمغاربة "الجدد".

وبذا أقصى الشناقطة في المشرق من روابطهم بالسودان الغربي، وانتكست (نظريا) محاولتهم لإرساء أسس مادية صلبة قواما لانتماء إلى المغرب يرسخ ما يفهمون أنه هويتهم العربية.

لكن المسألة قطعا لم تكن تشكيكا من النخب المشرقية في انتماء الشناقطة مع أفراد من المجتمع المديني، في ظل تدهور أوضاع رقابة الأوقاف الحجازية خلال العهد العثماني. كما أن دفاع عبد الرشيد الشنقيطي، ومن تلوه، عن "مغربيتهم" إنما يرجع إلى أنهم كانوا يفهمون هذه النسبة بوصفها مرتبطة بمنطقة أوسع مجالا من المغرب الحالي، وهي تحديدا المغرب الإسلامي الذي يشمل في عرف المشارقة، كامل المنطقة الممتدة من التخوم الليبية شرقا إلى مصب نهر السينغال في أقصى الجنوب الشنقيطي. دون أن يمنع هذا الطرح، أو التفسير، من التأكيد على الروابط

الوثيقة بين غرب الصحراء والمغرب المعاصر.

ثم إن القضية لم تكن إثارة لمشكل "الهوية"، لأن الوعي بهذه الأخيرة لم يكن قد ترسخ بقوة في الوعي الجماعي لنخب الغرب الافريقي المسلم. ولا أدل علي ذلك من أن ابن التلاميد، وهو طرف في المسألة الوقفية عينها، قد ظل يمثل في المشرق صورة المثقف الشنقيطي الجذابة واللماعة في أغلب النصوص المشرقية.

ـ ابن التلاميد:

ولقد كان بودنا تقصي أخبار جل الشناقطة من أصحاب العلم والأدب الذين استقروا بمصر والحجاز، لكن ضياع أخبارهم وآثارهم، في المصادر المشرقية، أمر يجعلنا نقتصر من بينهم على الأديب اللغوي المتمكن محمد محمود بن التلاميد التركزي (ت 1323هـ - 1904م) لأنه مثل في المشرق شخصية (المثقف) الشنقيطي لعهده. وذلك بحافظته الواعية لنوادر الأدب وشوارد اللغة وعويص مشكلات الفقه وأصوله مع حدة طبع زائدة تمثل مزاج الصحراويين... إلى كثير من السمات التي أضحت عند المشارقة علما على الشناقطة منذ الفترة الحديثة وإلى اليوم.

ثم إن ابن التلاميد قد وصل إلى المشرق بعد أن ملأ طابه علما، حيث تضلع من العلوم السائدة في الدائرة الثقافية الشنقيطية فقد لازم اللغوي المشهور اجدود بن اكتوشني العلوي الشنقيطي، وعليه تخرج، ورحل إلى المشرق ومر بالفقيه ابن الأعمش بتيندوف وتلقى عليه جملا من الحديث، هذا بالإضافة إلى زاد علمي جمعه ابن التلاميد من مطالعاته الواسعة مما مكّنه من أن "ينفرد في المشرق باللغة والأنساب..." على حد تعبير صاحب الوسيط.

وبهذا الزاد العلمي الذي يمثل أصالة الثقافة الشنقيطية في أوج ازدهارها، برع ابن التلاميد في معارف عصره اللغوية والأدبية وترك بصماته على **حركة الثقافة بالمشرق**، بما أثاره فيها من نقاشات أعادت لها ما قدم عهدها به من روح النقد والمراجعة.

- على مستوى الحجاز: وصل **ابن التلاميد إلى الحجاز** لقضاء فرض الحج سنة 1283هـ ثم قدم المدينة فاتح المحرم سنة 1284هـ **فتلقاه أديبها عبد الجليل** براده في بيته الذي ظل موئلا لأدباء الحجاز وشعرائه. وظلوا يتلقفون إنتاج ابن التلاميد بغير **قليل من الإعجاب. فعندما ألف** ابن التلاميد حاشية علي شرح أحد اليمنيين" للامية العرب" قرظها عبد الجليل براده **بمكتوب دبجه في 7 جمادى الأولى** سنة 1283هـ وفيه يقول إن ابن التلاميد "قد أتى في هذه الحاشية **بالعجب العجاب، من التمييز بين الحق** والباطل...")20(واستمرت الصلة بين الرجلين ردحا من الزمن كان عبد **الجليل يمطر فيه الشنقيطي بالمكاتبات والمراسلات** ويمدحه بالقطع الشعرية التي يبين فيها أياديه البيضاء على العلم وأهله **في الحرمين، إلى كثير من الثناء الذي اعتبره صاحب الوسيط "من المبالغات".**)21(ثم حدثت جفوة بين الرجلين، **بعد أن مال براده إلى معارضي محمد محمود من المدنيين كالبرزجي والنبيلي** ... وقد طمست هذه الصراعات ما كان براده قد أعلن عنه من الثناء **على ابن التلاميد ولذلك لم يكن صيته في الحجاز مدويا** كحاله في باقي المواطن المشرقية التي زارها. مما يؤكد على أن مكانته في نفوس مناوئيه مكينة راسخة ولكنهم يتراجعون عنها لأول خلاف عابر. والدليل على ذلك، أنه في الحجاز نفسه، وفي بيت براده وأضرابه أنفسهم قَدِمَ الرحالة التونسي محمد بن عثمان السنوسي وسمع بأخبار الشنقيطي ثم لقيه في الحرم النبوي، وسامره في دار براده، وسجل في رحلته انطباعه عن الرجل وعلمه قائلا: "حضر (محمد محمود الشنقيطي) عندي في بيتي (بالمدينة) فإذا بالرجل آية الله في حفظ الشعر العربي والتمكن من اللغة العربية، وحضر معنا مسامرة عند الأفندي عبد الجليل (براده) أبرق فيها بلطائف الشعر ونوادر الأدب بحيث إن محاضرته لاتمل...")22(

لكن ابن التلاميد لم يطب له القرار في المدينة بسبب مكائد خصومه، فرحل تحت تهديد الوالي إلى القاهرة وبها استقر إلى أن دفن بها.

- في مصر: نزل ابن التلاميد عند نقيب الأشراف السيد توفيق البكري فأكرم منزله، وكان البكري يشرح إذ ذاك أراجيزالعرب فطبعها، فلما تم طبعها، إدعى ابن التلاميد أن الشرح من تأليفه وأن البكري انتزعه منه قسرا.) 23(

إن هذه الرواية مقدمة في كتاب الوسيط، الذي ألفه ابن الأمين، وهو بلدي ابن التلاميد، إلا أنه كانت بينهما جفوة، ثم إن جملة قرائن تدل على أن ابن التلاميد لم يكن أبدا يسطوعلى أفكار الآخرين، والدليل يقدمه الكاتب العراقي عبد اللطيف الدليشي الخالدي في معرض حديثه عن قصة مشابهة كان البكري طرفا فيها مع الكاتب المنفلوطي.) 24(

والمهم أن ابن التلاميد قد حسم الأمر بانتقاله عن البكري إلى مضيفين آخرين تلقوه بالترحاب لما رأوا من علمه وبلغهم من أخباره، إذ تلقفته الأوساط القاهرية، فترك فيها صدى واسعا عن قوة حافظته وسعة علمه بين معاصريه من كبار الأدباء أو من الذين كانوا منهم آن ذاك شبابا يطلبون العلم في الأزهر.

فقد اتصل ابن التلاميد بالشيخ محمد عبده الذي تلقى الشنقيطي بصدر رحب وخصص له معونة شهرية كان يخصص مثلها "لطائفة من الأدباء ياوون إليه كحافظ إمام الكاظمي ...") 25(ويبدو أن هذه المعونة كانت "رزقا من الأوقاف" سعى محمد عبده ليكون الشنقيطي ممن يتلقونه. ويظهر أن هذا الاحتفاء كان كبيرا، حيث يذكر طه حسين أنه كان يسمع ما يعرب عنه طلاب الأزهر من تعجبهم من عظم "حماية الأستاذ الإمام محمد عبده للشنقيطي وبره به ...".) 26(

وعن شخصية ابن التلاميد وتمكنه المعرفي تحدث كبار الكتاب والأدباء المصريين بغير قليل من الإعجاب والتقدير.

فمحمد رشيد رضا، وهو تلميذ محمد عبده، يصف الشنقيطي ب"العلامة المحدث الذي انتهت إليه رئاسة علوم اللغة والحديث في هذه الديار (المصرية) ولاسيما علم الرواية للحديث الشريف ولأشعار العرب المخضرمين...".) 27(

ويحذوا حذوه أحمد باشا تيمور فيحلي شيخه الشنقيطي ب "الأستاذ العلامة الحجة الثقة إمام اللغويين في مصر...") 28(ويضيف متحدثا عن شخصيته قائلا إنه "كان شديد التمسك بالسنة قوالا للحق ولو على نفسه مع حدة طبع زائدة، ولهذا لم ينتفع به إلا القليلون. وكان لايمل المطالعة ليلا ولا نهارا حتى أضنته كثرة الجلوس." ولا يخرج طه حسين عن نفس التوجه، فهو يذكر أنه كان يسمع حديث الطلاب الكبار في الأزهر عن الشيخ الشنقيطي" وأنهم لم يروا قط ضريبا (له) في حفظ اللغة ورواية الحديث سندا ومتنا من ظهر قلب...".) 29(

لكن أكثر الكتاب المشارقة صلة بالشنقيطي، هو بلا شك أحمد حسن الزيات الذي تتلمذ على الرجل وخبر أحواله عن قرب وسجل عنه انطباعات دقيقة في مقال له شهير عنونه ب "أول ما عرفت الشنقيطي"، كما لازمه إلى أن توفي، فهو يقول عن علم ابن التلاميذ أنه "كان آية من آيات الله في حفظ اللغة والحديث والشعر والأخبار والأمثال والأنساب لايند عنه من كل أولئك نص ولا سند ولا رواية. وكان شموس الطبع حاد البادرة قوي العارضة، يجادل عن نفسه بالجواب الحاضر والدليل المفحم واللسان السليط...".) 30(ويبدو أن حدة الطبع هذه كانت مسؤولة عن كل ما خاضه الرجل من صراعات ونقاشات، ولعلها كانت السبب الأقوى أيضا فيما عرفه من شهرة عكستها مشاركته بقلمه في إذكاء جذوة النقاشات العلمية الحادة التي جرت بينه وبين مثقفي عصره، بحيث انعكست شهرته العلمية في الصحف الأدبية السيارة: "الضياء" لليازجي، و"مصباح الشرق" للمويلحي و"المؤيد" لعلي يوسف. وعن هذه الخصومات الأدبية والفكرية يقول الزيات أنه، وهو يافع "كان حديثه وحديث المتأدبين يدور حول ما تتناقله الأفواه وتتداوله

الصحف من الجدل المضطرم الحاد بين الحافظ الحجة الشيخ محمد محمود الشنقيطي وخصومه من علماء الأزهر وأدباء العصر...") 31(ثم إن الشنقيطي "كان لاينفك يتحدى رجال اللغة بالمسائل الدقيقة والنوادر الغريبة، مستعينا على جهلهم بعلمه، وعلى نسيانهم بحفظه، حتى هابوا جانبه وكرهوا لقاءه، وأصبحت حياته سلسلة من الخصومات الأدبية سجلها بالشعر اللاذع والنثر القارص في كتابه الحماسة...".

وبعد ابن التلاميد لم يصل إلى المشرق من الشناقطة من هم في مثل تمكنه المعرفي وشهرته في تلك الديار لكن الصورة التي تركها الرجل عن الشناقطة كانت من التوهج والألق بحيث كانت خاتمة عهد طويل من التفاعل الفكري بين الشناقطة والمشارقة.

إلا أن هذه الصورة الوضاءة تظل راجعة إلى أن من كان يقدم إلى المشرق من الشناقطة ظل يقدم بزاد من ثقافة عصر التدوين العربية وبأنقى صورها، إلى محيط ثقافي مشرقي لازالت فيه بقايا عهد الانحطاط، مما جعل إسهامهم مفيدا طريفا وترك لهم من الشهرة ما لم ينله أسلافهم من أصحاب الرحلات، ولذا فإنه عند ما ولج المشارقة ثقافة النهضة وآدابها، لم يستطع الشناقطة مواكبة هذا التحول، بفعل اختلاف النسق بين ثقافتهم والثقافة المشرقية، ونظرا للحضور الاستعماري الذي كبح عملية التواصل بين الشناقطة والمشارقة، ومنعها من أن تصل إلى مستوى تصبح فيه جزءا من التقاليد المؤسسية لثقافة المشرق، مما يحافظ على الصورة التي تركها ابن التلاميد وأضرابه ثابتا بنيويا لاتطمسه التحولات المستجدة.

ولعل هذا هو السبب في التشويش الذي عرفته الصورة الموريتانية في الأدبيات السياسية الرسمية على مستوى العالم العربي إبان الستينيات والسبعينيات. ويبقى الأمل معقودا علي إحياء هذه الروابط التاريخية بين الموريتانيين وعمقهم العربي من خلال تكوين صورة صحيحة عنها بالتأصيل الفكري البعيد عن العواطف والأوهام، وعسى أن نجد إلى ذلك سبيلا.

هوامش:

1- راجع مثلا الهمداني (ابن الفقيه) مختصر كتاب البلدان، ليدن، إعادة طبع دار صادر، ص: 61

2. (مخطوط) نسخة شخصية.

3راجع: سيدي بن الزين العلوي كتاب النسب في قبائل الزوايا والعرب (مخطوط. نسخة سنة 1336هـ).

4-ذكره م.سيد علي، الحياة الثقافية في المدينة المنورة في العهد المملوكي، ط. عين للدراسات. القاهرة، 1994، ص: 270.

5-أحمد بابا التنبكتي (ت١٠٣٠هـ)، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، طرابلس، 1981، طرابلس، 1981 ص: 275 (ترجمة رقم 326).

6- أحمد بابا، نفس المصدر، ص: 275.

7-مخطوط مكتبة عارف حكمت، المدينة المنورة، في مواضع مختلفة.

8عجائب الآثار، ط.دار الأنوار المحمدية، القاهرة، د.ت.ج2، ص: 353-355.

9-الرحلة المسماة "الحقيقة والمجاز..." مصورة عن نسخة الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1986، ص: 366-367.

10-ابن البخاري (م.عبد الله) كتاب العمران، (مخطوط) نسخة زاوية المامي، نواكشوط.

11- الكتاني، فهرس الفهارس، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 82-1986.ج2.ص.298.

12-ابن البخاري، نفس المصدر.

13نفس المصدر

14نفس المصدر

15-ابن البخاري، نفس المصدر.

16 راجع: السعدي (عبد الرحمن) تاريخ السودان، باريس، 1981، ص: 72-73 (من النص العربي).

17- معجم المشايخ، م. س، ج 1 ص.78-79.

18-ابن الأمين (أحمد)، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، نواكشوط - القاهرة، 1989، ص.520.

19-ابن الأمين، نفس المصدر، ص: 423-425.

20-محمد محمود بن التلاميد الشنقيطي، الحماسة السنية ...، دار الموسوعات القاهرة، 1319، ص 107-108.

21 المصدر السابق، ص 381.

22 محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، التونسية للتوزيع، تونس 1978، ج3 ص 170 - 171.

23-الوسيط، م.س، ص.393-394.

24 من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة: محمد أمين الشنقيطي، وزارة الإعلام بغداد، 1981، ص.70.

25 عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده، ط.بيروت 1971، ص. 178.

26- الأيام، ط. 32 دار المعارف، القاهرة، 1986، ج2، ص: 154.

27ذكره الخليل النحوي، المنارة والرباط، تونس 1987، ص.27.

28ذكره الخليل النحوي، المنارة والرباط، تونس 1987، ص. 270.

29 الأيام، م.س، ص 154.

30-من وحي الرسالة، ط. القاهرة، 1963، ص 248.

31 نفس المصدر، ص: 250-251.

الرحلة أو المقامة الأطارية

للكاتب المؤرخ: المختار ولد حامد

تقديم وتعليق: محمد المصطفى ولد الندى*

الرحلة مجال قديم عند الشعوب، عرفه العرب وكتبوه ولعل من أدق الرحالين وأكثرهم تنوعا/ رحالة العرب، حتى أن من بينهم من كتب رحلة الى العالم الآخر "رسالة الغفران للمعري" حيث تصور رحلة للجنة والنار والبرزخ.

ولغة الرحلات تختلف من حين لآخر، وقد لاتكون من نسج الرحالة مثل ما وقع لرحلة ابن بطوطة التي ليست من إنشائه وإنما أملاها باللهجة العامية فدونت عنه.

وقدرة الشنقيطيين تتجلي في المقدرة حيث أن بعض الموريتانيين كتب رحلة أو رحلات على شكل مقامات بديع الزمان الهمذاني والحريري فجاءت رحلته رحلة ومقامة، الأمر الذي يعطيها نكهة وألوانا زايدة على الرحلة العادية. والرحلة التي نحن بصدد التقديم لها ذات مميزات منها أنها تردك لتلك الحقبة والاخشيشان في السفر عبر شاحنات يختلط فيها البشر بالبضائع وتجوب الفيافي والقفار الموحشة.

– دقة الوصف فتجد المشاهد ماثلة أمامك كما لو كان الزمان دار بك إلى الوراء. ورأيت بعينك وسمعت بأذنيك.

– طرافة وبساطة الصور، والوصف: سيارات تتهادى وتتمادى وجلسة الشاي ومكان أواني الشاي ومعد الشاي والشموع الخ...

وللفائدة نعرف القارئ على صاحب المقامة، إنه: المختار ولد حامد ولد محنض بابه والده حامد العالم المدرس المفتي ت 1350هـ ووالد حامد: محنض بابه ابن اعبيد الديماني مدرس قاض مؤلف ت 1277 هـ راجع الوسيط. وشهرته تغني عن التعريف به والمختار ولد حامد أحد أولئك الموسوعيين الأفذاذ أديب كاتب مؤرخ عقدي فقيه ... يضيق الوقت عن شريط تعلمه وعلمه، ويضيق كذلك عن ترجمته وشمائله الكريمة. أما ميلاده وفاته فقد أرخ لنفسه بأرجوزة قبل وفاته بشهور حيث عد عمره بمؤشر تصاعدي عجيب = مليارات من الثواني =. 50 مليونا من الدقائق = ثمانمائة الف ساعة = الفا وخمس الالف شهورا = قرنا من الزمن : "السنين":

عمرت ما يدكر المعمر
فيه فكيف هذا العمر
هاهو قد جاوز مليارا ته
ثلاثة ان تحص ثانياته
خمسون مليونا من الدقائق
عصيت فيها خالقي ورازقي
فضاع لي فوق ثمانمائة
الف من الساعات في الخطيئة
ألف وخمس الالف من شهور
ما سلمتْ من عمل محظور
قد كان في قرن من الزمان
طوع الهوى والنفس والشيطان الخ.

وافاه الأجل المحتوم يوم الاثنين فاتح محرم

1414هـ بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع وخلف موته فراغا في ساحة الأدب والتاريخ والظرف والمعرفة.

آثار الكاتب منها:

– تكملة للسلم في علم المنطق قال في بيت منها:

ثم لمن سنوه تسع عشره

معذرة أخرى كتلك المعذره

مقلدا لعبد الرحمن الأخضري الجزائري في قوله:

ولبني احدى وعشرين سنه

معذرة مقبولة مستحسنه

– تكميل لمنظومة بن طيب في المنطق

– منظومة في أحكام القبض في الصلاة

– نظم في عدد كلا وبلى في القرآن

– ارجوزة في موقفه من التصوف

– كتاب جمع فيه القصائد التي استشهد ببعض ابياتها جده محنض بابه في شرح الخلاصة لمحمد بن مالك.

– مؤلف في علوم البلاغة

– معجم للهجة الصنهاجية

– معجم للمؤلفين الموريتانيين

– ثبت بالمخطوطات الموريتانية

– ديوان شعر ضخم لم يدون بعد، دون بعض أغراضه كمذكرة جامعية في جامعة نواكشوط.

– حياة موريتانيا موسوعة تنيف على الأربعين وحدة، طبع منها جزءان 2و3.

– مجموعة مقامات: من بينها المقامة التي نحن بصدد تقديمها:

المقامة الأطارية، محققة:

لما اختار المختار ،التوجه إلى أطار،)1(في صورة أستاذ معلم ،وهو في الحقيقة تلميذ متعلم، وصدر له من الحكومة الأمر بالسير، بكر على السيارات بكور الطير.)2(

قال فركبنا منها على غارب قارب هارب، يقرب الأباعد ويباعد الأقارب فألقاني من يومه في قرية القوارب،)3(فابتدأنا من ثم المسير على سيارة ماسير)4(بعد أن مكثت أرقبها ثلاثة أحسبها، فلما جاءت وحملت أثقالها، وحان انتقالها، وتهيء لخروجها من القوارب بتُّ منها بليلة القارب)5(.

فلما انقضى الليل إلا أقله

وكادت توالي نجمة تتغور)6(

ركبت مع سادات حسنى الشارات)7(على تلك السيارات فخرجن يتجارين ويتبارين)8(

فلما وقفن على العائدي)9(

وقوف العلوي على برين.) 10(

تلفتُّ نحو الحي حتى وجدتني

وجعت من الاصغاء ليا وأخدعا)11(

فألقتنا حين طلعت الشمس في أفطوط،) 12(وحين سامتت الرؤوس في نواكشوط) 13(

فمكثت مع الشاه) 14 (والمختار بن ماه) 15 (مدة إدارة كؤوس الشاه، ثم خرجت معهما الى عند بيت احمد بن بدّ) 16 (فاجتمعنا على مائدة ذات فائدة، من هريسة) 17 (نفيسة، وشهي شاه وادب وملاه ثم قام المنذر) 18 (وتلاه المعذر) 19 (بأن السيارات تأهبت، وأن نارها التهبت ركضنا إليها، وركبنا عليها، ولها أشد الهلْ) 20 (في قطع تافلْ) 21 (فجالت في فيافيها، وأثارت نقعا فيها،) 22 (ولاعبت الريح عشيتئذ القسطل،) 23 (حتى استوى الرمل والكديد المركل،) 24 (فكأنها الرعاة في أذناب صعاب الإبل، ثم إن إحداهن وكانت أعداهن) 25 (عرض لها ما عضلها، فأعرجها) 26 (وأعاجها،) 27 (وارجعها ادراجها،) 28 (فرفست الحذاء) 29 (ونبست العوراء وانعكست إلى الوراء فتنفست منه الصعداء) 30 (بشهيق، ونخير، وحريق، وزفير، فكأننا في المآخير لها مناخير) 31 (أو فيها نافخ كير،) 32 (أخو صوت نكير،) 33 (ثم قام لها «العديد»،) 34 (ولهم مقامع من حديد، فجبروا كسرها، وشدوا أسرها) 35 (فقامت في الحال، كأنما نشطت من عقال،) 36 (وأنشأ السائق يحدو وطفق،) 37 (والسيارات تغدو وتستبق، فكأنها في جآجيئها) 38 (رعود، أو همهمة أسود،) 39 (أو هد يرعودْ،) 40 (أو حنين ذود) 41 (أو طبول تضرب، أو زنوج تطرب، أو ظليم يؤج،) 42 (أو حجيج يضج، أو سحاب تناج،) 43 (أو طبيخ ينضج، فألقتنا تلك العشية، عند أخبية الظبيمية،) 44 (فاشتغلنا بالعشاء، بالشاه ولحم الشاء، ثم صلينا العشاء، وسمرنا) 45 (مدة ونمنا، فلما أسحرنا قمنا وعدنا إلى مركبنا، فلما استقلت للظعن بنا، قلنا بئس والله السيرْ، على بئس العير، المثل الشهير فجالت في خط النشير) 46 (وطوت نثرة أي حصير.

فلها هباب في النشير كأنها

صهباء خف مع الجنوب جهامها) 47 (

فصلينا عند تماكوط) 48 (الصبح، ووصلنا اكجوجت) 49 (والشمس قيد الرمح:

فيارب يوم لك منهن صالح) 50 (

ولاسيما يوما بدار محمد صالح) 51 (

فكان ماكان مما لست أذكره

فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر) 52 (

ثم قامت تتهادى،) 53 (وتتعادى،) 54 (مثنى وفزادى، وماسيرَ حاديها ومستك) 55 (هاديها.

فشج بها الأماعز وهي تهوي

هوي الدلو أسملها الرشاء) 56 (

فما مضت سوائع، إلا وهي طوالع، من عين أهل الطائع،) 57 (على طريق وعره متعرجة يمنة ويسره كأنها مجرى ماء، أو برود صنعاء، او حصير حلفاء، تأنقت) 58 (فيها الدابغة والناسجة والصابغة، وأنها تعني بقول النابغة:

كأن مجرَّ الرامسات ذيولها

عليه حصير نمقته الصوانع) 59 (

وكأنها سوابحْ، في تلك المنادحْ،) 60 (المسواة بالصفائح: سهول تنصب أو غمام ينجاب، أو ألماع تنساب.

أو وطاب) 61 (تمخض، أو مقرب تتمخض) 62 (وزالت بنا في ذلك السبحْ، حتى استوت بنا على السفحْ) 63 (طلوعك على السلم الى السطح.

فتنورت النيار) 64 (وقلنا تلك أضواء أطارْ، فما طالت بنا الحال، ولا كثر المقال حتى وقفن بنا علي كانوال) 65 (فقلت لها بلسان الحال:

إذا بلغتني وحملت رحلي

عرابة فاشرقي بدم الوتين) 66 (

فدخلت من فوري على المدير، وتمثلت بالبيت الشهير:

فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قر عينا بالإياب المسافر) 67 (

فلقيني بوجه رحب، ومنطق عذب، واواني الى بيت وضيء وفراش وطيء) 68 (وقد ظوهرت) 69 (الفراء فيه، ونشرت الوسائد في جانبيه، وأحضر للسلام على التلامذة، ولإكرامي الأساتذه، فلو رأيت السكر إذ كسر، والمفتول الاخضر اذ حضرْ، والكاسات إذ صفت، وبالابريق حفتْ، واقعد الطابلة) 70 (مقعد القابلة

)71(فجاء المغراج غاليا)72(وعلي الكانون عاليا وقام الفتى محفوظ)73(يدير وهو عن يمين المدير، وعن يمينه ابن المنير) 74(وبين يديه سراج منير، وسيدي محمد)75(إلى اليمين، إلى يمينه هذا المسكين)76(وعن يمينه العالم، الأستاذ محمد سالم،)77(وسمعتهم يتجاذبون أطراف الحديث، وطرفا من التاريخ القديم والحديث، وأعجبت من فصاحة المدير إذ فاهْ، وأحضر شنا ففتح فاهْ، وانتخب أطيب ما فيه واصطفاهْ، فأخرج أعذب من ظمي الشفاهْ)78(ألا وهو تمر النخلة الصالحة المعروفة بالفالحهْ)79(، فكانت تلك المفتوحة هي الفاتحة فلما صدرنا عنها)80(وقضينا نهمنا)81(منها وشربنا فنقعنا)82(الغلة)83(:

فإن كنت مصفورا فهذا دواؤه

وإن كنت غرثانا فذا يوم تشبع)84(

أبذر الأرز وعليه لحم سمين، وسمن ثمين، ثم أعيدت الكؤوس ثانية، وكانت قطوفها دانيه)85(بسورة المائده)86(ما رأيت مثل صورة تلك المائدة)87(إلا مائدة يوم العيد، واليوم السعيد، واستقبال العام الجديد، مدير مدرستنا ومرقي ناشئتنا.) 88(

وباعث روح النشاط وهمة التعليم فينا، منقذنا من ظلمة الجهالة وعمه)89(الهمجية)90(المنتهي اليه في العلم العقلي والنقلي، حضرة السيد عبد الرحمن النقلي:)91(

حمدت وايم الله)92(جل جوارك

أمدرسة النقلي مذ كنت جارك

فعندك يلقى الكل من كان زارك

وفيك اشتغال بالعلوم جميعها

فذلك علم النحو يملأ دارك

وفيك بنو الأخيار)93(من كل معشر

تهنيء بالعام الجديد خيارك

ونهدي الى الخير المدير سلامنا

ونرجو له استقبال عام مبارك

هوامش

*-أستاذ باحث بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي.

)1(-أطار عاصمة ولاية آدرار عند المختار بن حامد أنه بني للمرة الأولى غربي البطحاء في آخر ق 9هـ وللمرة الثانية شرقيها ج3/ 177 حياة موريتانيا، المختار بن حامد.

)2(-مضرب مثل في البكور.

)3(- القوارب مدينة على الضفة اليمنى للنهر السينغالي أصبحت عاصمة ولاية الترارزه.

)4(- ماسير: سائق زنجي.

)5(- ليلة القارب: طالب الماء ليلا.

)6(-البيت من قصيدة لعمر بن أبي ربيعة مشهورة في ديوانه مطلعها:

غداة غد أم رائح فمهجر أمن آل نعم أنت غاد فمبكر

ص: 66 ديوان عمر بن أبي ربيعة/ط، دار القلم/ بدون تاريخ.

)7(-حسن الشارة: حسن الهيأة.

)8(-يتبارين: يتسابقن، باراه: اعترضه القاموس.

)9(-العائدي: منهل معروف أصبح قرية على قارعة الطريق بين نواكشوط والقوارب، قد يكون هو المعنى بقول الشاعر الشهير الشويعر الحسني:

أغرى الزمان بها أيدي البليات حي المعاهد حول العائديات

أذيالها في ضحاها والعشيات تلاعبت فوقها الأرواح ساحبة

حياة موريتانيا/ص: 135/ج: 3 المختار بن حامد.

)10(- وقوف العلوي المشار إليه أورده الكاتب في موسوعته بقوله:

يهيج من بلابلي الدفينا مروري بالركاب على برينا

ونحن على سبيل الأولين لأن للأولين بها سبيل

حياة موريتانيا، ج:3 ص: 156 / ، ولم يعرف بالعلوي هذا وهو العلامة القاضي المدرس المؤلف النح: "محمد عبد الرحمن بن السالك ت ح 1987 على ما عند الأستاذ محمد الحافظ بن الطلبه رئيس قسم البحوث بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، مقابلة في: 1993/12/5م.

)11(-تلفت نحو الحي البيت للشاعر الصمة بن عبد الله القشيري، وقد خطب ابنة عمه ريا فغالى أبوها في المهر فساعد الشاعر عشيره وأبى أبوه فلما جاء بالإبل قال أبو ريا انه لابد أن تكون من ابل والد الصمة فحل الصمة عقل الإبل ورجعت إلى إلافها، ورحل هو إلى الشام فقالت خطيبته ما رأيت كاليوم فتى باعته عشيرته بأبعرة؟ ولما وصل الشام ندم واشتاق إلى ريا فقال الأبيات، قال أبو علي القالي في كتاب الأمالي بعد البيت الأول في الشعر زيادة لاينبغي أن تحذف:

مزارك من ريا وشعبا كما معا حننت إلى ريا ونفسك باعدت

وقلّ لنجد عندنا أن يودعا قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى

عن الجهل بعد الحلم اسبلتا معاً بكت عيني اليمنى فلما زجرتها

سمط اللآلي في شرح امالي القالي للوزير ابي عبد البكر الونبي. ص: 462 بتلخيص.

)12(-أفطوط: عرفه المختار بن حامد بقوله:

أفطوط الغربي من مواضعه: نواكشوط-انتشغفين - السمسيات - ابوط- تنيجمار - انبجان - تمزكت الخ. ج/3/ 106 حياة موريتانيا، المختار بن حامد.

)13(-نواكشوط: أشير إليه سابقا وأصبح عاصمة البلاد ابتداء من تاريخ

الاستقلال: 1380هـ/1960م.

)14(–الشاه: أحمد سالم بن محمد سيديا شيخ تربية قادري أحد أفراد عشير الكاتب ت ح: 1986م.

)15(–ماء: تقرئ بكسر الهاء في غير السجع وهو المختار ام بن ماهي اليدالي كان تاجرا كريما بالمدينة، ت حوالي: 1973م.

)16(–أحمد بن بدي يعقوبي موسوي فاضل مشارك في الأدب ت 1969 عن لمرابط بن الإمام المكتبة الوطنية مقابلة في 1993/12/19م.

)17(–الهريسة: سميت لأن البر الذي هي منه يدق ثم يطبخ، تاج العروس، هرس.

)18(– المنذر: المحذر، القاموس.

)19(–المعذر: المحتج لنفسه وفي المثل اعذر من أنذر.

)20(–الهل: قيل لأبي الرقيش هل لك في زبد وتمر؟ فقال أشد الهل، القاموس.

)21(–تافل: بلدة منها أم التونسي كانت بها وقعة بين المحتلين الفرنسيين والموريتانيين سنة 1350هـ قتل فيها النقيب الفرنسي دلابج و 5 فرنسيين ومجموعة من الجنوب، ص: 167/ج:3/ حياة موريتانيا للمختار بن حامد.

)22(– النقع: الغبار، القاموس.

)23(–القسطل والقسطال: الغبار، القاموس.

)24(– المركل كدت بحوافر الدواب.

)25(–أعداهن: من العدو السير أي أسرعها سيرا.

)26(–أعرجها: أصابها بالعرج.

)27(–أعاجها: أصاب بعضها بالعطب فاعوج.

)28(–أرجعها أدراجها: أرجعها في الطريق.

)29(–رفست الحذاء: ركضت حذاءها ويبدو أنها هنا سقطت عجلتها.

)30(– تنفس الصعداء: كالبرحاء تنفس طويلا.

)31(–المآخير: قد يكون جمعا للمؤخرة والمتاخير من نخر اذا امد صوته في خياشيمه.

)32(–الكير: منفاخ الحداد ينفخ به النار لإذابة الحديد.

)33(–أخر صوت نكير: مثل صوت نكير، ومنكر ونكير فتانا القبر، القاموس.

)34(–العديد: يلريد عمال الصيانة، الأفارقة السود المختصون آنذاك بالحرفة الميكانيكية. (ليست هي الكلمة الواردة في الأصل).

)35(– الأسر : الشد والعصب.

)36(–نشط من عقال: يضرب لمن يدخل في ورطة فينهضّ سريعا، مجمع الأمثال للميداني.

)37(–أنشأ السائق يحدو: شطر بيت من الخلاصة لمحمد بن مالك في باب أفعال المقاربة.

)38(–جنّاجيئها: صدروها، القاموس.

)39(– المهمهة: تردد الزئير في الصدر، القاموس.

)40(–العود: فحل من الابل معروف، القاموس.

)41(–حنين الذود: الذود من خمس عشرة الى عشرين من الإبل ولا يكون إلا من الإناث، قاموس.

)42(– أج الظليم إذا جرى وله حفيف، القاموس.

)43(–أجت الريح: تحركت. القاموس.

)44(–الظبيعية: بظاء مشاله تصغير لأنثى الضبع الحيوان المفترس المعروف وهي بلدة تبعد حوالي 125 كلم وما زالت بها أخبية للاستراحة في اتجاه أطار.

)45(–السمر: حديث الليل.

)46(–النشير: هو اينشيري وعرفه للجناس والسجع وهو منطقة شاسعة عرفه المختار بن حامد بقوله أجزاؤه الطبيعية: اينيشيري أكشار من مواضعه: اكجوجت أصبحت عاصمة المنطقة وبها قبر المجيدري بن حبيب الله، أمرصيط –وادي النعام– ام اشويمه، بالرجيمات، بومحاره، الخ، حياة موريتانيا/ج:3/ص: 185 / مرجع سبق ذكره.

)47(–البيت للشاعر الجاهلي لبيد بن ربيعة العامري ت 660هـ يصف ناقته، ص: 77، المعلقات ط/بيروت/ بدون تاريخ.

)48(–تماكوط: بكاف معقودة، أكمة على قارعة الطريق– نواكشوط– اكجوجت يسارا.

)49(–أكجوجت: مدينة أصبحت عاصمة لولاية اينشيري. وبها مقلع معادن الذهب والنحاس.

)50(–شطر البيت الأول من معلقة امرئ القيس الشاعر الجاهلي ت 560هـ ونصه:

ألا رب يوم لك منهن صالح ولاسيما يوم بدارة جلجل.

ص: 30 ديوان الستة الشعراء/ شرح الأعلم.

)51(–محمد صالح: هو محمد صالح بن الشيخ أحمد بن الغال أحد أفراد عشيرة الكاتب وفي تلك الحقبة ترجمانا للحاكم الفرنسي، ترقى إلى رتبة حاكم بعد الاستقلال، توفي منذ حوالي عقد من الزمن.

)52(–ديوان بن المعتز تحقيق ميشيل نعمان ص: 218/ ط: الشركة اللبنانية للكتاب بيروت 1969.

)53(– تتهادى: تتمايل.

)54(–مسنك: مساعد السائق وهو اسم علم.

)55(–ماسير ومسنك الأول اسم علم للسائق والثاني مساعده.

)56(–البيت للشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى ولد 530م ت/ 227م، ص: 329 اشعار الشعراء الستة الجاهليين شرح الأعلم الشنتمري، ط: دار الفكر/ ...../ 1982م.

)57(– عين أهل الطائع: عين ماء على قارعة الطريق غزيرة الماء في منطقة وعرة شحيحة المياه قال عنها المختار بن حامد: عين أهل الطائع "الياطن" بها كان يوم بين جيش الاحتلال الفرنسي والموريتانيين، ج:3/ حياة موريتانيا / مرجع سبق ذكره. وأهل الطايع عرفهم المختار بن حامد بقوله: ممن ينسب للقلقميين سماسيد أطار، وفروعهم: أولاد بوعبد الله، أولاد بوسحاق، فمن أولاد بوعبد الله: أهل عابد، أهل حامدينو، أهل الطايع، أهل عبد الكريم، أهل ابراهيم بن خيري الى آخر البطون في أطار وأرجلت. ج: 3/ حياة موريتانيا.

وعين أهل الطايع قد يكون حفرها السالك بن الطايع حسب رواية فضيلة سيدي محمد بن عمر في مقابلة في 1993/12/28 وإذا كان ذلك كذلك فمعناه أنها حفرت في أوائل القرن 13هـ بدليل نهاية نسخ تاليف محمد بن سلامة القضاعي المخطوط المسجل تحت رقم 689 مخطوطات المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، عنوانه: الف كلمة من الوصايا والحكم.

وبخط السالك بن سيدي احمد بن الطايع بتاريخ: 1245هـ الجد الخامس، للسيد/ معاوية ولد سيد أحمد الطايع الرئيس الحالي للجمهورية الإسلامية الموريتانية. «خط السالك المذكور».

نص نهاية المخطوط انتهى على يد كاتبه السالك بن سيدي احمد بن الطايع بن عابد السمسدي نسبا الأطاري وطنا لأخيه في الله المعزوز بن مالك بن معروف السمسدي نسبا الأرجفي وطنا. ووافق الفراغ منه ضحوة الجمعة أول يوم من شهر الله رجب عام 1245هـ عرفنا الله خيره ووقانا ضيره الخ.

)58(-النابغة الذبياني شاعر جاهلي وصاحب احدى المعلقات (7) ت 640م يراجع البيت في ص: 198 ديوان الستة الشعراء شرح الاعلم الشنتمري.

)59(

)60(-المنادح: المندوحة السعة، القاموس.

)61(- الوطاب: سقاء اللبن، القاموس.

)62(-المقرب: من قرب ولادها، القاموس.

)63(-السفح: اسفل الجبل أو أصله. القاموس.

)64(-تنور النار: تبصرها من بعيد، القاموس.

)65(-كانوال: واد نخيل ترى منه مدينة أطار بالعين المجردة ورد ذكره في شعر محمد بن الطلبه اليعقوبي:

هاج قرح الغرام بعد اندمال ظعن ظعن الخليط يوم إنال
يوم ولـت كانها حين جدت باسقات النخيل من «كانوال»

يوسف مقلد، شعراء موريتانيا قديما وحديثا، ص: 452.

)67(-البيت: فالقت عصاها واستقر بها النوى: لمعقر بن حمار البارقي وقيل عبد ربه السلمي/ تاج العروس من جواهر القاموس/ من جملة ابيات أولها:

وردت إليه ما نفته تماضر صحا القلب عن سلمى وأقصر شأوه

إلى قوله:

وبين قرى نجران والدرب كافر وخبرها الركبان أن ليس بينها

فالقت عصاها واستقر بها النوى الخ. تاج العروس من جواهر القاموس.

)68(-الوطى: بين الوطاءة، القاموس.

)69(-ظومرت: طريق بينها، القاموس.

)70(- الطابلة: الصحن المعدني توضع عليه معدات الشاي المعروف.

)71(-مقعد القابلة: مضرب المثل جلس مني مجلس القابلة، يضرب للقرب.

)72(-غاليا: يغور غليانا.

)73(-محفوظ: هو محفوظ بن بيوط مدرسة اللغة الفرنسية آنذاك وهو حي يرزق حمدا لله حسب ما قاله الأستاذ محمد بن خليل.

)74(- ابن المنير: أحمد بن المنير العلوي مدرس اللغة الفرنسية حي يرزق المصدر الشفهي السابق.

)75(-سيدي محمد هو سيدي محمد بن الدين مدرس اللغة الفرنسية تقلد وظائف عدة توفي منذ حقبة رحمه الله، المصدر الشفهي السابق.

)76(-محمد سالم بن عبد الحي الوقيب استاذ للحديث الشريف توفي حسب رواية الأستاذ محمد بن اخليل، المصدر الشفهي السابق.

لائحة المدرسين حسب رواية السيد محمد عبد الله بن الخرشي وهو جد ثلة أنهم كالآتي:

- النقلي الجزائري، محمد سالم بن عبد الحي الوقيبي، سيدي محمد بن حبت القلاوي، الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل، تب بن محمد عبد الله القناني، ودادي بن سيدي هيب الفاضلي، ادي بن الزين العلوي، احمد بن المنير العلوي، المختار بن حامد. مقابلة في: 1994/2/7.

)77(- محمد سالم ولد عبد الحي.

)78(-ظمي الشفاه: الذابلة في سمرة.

)79(- الفالحة: نخلة معروفة بحلاوة التمور أكثر ما توجد في أودية شنقيط - وأهل أدرار يدخرونها لإكرام الضيف.

)80(-صدرنا عنها: تناولنا منها، القاموس.

)81(- النهم: شهوة الطعام، القاموس.

)82(-النقع: من المياه: العذب، القاموس.

)83(- الغلة: محركة وتأمير العطش أو شدته: القاموس.

)84(- الغرثان: الجائع، المصفور: المصاب بداء الصفار، لسان العرب.

وقائل البيت: مزرد بن ضرار الغطفاني أخو الشماخ بن ضرار من جملة أبيات أولها:

أغرت على العكم الذي كان يمنع ولما غـدت أمي تحيـي بناتـها
خلطت بصاع الاقط صاعين عجوة الى مـد سمـن وسطه يتربع

الى قوله:

وإن كنت غرثانا فذا يوم تشبع فان كنت مصفورا فهذا دواؤه

تاج العروس من جواهر القاموس مادة راع. والعكم في الأبيات: مظروف تحمل فيه المرأة حليها،

)85(-قطوفها: قطف قطوفا، جناه، القاموس.

)86(-المائدة: السورة رقم 5 من القرآن الكريم.

)87(-المائدة: الطعام، والخوان عليه الطعام، القاموس.

)88(-الناشئة: الغلام والجارية.

)89(- العمه: التردد في الظلام، القاموس.

)90(-الهمج: محركة ذباب صغير يسقط على وجوه الغنم والحمير المهزولة والنعاج الهرمة، القاموس.

)91(-عبد الرحمن النقلي: أبو العالم الرويس - التفاحي- المصطفى بن موسى بمثلة تعليمية فرنسية والموفدون جزائريون أوفدوا لحل عقدة مستعصية حيث كان الموريتاني يهرب عن المدرسة الفرنسية أشد الهرب وقيم بمحاولات فاشلة فاقترح المسمى لجري حاكم موريتانيا في تقرير سري رقم: 15768 بتاريخ: 1944/12/26 بتغيير الاستراتيجيات المتبعة في التعليم الفرنسي في موريتانيا. فموريتانيا لاتشبه الشمال ولا غرب افريقيا، وعلل ذلك بأن الموريتاني البيضاني لايثق في تعليم الافريقي وينفر من الاوربي الفرنسي ونصح بارسال مجموعة من شمال افريقيا وان يمحى اسم المدرسة "لكول" ليصبح الاسم الجديد المدرسة وان تعطى الأولوية فيها للتعليم العربي. راجع دور المحاضر في موريتانيا ص: 143 محمد المصطفى بن الندى. ومنهاج المدرسة الأطارية بناء على الاقتراح أعطيت الأولوية للتربية الإسلامية من نحو وصرف وأدب عربي وفقه، بالإضافة الى الفرنسية...

ففي الفقه كتاب الأخضري لعبد الرحمن الجزائري، والمرشد المعين لابن عاشر، والرسالة لمحمد بن أبي زيد القيرواني، ومنهاج اللغة: المعلقات 7 ثم البردة للبوصيري والمقصور والممدود لمحمد بن مالك وعطلة المدرسة: عطلة الخطرة الخميس وجناحاه حسب رواية الأستاذ محمد بن خليل حاكم إداري متقاعد درس بمدرسة بتلميت ثم أطار وتخرج من الأخيرة.

)92(-ايم الله: أحلف بالله.

)93(-بنوا الأخيار: إشارة إلى أسلوب كان يتبعه الاستعمار الفرنسي وهو انه كانت هناك مدارس خاصة بأبناء الشيوخ "الوجهاء".

قصة قصيرة

غامر ... تنجح

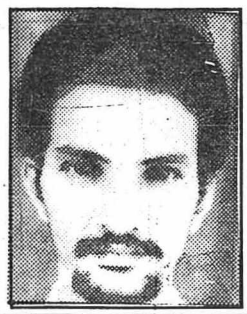

محمد فال ولد عبد الرحمن
أستاذ
المعهد الموريتاني للبحث العلمي

جمهور غفير أمام الباب الحديدي المؤدى من معهد تكوين المعلمين الى مدرسة التطبيق، والتعليقات الساخرة تنطلق: هذا متضايق وذلك متخوف وآخر سئم الانتظار .. والنداء بالأسماء أصبح وشيكا.

محمد سالم يذهب ويجيء في اضطراب ظاهر.. لايكاد يستقر على حالة يختفي ثم يظهر .. تارة يجري وأخرى يهرول .. نظرات زائغة والتقطيب اليائس يحلل قسمات وجهه الأبيض في صفرة شاحبة.

وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر، ابيض البشرة طويل القامة مفتول العضلات، عريض المنكبين يملك جسما رياضيا. ومن الصعب ان تعتقد للوهلة الأولى أنه ليس ملاكما .. وهو الى ذلك عاطل منذ سنتين زار خلالها جميع المراكز التي يمكن ان يوجد فيها عمل لكنه كان دائما يرجع بخيبة أمل قاتلة ترافقه أغلب السنوات التي طوى من عمره وراء ظهره.

لم يكن يحسن اي عمل بعينه، فقد نشأ في الريف .. تربى هناك وترعرع في صحراء قاحلة موحشة لايسكنها إلا البدو والرحل الذين يجرون وراء الكلأ أينما كان، ينتقلون منا وهناك نشأ في أسرة رقيقة الحال، أيام العز والجاه الذي يعتمد على قطيع الغنم وتعداد البقر والإبل.

وانتقل من هذه المكانة الرفيعة الى مدينة نواكشوط.. حيث بؤرة الاشعاع الثقافي وحيث الأعمال متوفرة حيث يوزع الله الخير بلا حدود ولا قيود على عباده المؤمنين .. ولم يكن وهو في العشرين من العمر من نكران الذات بحيث يدخل التعليم الابتدائي، بفرض أن ذلك سوف يشرف مدير المدرسة المعنية، أما المدير -لن يقابله بأي حال من الأحوال، فمحمد سالم لن يضع نفسه في مكان يمتهن فيه ويذلل من شأنه.. فما اعتاد، وهو بين أهله، ان ترفض طلباته أضف الى ذلك أنه لايطيق مجرد التفكير في وجوده كتلميذ بين مجموعة من الأولاد يمكن ان يكونوا أبناءه. حرمته الحياة في ظل هذه المدينة من كل شيء .. فالذين يسكن عندهم ويتولون جميع شؤونه أصبحوا لايطيقون رؤيته، ولا يريدون أن يخفوا ذلك الشعور عنه. وهو نفسه يمقت ذلك المنزل يتمنى من كل قلبه ان تبتلعه الأرض بما فيه ومن فيه.

بشرة تكدست عليها الأوساخ بفعول اللامبالات بالنظافة وثياب ممزقة وتصرفات طائشة واضطراب نفسي وقلق مؤرق .. تلك في مجموعها هي العلامات المميزة لمحمد سالم التي كانت أكثر صدقا لو كتبت بدل كلمة "الكيرفي" هويته.

- عبد الله ! .. أنت لا اتبعد ... الاسم ما اتل ابعيد.

- مان حارك ألاه نكم من عند هذا الراجل أجاي ...

كلمات تبادلها محمد سالم وعبد الله في عجلة واقتضاب .. تحمل الكثير ولا توحي مع ذلك بأي شيء يمكن أن يفهم منه الدافع الخفي وراء ذلك الاضطراب الحركة المستمرة التي يقوم بها محمد سالم ... تبادلاها في عجلة ثم اختفى محمد سالم في أحد أطراف تلك الجموع كل في شوق وتلهف على سماع اسمه.

كانت الأبواب موصدة أمامه كأن القدر يعاندها مع... في اهانته واذلاله .. فزملاؤه تحولوا موظفين صفا للدولة أو الشركات العامة أو الخاصة لأنهم بذلوا مجهودا في طلب العلم .. أما هو فما تهمه تلك الحلقات التي تنعقد كل يوم بقاعات المطالعات في المراكز الثقافية ويطلق العنان فيها للحناجر بحرية تامة .. كان يمر بها وهو رفيع النفس شامخ الأنف يوزع نظرات الاحتقار والازدراء واللامبالات على هذه الطاولة التي تحتلها مجموعة من المراهقين وعلى تلك التي يحتلها الشبوخ والأطفال.

وكم كان يتمنى أن يصب جام غضبه على هذه الفناوي وتلك التي تنزوي في الركن القصي من القاعة وحدها.. كم تمنى أن يعطيها درسا لا تنساه في الأخلاق .. لكن قلة زياراته لهذه الأماكن خففت عليه خيبة الأمل. هذه المرة أيضا.

والاعتقاد السائد في نظره اليوم بعد أن تغيرت كل المعلومات التي تخرج بها من مدرسة "الريف" .. هو (أن الصعلوك. المغامر. المنافق وحده القادر على النجاح في الحياة ال/// وجوده على الآخرين.

فلا مكان في هذه الدنيا للمتسامحين والأخلاقيين .. تلك أشياء انقرضت وعفا الله عما سلف.

وتطبيقا لفلسفته هذه وجد الفرصة سانحة أمامه .. فهاهو امتحان وكلاء الجمارك على الأبواب ... ولن تكون العقبة الكبرى أمامه هي كونه (باسيف يعرف باش اصل .. ومع ذلك فالباب في هذه المرة أوسع من أن لايلجه في غمرة الواجين ...

ليتقدم فقط بشجاعة وصمود ويتصرف حسب قوله المأثور الذي استخلص من الحياة.

وهو لاينوي الاشتراك في الامتحان وان كان يريد أن ينجح بأي ثمن. لا . ليس غبيا الى هذا الحد فلو اشترك لما نجح .. لكنه سوف ينجح من طريق آخر.. من "النافذة"..

هناك صديقه عبد الله .. نعم.. ذلك الشاب الذي بلغ السنة الثانية من المرحلة الثانوية. وسوف يحصل له على الرقم الأول.. ذلك الرقم الذي كان يحلم به دائما ويرى أنه أحق به من غيره .. وأن لم يبذل أبسط مجهود للحصول عليه.

لم تكن هناك عقبة تذكر أمام تطبيق هذه الخطة. فالمراقبون على الامتحانات يمتازون برصيد هائل من اللامبالات .. وقد دلت تجاربه -كما يقول- على أن هناك كثيرين أخذوا أماكنهم وهم اليوم أولو الأمر والنهي ومع ذلك لم يشتركوا في امتحان قط..

أما مشكلة تقديم الملف الكامل وتبديل صورته التي تحملها بطاقة التعريف بصورة زميله عبد الله فهذا أمر مفروغ منه لأن خطتها مدروسة ومعدة بصورة محكمة .. لم يبق اذن الا انتظار الثمرة الناضجة التي سوف يجنيها من عمله الشجاع .. وتخيل نفسه يخطو خطوات واسعة وهو يرتدي البدلة الجمركية ويختال في زهو بنفسه وكبرياء بجسمه القوي.. وتخيل الثورة التي سوف يجمعها في الأيام الأولى من بداية العمل .. حساب في البنك .. سيارة .. منزل في العاصمة .. الخ. ولم ينتزعه من تلك الغيبة الرائدة الى عالم المستقبل الوضاء الذي أصبح على عتبة بابه الا السكون الذي خيم على الجمهور الغفير فجأة.

توقفت كل تلك التعليقات الساخرة وذلك الضجيج الذي كان منذ قليل يشكل ضوضاء مختلطة لم

يعد يسمع من كل ذلك الا همسات يتبادلها الشرطي ومن يمثلون لجنة الإشراف على الإمتحان.

وبدأ النداء //// وبدأت الأفواج تدخل دون عناء كبير. فممثل الوظيفة العامة يبدو متسامحا لايثقل على الداخل والتحقيق.. يلقي نظرة جانبية علي وجه الهوية أو قفاها .. نظرة عجلى لايعرف من خلالها شكل البطاقة أو لونها .. ثم يشير بالدخول هامسا في ذات الوقت برقم طاولة الجلوس والحجرة . و .. الخ.

ومن بين الأسماء المتأخرة كان اسم محمد سالم .. وكان عبد الله متسمرا أمام الباب:

- محمد سالم .. محمد سالم .. ادخل .. اعجل.

- أيوه .. ذَهْوانْ .. حاضر ...

ودخل عبد الله راضعا بطاقة تعريف محمد سالم التي تحمل صورته هو وكأنها طلسم سحري سيرد عيون المراقبين عن الحقيقة المخيفة التي لو اكتشفت لكان ما لاتحمد عقباه.. لكن هذا الفرض السيىء لايخيف محمد سالم أو عبد الله ولا يجعلهما يتراجعان .. أبدا .. فالفروض تكذب دائما .. وهما لايؤمنان (بالفالْ لمحال).

رقمك .. تسع أو سبعين .. في الحجر الرابع .. أسمعت؟..

ودخل عبد الله دون تهيب أو حذر أو خوف .. واحتل مقعده أمام الرقم (75) ... وبعد قليل فتح المراقب المظروف المغلق بالشمع الأحمر. وبدأ يوزع أوراق المواد تباعا.. ولم تكن المواد شيئا يذكر بالنسبة لطالب في السنة الثانية من الثانوية. يتوق بهمة عالية وطموح معزز بالغرور الى الباكالوريا .. فلعب بالمواد في سرعة البرق الخاطف .. ولم يبق أمامه واحد في الحساب البسيط قد عليه مراجعة دراسة النص والانشاء والرسم التقريبي للمواصلات البرية بين مختلف مدن وقرى الجمهورية.

وبدأ المراقب عمله الروتيني الذي لايخلو منه امتحان مهما كان .. بدأ يمر بالممتحنين.. واحدا بعد الأخر. يحمل نسخة من لائحة الأسماء يلقى نظرة تفوق في عدم دقتها وسرعتها نظرة صاحب الوظيفة العامة. ثم يقدم اللائحة الى المترشح ليوقع مقابل اسمه .. ومر على الجميع في سرعة مذهلة.

وجاء دور عبد الله. أو محمد سالم على الأصح. من هذه العملية .. وأحس باضطراب خفيف داراه باستبعاد ذلك الشبح المخيف. اكتشاف المغامرة.

- ألاه .. هويتك - اتفضل ...

وازداد الخوف والاضطراب أمام نظرات المراقب التي بدت وكأنها سمرت بشكل غير مفهوم على بطاقة التعريف .. مالذي جعله يحدق فيها .. يبحلق كمن فقد عقله؟ .. لن تفطن الى شيء مهما كنت عبقريا .. فالخطة مظبوطه ..

- انت اسمك؟

- امشّال عندك هويه؟ .. أثر شنهُ؟ .. محمد سالم .. أذهو .

- الموجب الصنف ما اعليه الطابع؟

- ما نعرف لْ شي .. ذاك ألا سول عن //////

وازدادت ضربات القلب سرعة .. يالطيف يارب .. اللهم سلم .. وأصبح على وشك الانهيار.

- وهاي إلاه امعاي انسول ابليس كاملين...

وقاده الى الشرطي الواقف بالباب .. ولسوء الحظ كان محمد سالم ينتظر خروج زميله .. فامتدت اليه أصبع الاتهام عندما حاول الهرب وكاد أن يفقد صوابه أمام القبض على زميله.

***

مرفأ الصمت

زقزقت من خلف شباكي عصافير الأصيل
كعزيف الجنّ في الليل الطويل
وأنا أرسم في كف السحاب
طائرا أخضر خفاق الجناح
يعزف اللحن الجميل
ويعرى الأفق من كل الستائر
أمتطيه
نحو معراجي البعيد

★★★

أفقي يمتد ما بين الضفاف الطارقية
وعيون الصخر من صحرا سبأ
وجعي جدول دمع نائم في رحم الصخر مسجى
في رداء من لعاب العنكبوت
قابع تحت نخيل مهمل بالعدوة القصوى من
الوادي الحزين
كضريح من قبور العابرين

★★★

طارت الخيمة خلف الزوبعة
نضب الينبوع من عين السحاب
وبقينا ننزح البئر الضنينة
تترامى تحت أقدام الحصى
قطرات من عيون الضارعين
حمما نامت بشأن الضريح
مرقصا للجن في ليل الشتاء

★★★

يذبل الزهر وتمتص اللحون
ومضات النور من شطآن هاتيك العيون
ينفث الرمل دخانا
ثائرا فوق القمم
وأرى النخلة في
أنشبت في الأفق الرحب الأظافر

★★★

وعلى الناقة (ديلول) مع الجن يغني
وسط الجوقة يرمي
للأكف الضارعة
قطع اللحن الجميل
يتغنى بالعيون النجل والصحراء والإبل وأيام العرب
.. وأبي يعرف نجدا وتهامة
والخيول البيض تطوى الآل في كل الوهاد

★★★

انتشينا ومددنا الكف زدنا
آه ما أحلى النغم !
آه ما أحلى حكايات الزمان الغابر!

وسألناه لماذا هجر الغيث الديار

وأتانا مرة يحمل فأسا وعصابات تنادي بالثبور

كخفافيش الظلام

★★★

دار (ديلول) بطرف في الأفق

وأجاب السائلين:

إن أفقي مسحته يد جني هجين

أنهلت منه الأصابع

طلع الجن علينا من رماد الأضرحة

وأتانا بالهدايا والورود

ومن الجن عصابات كريمة

تطعم المسكين في الأرض الضريره

★★★

قطع الناس الصلاة

بل رموا أدعية السقيا بعبدا

ركضوا خلف كبير الجن رب التاج والذيل الطويل

ملك الحارة رب الصولجان

وسألت الرمل عن أطلال قومي

قال أيضا سافرت

وسألت الهدهد الراحل عني

فر مني هدهدي إذ قال إني لم أعد أستطيع ذبحه

★★★

جئت بالألحان والناي العتيق فوق اطباقي الجميله

قال قومي

قد عرفنا كل انواع اللحون

وشربناها إلى حد الثماله

وسفيناها بنينا

لم لا ينبت هذا اللحن زرعا؟

لم لا ينزل غير اللحن في بهو الضريح؟

★★★

هبط الطائر من كف السحاب

معلنا لي أن إكسير الجروح

في يد الجني مبتور الذنب

ودعاني للنزول

بين أكوام الرماد

نزل الطائر بي في حارة الجن سنه

ودعاني سيدي للمائدة

سيدي يخبرني أن سوف يعطي

الأمر للغيث بأن ينزل في أرضي البعيدة

سوف يعطي الأمر للتفاح أن ينبت في صحراء

قومي

عندما أعمل في القصر وصيفه

★★★

وأنا مازلت أتلو سورة الجن

وأحكي البسملة؟

وأردد

سرق الجني إكسيري

فهل يسرق مني البسملة

وأنا واقفة في مرفأ الصمت أمام الغسق الخارج من

كم الأصيل

1992

حديقة [illegible]

أنشأ جحا يوما مسرحا، وجعل رسم الدخول عشرة دراهم، فلم يدخل أحد، فخفضها الى خمس دراهم فلم يدخل أحد أيضا، فانزل الأجرة الى درهمين، إلا أن أحدا لم يقبل بالدخول، فما كان منه إلا أن صاح في الناس: الدخول مجانا، فهرول الجميع داخلين، وما كادوا يفعلون حتى أغلق جحا الأبواب، وقال: إنكم لم تدعوني أكمل كلامي فالدخول مجانا لكن الخروج بعشرة دراهم.

تكلم ابن السماك يوما، وجاريته تسمعه، فأحسن وأجاد. فلما فرغ وعاد إليها سألها: كيف وجدت كلامي؟ قالت: حسن، لولا أنك تكرره كثيرا. قال: أكرره ليفهمه من لم يفهمه. قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه يكون من فهمه قد مله وسئم منه.

حضر رجل من الأعراب في أيام الطاعون قبرا لقوم، فأعطوه أجرته درهما. فقال: بأبي أنتم، احفظوه لي عندكم حتى يموت منكم آخرون فيجتمع لي ثمن ثوب.

روى ياقوت الحموي أن رجلا جاء إلى واعظ ببغداد فأعطاه فلسا، وقال ادع الله أن يرد على ابني. قال الواعظ: **وأين ابنك؟، قال**: بالصين» قال الواعظ: **وتريد أن يرده الله بفلس؟! هذا لايكون! إنما لو كان بجنابة أو سيراف (موضعان قرب بغداد) كان نعم».**

دخل أحد الأعراب لسوق التجار يتكلمون فهاله ما سمع من اللحن، فقال: سبحان الله يلحنون ويربحون، ولا نلحن ولا نربح.

قالوا:

- قد نرغب في سرد القصة مرتين، ولكننا لانرغب في سماعها مرتين.

الكاتب الأمريكي وليام هازلت

- إذا كان الشر عظيما، فالرحمة أعظم منه.

جبران خليل جبران

- ليس هناك شيء يمكن أن يسبب إيذاء للرجل العظيم في حياته أو بعد رحيله.

سقراط

الحضور الأوربي على الشواطئ الشنقيطية

ـ رؤية في الأسباب العميقة ـ

أزيد بيه بن محمد محمود
جامعة نواكشوط

يأتي الحضور الأوربي الى الشواطئ الشنقيطية، والافريقية بشكل عام، ثم تغلغله في اليابس ضمن سياق عام أوربي وسياق عربي اسلامي خاص.

لذلك فالوقوف عند السياقين من أوكد أسباب فهمنا لهذا الموضوع.

ففي أوربا شهدت أوربا انتفاضة فكرية، لم تعرف مثيلا لها من قبل، عرفت اصطلاحا عند جمهرة المؤرخين بالنهضة الأوربية.

معنى النهضة:

لقد بدأ الأوربي ينفض عنه غبار الجهل ويتخلص من عقلية الفترة الوسيطة(1)، ويدير الظهر لمعظم مظاهر تراثها، منذ نهاية القرن 9هـ، 15 م، ولقد عرفت هذه الانتفاضة الثورية التحررية في الفكر، وفي جميع مناحي النشاطات الإنسانية باليقظة الأوربية.

وبكلمة واحدة فهي صحوة من السباة العميق الذي غط فيه الأوربيون خلال الحقب الوسيطة (476-1453)م.

ان اليقظة الأوربية اذا هي خروج أوربا على عقلية الفترة الوسيطة، التي كانت الكنيسة فيها، ممثلة برجال دينها والبابا، تسيطر بتعاليمها على الأوربيين، فما يأمرون به يطاع طاعة عمياء(2)، فهي تحرم عليهم الاطلاع على الثقافتين اليونانية والروحانية والعربية الإسلامية، فقُتلت روح البحث والابتكار وانحسر التشوف للتجديد.

ولقد نبذ الأوربيون في نهضتهم التي أشرنا إلى التعريف بها، نبذوا تدريجيا هذه التعاليم الكنسية، وآبوا إلى كتب الرومان واليونان، وإلى كتب العرب المسلمين سواء كانت اصلية او مترجمة عن اليونانية يتدارسونها «فبعثوا دراسة فلسفة ابن رشد»(3)، وكان انسان اليقظة الأوربية متعطشا للإبداع وللمجد الشخصي، ولابد قبل التخلص من الحديث عن التعريف بها من القول انها جاءت تدريجية، فلقد امتدت فترة مجيئها ثلاثة قرون (من القرن 13 الى القرن 15).

ولابد لمن يعمل النظر في اليقظة الأوربية ان يتساءل عن العوامل (الأسباب) التي تقبع وراءها.

عوامل النهضة:

ويمكن أن نرجع النهضة الأوربية الى العوامل التالية:

أ- اثر الحضارة العربية الإسلامية: فقد قال المؤرخ غوستاف لوبون إنه لولا الحضارة العربية الاسلامية لتأخرت النهضة في أوربا عدة

قرون»(4) فلقد كان لاتصال اوربا، وخاصة شبه الجزيرة الايبريه (اسبانيا والبرتغال) بالحضارة العربية الإسلامية كبير الأثر في يقظتها، اذ من المعروف انه في الوقت الذى كانت فيه الغزوات البربرية الجرمانية تسدل ستارا كثيفا دون حضارة روما كان الاسلام يظهر في شبه الجزيرة العربية، ويمتد بمثله وقيمه النبيلة الى الشام والعراق وفارس وبلاد ما وراء النهر والسند في آسيا، والى مصر والسودان وبلاد المغرب الكبير في افريقيا، والى الاندلس وصقليه وجنوب ايطاليا وجنوب فرنسا وكريت فى أوربا.

وقد صهر الفكر الاسلامي في بوتقته افضل العناصر الموجودة فى الحضارات المعروفة (اليونانية، الفارسية، الهندية) ونمت بذلك الحضارة العربية الإسلامية، وكانت ألمع حضارة عرفها العالم خلال العصر الوسيط، وشعت هذه الحضارة فى أوربا، وكانت الاندلس أعظم قنطرة لانتقال هذه الحضارة اليها بحكم أن العرب المسلمين فتحوها في القرن 1هـ الثامن الميلادي، وبقي فيها حكمهم الى سقوط عاصمة بني الأحمر غرناطة 1492م.

وعن طريق ترجمة واسعة النطاق انتقلت اليهم كتب ارسطو (384 - 322) ق.م وفلاطون (428/348/347) ق.م وقليدس (القرن 3 ق.م) وابن سينا (370-428) م وابن رشد (ولد سنة 530) هـ وغيرهم.(5)

ب- حالة الاستقرار النسبي في أوربا، وبداية ظهور الدول القومية، والملكيات المركزية الاستبدادية المستندة الى البرجوازيات التجارية.(6)

ج- تقدم الحياة الاقتصادية، ونمو التجارة وتزايد الثروة وظهور تجارة الشرق، عن طريق الاتصال به (7) بواسطة الحركات الاستكشافية. وكانت الدول القومية الناشئة تسعى الى زيادة حجم مبادلاتها وتوسيع اسواقها فالنمو التجاري ادى الى قوة الطبقة البورجوازية، وهذا بدوره افضى الى التهاوي التدريجي للطبقة الاقطاعية التي ترتكز على الارض والزراعة.

د- استخدام الحروف المتحركة في الطباعة ونمو صناعتها.

2- دافع ديني:

لقد شهدت هذه الفترة وما قبلها منذ القرن 5 هـ تقريبا صراعا عنيفا بين الاسلام والنصرانية وخاصة في شبه الجزيرة الايبيرية، انتهى باخراج العرب المسلمين من هذه المنطقة عام 1492م ... ولكن هذه النهاية لم يتوقف عندها الصراع بل اتجهت مثلا شبه الجزيرة الايبيرية بانظارها الي الشاطئ الافريقي، فاحتلت سبته سنة 1415 (احتلال برتغالي) (8)، ولقد حملت البرتغال لواء الحركة الصليبية، وتزعمت حركة تعقب القوى الإسلامية، والاتصال بملك الحبشة النصراني للاشتراك معها في هذا التطويق، ومن أجل القضاء على مصدر قوتها المتمثل في التحكم في تجارة الشرق، وذلك عن طريق التحكم في شرايين الاتصال به، وفي هذا الاطار يأتي الجهد الذي قام به هنري المعروف ب (الملاح) احد أبناء الملك يوحنا وبارتلمي دياز الذي عبر رأس الرجاء الصالح، وفاسكو دوغاما الذي اتصل بالامارات العربية من شرقي افريقيا ووصل الى الهند كانت كلها بغرض (ضرب العرب في مقتل) (9).

واسطع دليل على التوجه في الافتراضات، الدعم الكبير والمباركة التي قدمتها البابوية لهذه الحركة الكشفية الاستعمارية وكانت ساعية لفض النزاعات بين الدولتين الاستعماريتين اسبانيا والبرتغال.

لقد فطنت القوى الاسلامية لهذا الغرض، والنية المبيتة والتربص بهم، فنهضت دولة المماليك للبرتغاليين ولكنهم هزموا سنة 1509م (10)، واستأنف العثمانيون الذين

ورثوا السلطة في مصر والشام من المماليك النضال.

3- **الرق:** بالرغم من أن الحركة الكشفية كان من بين دوافعها الوصول الى تجارة الشرق دون توسط القوى الإسلامية الى درجة ان أطلق على الاستعمار البرتغالي فى ذلك الوقت اسم (استعمار - البهار)، بالرغم من ذلك فإن تجارة الرقيق كانت فى مقدمة بواعث التوسع والاستكشاف واذا كانت البرتغال قد حاولت ان تطلي هذا الدافع بطلاء انساني في الفترة الحديثة، فتجعله مرتبطا بالدافع الديني، «فإن البرتغاليين هم مؤسسو مدرسة الرق في العصر الحديث» (11).

فلقد قيل ان الملاحين البرتغاليين قد اسروا في احدى رحلاتهم البحرية حفنة من الافريقيين، فاخذوهم معهم لتعليمهم مبادئ المسيحية حتى يعودوا لبلادهم من أجل أن يكونوا رسلا للتبشير بالدين المسيحي، ولكن اذهان البرتغاليين اتجهت فيما بعد الى شراء الرقيق أو خطفه من أجل بيعه في البرتغال.

من هذه الزاوية بدأت الأهمية البالغة للساحل الافريقي تتنامى باعتباره موردا لهذه "التجارة"، واستمرت البرتغال تحتكرها قبل المنافسة الجذرية التي لاقتها من هولندا وفرنسا وابريطانيا، فلم يكد القرن 16 م يبلغ نهايته حتى أصبحت هذه التجارة العمود الفقري للحياة الاقتصادية في البرتغال، واصبحت لشبونه سوقا عالميا لها، يمد العالم بحاجة منها، وقد بدأ الرقيق يشحن الى امريكا في بداية القرن 16 م (أول شحنة من عند ساحل غانا وصلت الى هاتين في عام 1510م). (12).

وبكلمة واحدة فإن الرقيق كان عصب الاقتصاد في أوربا، وقد تأسس عليه الرخاء فيها.

ولكن المرحلة الأدهى من هذه هي مرحلة التنافس الخطير بين البرتغال وهولندا وفرنسا وبريطانيا من أجل الحصول على الرقيق الذي لاغنى عنه للعمل في المزارع، وكانت سفن الرقيق الابريطانية تقوم برحلة مثلثة (13) فتنقل المصنوعات الانكليزية إلى غرب افريقيا، حيث تأخذ بدلها شحنات آدمية تعبر بها عباب المحيط لتستبدلها بالسكر والقطن الخام في أمريكا.

4- **الثورة الصناعية:** لقد بلورت الثورة الصناعية التي تفجرت في أوربا بحكم عوامل النهضة التي المعنا الى شيء منها في الصفحات الماضية، الحاجة الى أسواق لتصريف الفائض المنتج بحكم القدرة الهائلة على الإنتاج الزائد على الاستهلاك وفي المقابل، فان الحاجة كذلك كانت ماسة الى المواد الخام الضرورية للصناعة، وكانت افريقيا انسب الامكنة لوجود هذه الضالة المنشودة حيث المواد الخام المدنية والزراعية والسكانية هذا فضلا عن الأسواق ... «ان السياسة الاستعمارية صمام الأمن وبدونه تصبح الدول الصناعية مهددة بالأزمات الاقتصادية والإجتماعية» (14).

5- **الدافع الاستراتيجي:** فالتوسع الاستعماري يسمح بالحصول على نقاط ارتكاز لاغنى عنها بالنسبة لأمن المواصلات، (15) وخاصة في مضمار البحر، فقد كان الصراع محتدما بين الدول الأوربية على التوسع في القارة الافريقية، والتفرد باستعمار مناطقها، فهذا التطاحن والصراع الذي شهده اواخر القرن 18م و19م بين فرنسا وبريطانيا ومشكلات البحر المتوسط، وتقسيم تركة العثمانيين كل ذلك جعل لبعض الأماكن أهمية قصوى، فقد كان الدافع الاستراتيجي من اوكد الأسباب التي جعلت فرنسا تحتل الجزائر سنة 1830م.

6- **الرغبة المعنوية:** وذلك بغرض زيادة نفوذ الدولة (لاحظ نشوء الدول القومية الحديثة)، والتلويح بأن للشعوب الكبيرة رسالة تقوم بها في العالم، (16) وانها تأخذ بأيدي شعوب المستعمرات من

اليم المائج الى بر الأمان.

هذه كانت أهم الدوافع والحوافز التي نرى من الضروري الوقوف عندها حتى يتسنى لنا فهم حضور هذا الوافد، ونتعرف على مغزى أي خطوة يخطوها في التعامل مع السكان ومع الأرض، والتدابير التي يعتمدها من أجل التخلص الى مراميه.

بدايات الحضور:

ولقد كان أول حضور للوافد الأوربي -على ما رأينا من مصادر- قد تمثل في البرتغاليين وكان على الشواطئ الأطلسية في منطقة أو جزيرة اكادير دوم.

وليس الحضور البرتغالي على شواطئ هذا الشعب العربي المسلم في افريقيا بالأمر الغامض في دوافعه ولافي مراميه، وانما يأتي في سياقه التاريخي المتناغم والمنسجم. الذى أومأنا إلى بعض منه.

نحن نعلم أن شبه الجزيرة الايبيرية كانت خاضعة للحكم العربي الإسلامي منذ الفتح في نهاية القرن الأول الهجري. وحين بدأ سكان شبه الجزيرة من مناهضة هذا الحكم منذ ضعفت الدولة الأموية في الأندلس، فان البرتغال قد استقلت قبل اسبانيا وكان ذلك في القرن 13م، في حين مر معنا أن اسبانيا لم يتم لها ذلك الا في نهاية القرن 15م، وبالذات في سنة 1492م، ومن يعملُ النظر في عملية الكشف الذى قامت به اسبانيا يجد هذه السنة بداية لهذه الحركة.

هكذا إذا تتاح الفرصة للبرتغال فى وقت مبكر من أجل التفرغ لان تسلك طريقها في الغرب الخارجي، اذ ليس هناك شاغل داخلي: وفضلا عن ذلك فإن هذا النشاط تجد منه البرتغال متابعة لحربها الدينية ضد العرب المسلمين، ولا يخفى هنا علينا ان الحماس الديني المتصل بالحروب الصليبية كان قد خمد منذ المعركة الفاصلة بقيادة صلاح الدين الأيوبي في حطين سنة 1187م والتي انتصر فيها المسلمون نصرا ساحقا، ولكن هذا الحماس في البرتغال كان على اشده، فالملك يوحنا والد (هنري الملاح) صرح بأن «الميدان الحقيقي الذي يكسب فيه افراد البيت المالك الفخار هو ميدان الجهاد ضد المسلمين في المغرب، وأنه سيمنح اكبر وسام في بلاده (وسام السيد الأعظم) لمن يجاهد في هذا الميدان. (17).

ولقد انبرى هنري الملاح لهذه المهمة ولقد تحدى المخاطر الناجمة عنها بحكم التشجيعات التي اغدقها عليه والده، ينضاف الى ذلك، وهذا ما يؤكد الدافع الديني - انه كان على رأس (جماعة المسيح) ونواتها من الفرسان الجافلين من جزائر المتوسط بعد تعقب العرب المسلمين، فلاذوا بالبرتغال.

ويساعد البرتغال على هذه المهمة كونها على مقربة من الشاطئ الافريقي، فكانت ترسل البعثات التجريبية، وترسم الخرائط على ضوئها، وقد استفادت البرتغال من خبرات العرب الجغرافية والفلكية، فلقد استفادوا من مؤلفات ابي الوفاء البوزجاني المتوفى 388هـ، والبيروني المتوفى 440هـ والاصطخري المتوفى 346هـ والمقدسي المتوفى 38هـ وياقوت الحموي المتوفى 626هـ، وغيرهم كثير. (18).

اما في مجال تقنيات الاتجاه فإنهم استفادوا من البوصلة والاسطرلاب العربي.

ولقد اصر هنري الملاح ان يصل إلى غانه التي شاعت ثروتها وتجارتها مع المسلمين من أجل قطع هذا المدد عنهم، ومن ثم يصار الي نشر النصرانية بينهم.

وقد أنشأ لهذا الغرض اسطولا قويا، واستجلب الفلكيين ورسامي الخرائط، واسس مدرسة بحرية من أجل ان يتعلم فيها البرتغاليون فن الملاحة على أحدث الطرق، ووفق الأسس العلمية الصحيحة.

توالت الرحلات البحرية تترى على

السواحل الافريقية بعد احتلال سبتة سنة 1415هـ...

وصل البرتغاليون بعد ذلك الى الشواطئ الشنقيطية، علي عهد هنري الملاح (1394 - 1460)هـ، فلقد زار جليان (19) العامل له هذه المنطقة 1434م الموافق 837هـ، وقد تمركز البرتغاليون سنة 852هـ، 1448م في آركين الذي يعرف عند الشناقطة بأكادير دوم (20) ولقد ذكر فرناندیز ان جو أورودیكيز ارسل من طرف جان II الى هذه البلاد سنة 1493م وتوغل في أدرار وقضى سنتين في وادان وتردد عليها بعد ذلك. (21).

ولقد رمى البرتغاليون من وراء ذلك، كما سبق ان اومأنا الى ذلك، الى تحويل طرق التجارة من تيمبكتو. وعندما فشلوا في ذلك، والوصول الي ذهب السودان، انصرفوا إلى تجارة الرقيق علي النحو الذي مر معنا. وكانت قلعة آركين من أهم مواقع تصديره في هذه الفترة.

البرتغال ومواصلة الاكتشاف

لقد واصلت البرتغال اكتشافها للساحل الافريقي، واحتلوا مواقع اخرى (الرأس الأخضر، ساحل الذهب) وطافوا حول رأس الرجاء الصالح، ووصلوا الى شرق افريقيا ومن ثم رسوا في ميناء كاليكوت بالهند، بمساعدة العربي العارف البحر احمد شهاب الدين بن ماجد (22) وكان ذلك سنة 1497م ويلاحظ في هذا المضمار أن الحضور البرتغالي كان علي الشواطئ فقط في بداية امره، ومرد ذلك الى ضآلة عدد البرتغاليين وتواضع امكاناتهم (كانوا يرغبون في الحصول على الذهب من السودان ليصار الى تنظيم الحملات الكشفية الاستعمارية) وفضلا عن ذلك فإن الهدف التجاري يتراءى أنه كان في مقدمة الأسباب، اذا جازت المضارعة بين البواعث المختلفة للحضور البرتغالي، وهي في كل الأحوال متداخلة تداخلا من المجازفة معه وضع أحدها في المقدمة.

ويمكن تحقيق الهدف التجاري بواسطة هذه الحصون المنيعة التي أقامتها علي طول الساحل. وقد استطاعت التوغل فيما بعد في اليابس علي النحو الذي مر معنا.

لقد استطاعت البرتغال ان تتصل بتجارة الشرق مباشرة وان تفوض القوة التجارية العربية، وان تسيطر على المسالك البحرية واثر ذلك تأثيرا بالغا في القوى العربية الإسلامية حتى أن دولة المماليك سقطت بفعل هذه النشاطات الاستعمارية البرتغالية.

ثم ان النشاط كان مسايرا للنشاط التجاري في شرق افريقيا، والحق أننا لانتسى ان طول عمر فترة الصراع الديني بين المسلمين والبرتغاليين جعل هؤلاء الأخيرين يستمرون فترة طويلة، وقد انطبع نشاطهم بالطابع الديني ولم يجانب البعض الصواب حين اعتبره استمرارا للحروب الصليبية. إذ كانت البعثات التبشيرية جنبا إلى جنب مع الجيوش الاستعمارية والرحالة والتجار.

ولن نغفل أن تحول مسار طرق تجارة الشرق عن قلب الوطن العربي (مصر والشام ...) افضى إلى عزل هذه المنطقة عزلة لم تنقطع حتي حملة نابليون بونابارت 1798م.

ولكن البرتغال لم تمكث في السيطرة في هذا المنحى فترة طويلة ويرجع ذلك الى ظهور قوى استعمارية جديدة مثل هولندا وفرنسا وبريطانيا، وانتهى احتدام الصراع بينها الى تقسيم أملاك البرتغال التي ضمتها اسبانيا سنة 1580م (23)

واستمر ضم اسبانيا لها مدة تزيد على سبعين سنة.

ظهور قوى جديدة:

وقد تمكنت قوى جديدة هي هولندا التي أنشأت شركة الهند

الغربية الهولندية من وضع اليد علي المحطات التي كانت بحوزة البرتغاليين، وهكذا سيطروا علي ميناء آرگين من مطالع القرن 17، وكذا ميناء هدي (24) الذي يعرف من المصادر الأوربية ب (PORTENDICK) (25).

ان الصراع الأوربي على وضع اليد علي هاتين المحطتين وغيرهما من محطات التبادل التجاري على الشاطئ الأطلسي، وفيما بعد علي النهر ميزا احداث القرن 17م واستمر حتى الثلث الأول من القرن 18م. فلقد تعاقبت الدول الأوربية الثلاث (هولندا، بريطانيا، فرنسا) علي احتلال محطة آرگين إلى ان استعادها الفرنسيون سنة 1724م وهدوء لتضاؤل الأهمية التجارية سنة 1728م وذلك بالنظر لتنامي أهمية ميناء هدي المتأتية من قربه من النهر، وبحسبانه ملتقى لتجار الصمغ العربي من البيظان التجار الأوربيين. (26). وكان هدوءهم له بعد أربع سنوات من استرجاعه من الهولنديين.

تأسيس فرنسا أول محطة عند مصب النهر:

ولقد اقتربت فرنسا من منابع هذه التجارة التي تتنافس عليها الدول الأوربية بضراوة لتؤسس أول محطة لها عند مصب النهر في نهاية الثلاثينات من القرن 18، وقد اتخذت سنة 1659م من سان الويس مركزا لقيادتها وشيدت فيها حصنا، وسرعان ما تعاظمت كمدينة.

ونخلص الى القول بأن فرنسا وبريطانيا استطاعتا ان تنتزعا من هولندا احتكار هذه التجارة، والسيطرة بالتالي علي محطاتها وذلك خلال القرن 17م ليحل محله الصراع بين بريطانيا وفرنسا الذي ميز احداث القرن 18م في هذه المنطقة ولسوف تتمكن فرنسا خلال هذه الحقبة من الاحتكاك المباشر والاتصال مع البيظان، وذلك بغرض احتكار تجارة الصمغ العربي علي طول ضفة النهر.

ومع ذلك فإن مظاهر صراع بريطانيا المرير لها علي هذه المحطات كانت صارخة، فلقد سيطرت بريطانيا علي المراكز التجارية في عموم افريقيا الغربية وذلك خلال الحرب بين الدولتين التي تعرف في المصادر باسم (حرب السنوات السبع) 1756-1763م وقد كانت مسارحها في أوربا والهند، مما يوحي بأنها كانت حربا عامة (27).

ولكن فرنسا استطاعت أن تستميد سان الويس وكذا معظم مستعمراتها ومحطاتها التجارية، وذلك خلال احداث الحرب التي تعرف باسم (حرب الاستقلال الامريكية) (28) 1765-1783م ولسوف تعيد بريطانيا السيطرة على هذه المحطات خلال الحروب النابليونية وذلك سنة 1808م (29).

ولكن بنود معاهدة باريز نص أحدها علي ارجاع المناطق التي تتم فيها المبادلة التجارية في هذه المنطقة الي فرنسا.

لقد كان الحضور الفرنسي، الذي بدأ يتعاظم منذ تأسيس مدينة سان الويس (30) التي تنامى دورها الاستعماري لدرجة أنها، بعد احتلال فرنسا لبلاد شنقيط، كانت مقرالحكم الفرنسي للبلاد اياها، كان الحضور اذا حضورا تجاريا، ولكنه تطور لينتهي الى التدخل المباشر في خاصة أمور السكان، ومن ثم فرض هيمنته عليهم، وخاصة عن طريق العلائق التجارية مع الأمراء والمشايخ.

وليس بخاف ان المدخل الرئيس لهذه الهيمنة التماس المباشر مع السكان فخلال هذه الفترة، وحتى سنة 1794م توالت ثمان شركات امتياز علي سان الويس، وكانت البضائع التي تجلبها تتكون من (القطن (النيلة) والنحاس وآنية القصدير)، وكانت ارباح هذه السلع على ما يبدو فاحشة لدرجة أنها تصل إلى 800٪ (31) بينما كانت السلع التي يشتريها الأوربيون بالأساس هي (الصمغ العربي، والذهب والعبيد

والعاج)، ولم يكن للنقد في هذه التجارة اثر يذكر، فلقد كانت بالأساس تجارة مقايضة.

ولقد كانت الإمارات البيظانية هي مصدر العلك وكان الزوايا هم أهل مبادلته، في حين كان يأخذ الأمراء رسوما على مبادلته.

وقد توجه التجار الأوربيون لعقد اتفاقيات مع هذه الامارات بموجبها يتم تبادل الصمغ في نقاط محددة، ويقومون بحماية التجار (الفرنسيين) مقابل رسوم يدفعونها للأجراء. (32).

وهكذا اذا وقعوا اتفاقية مع ادوعيش (33) في عهد محمد بن محمد شين سنة 1818م، وفي عهد بكار بن اسويد أحمد سنة 1857م بموجبها يسمح ادوعيش للفرنسيين بحرية التجارة في نقطة بوجدور (متيم)، ومقابل ذلك يتعهد الفرنسيون بإعطاء 3٪ من قيمة الصمغ الذي يتم تبادله علي ضفة النهر، ووقعوا اتفاقيات مماثلة مع أمير الترارزه، وكذا امير البراكنه سنة 1885م. (34)

ولقد تصور امراء البيظان –امارة ادوعيش– مثلا ان الفرنسيين كانوا غارمين، شأنهم شأن القبائل التي كانت تخضع لهم لأنهم كانوا يتقاضون منهم رسوما سنوية. (35).

وكذلك مع البراكنة والترارزه (36).

لكن موقف الفرنسيين سيتغير وسياستهم ستتبدل، خاصة في النصف الثاني من القرن 19م **في هذه الفترة (1850 - 1900) التي تعرف في كتب** التاريخ (**بفترة حرية** التجارة وبداية **التدخل** الفرنسي).

لقد تغيرت من **جهة** الفرنسيين، **اذ** ماطلوا **في** دفع هذه الرسوم **التي** تعودوا علي **دفعها سنويا** للأمراء، وتغيرت من **جهة** الأمراء الذين قاموا بسياسة النهب، **مما حدا** بالتجار الى رفع **الشكوى** الى الحاكم الفرنسي **من** وضعية (الابتزاز والاغتصاب والتلصص).

على ضوء هذا الشكوى فإن الحاكم بروتي PROTET (1850 - 1865)م وفيدرب FAID-HERBE (1854 / 1861)، وفيما بعد بين (1863/ 1865م) قاما بتدشين سياسة توسعية لاهوادة فيها. وستلغى هذه السياسة الرسوم والمواثيق بخصوص تجارة العلك، والغاء الرسوم التي كانوا يدفعونها ولقد رأيا أن يستعملا القوة في سبيل تجسيد هذه السياسة.

وقد دشن الفرنسيون بذلك سياسة مواجهة مع أمراء بلاد شنقيط (37) ستفضي الي التدخل المباشر في شؤون السكان تمهيدا للسيطرة عليهم ولذلك في الواقع بواعثه على المستويين الداخلي والخارجي.

ولم يكن ليستاتي للفرنسيين السيطرة التي ينشدونها، ولا التمكن من إخضاع البلاد إلا باتخاذ مجموعة من التدابير المختلفة، ومن أوكدها التغلغل في البلاد عن طريق الرحلة الاستكشافية التي تعتمد على جمع مختلف المعلومات لا عن طبيعة الارض وكوامنها، بل عن بنية السكان وسجاياهم وكان هذا العمل عملا شاقا، بل احيانا ركوب خطر قد لاتحمد عقباه...

لقد كان تعامل الفرنسيين مع الامارات العربية البيظانية يتم في محطات معلومة، بل ومحددة في سياق الاتفاقات (38) المشتركة بين الطرفين، وكانت علي طول الحد الفاصل بين السينغال وبلاد شنقيط، ولم يمكنهم الاختلاف الى هذه النقاط من التعرف بشكل كاف، وبالقدر الذي يمكنهم من تحقيق ما يصبون إليه، فعمدوا الى ابتعاث شخصيات تذرع البلاد يمنة ويسرة، تلملم المعلومات عن طريق الملاحظات المباشرة وامعان النظر في العادات والسجايا...

وقد دخلت هذه الشخصيات تحت أغطية مختلفة ومظلات متباينة، واعتمدت أوكد وسائل التمويه فمنهم «التاجر» الذي يبحث عن «توطيد» إمكانات التعامل التجاري

ومنهم «عابر السبيل» العادي، ومنهم من «تقطعت به السبل» ويبحث عن طريق نجاته، كالذي تحطمت به إحدى السفن في عرض البحر اللجي ولقد احتمت الشخصيات المكتشفة بالاسلام، سواء عن طريق انتحاله، او بالسير في كنف إحدى الشخصيات ذات التقدير والاحترام عند السكان «إذ نجحوا في إقناعها بأنهم لايريدون سوءا بالبلاد» (39)

ومنهم من تعلم العربية والدين الإسلامي شأن الفرنسي المعروف عند العامة هنا عندنا بولد كيجه (RENE CAILLE) استعدادا للرحيل للتعرف على فجاج البلاد، وكان قد استطاع أن يصل الى تيمبكتو في زي تاجر مسلم ما بين 1824 ـ 1826م.(40)

وكان من حسن طالع الفرنسيين في مضمار جمع المعلومات عن بلاد شنقيط تمهيدا لوضع اليد عليها ان كسبوا الى جانبهم السينغالي ابن المقداد (دودوسك) الذي يعرف اللغة العربية بشكل جيد، الى جانب اللغة الفرنسية وكان خلال تعلمه اللغة العربية من الشناقطة قد تعلم عن كثب عاداتهم وتقاليدهم، وكان منزله مؤئلا لهم في سان الويس، ودار ضيافة، وقد قابلوا ضيافته بكيل المدح له وإسداء الثناء.

وهكذا استطاعت الإدارة الاستعمارية الفرنسية أن تنظم بفضل جهوده وخبرته في فجاج البلاد ثلاث رحلات، كانت اولاها رحلة الضابط فينسان (VINCENT) التي انطلقت من سان الويس 15 مارس 1860م وقد وصل الى آدرار، وعاد الى سان الويس، وقد مهد لهذه الرحلة لإخضاع آدرار، وسيسترشد غرود في دخوله آدرار سنة 1909م بمذكرات فينسان.(41)

ثم ان ابن المقداد نفسه قام برحلة اخترق فيها البلاد ووصل في نهايتها الى واد نون وقد سلم من اي أذى في هذه الرحلة لعلاقته بالسكان واسلامه ومعرفته للغة العربية.

وكانت رحلته الثانية مع بول سوليي (PAUL SOLEILLER) وقد بعث معهما الشيخ سعد بوه (42) مرافقا بعد أن مرا عليه مزودا اياهما برسالة (توصية) وكان ذلك في سنة 1879 وفي المرة الثالثة كان ابن المقداد مرفوقا ببلانشيه (BLANCHER)

وكانت كذلك هذه البعثة محمية من الشيخ سعد بوه، ولكنها وقعت في الأسر بعد هجوم السكان عليها، ولم تنج الرحلة الا بعد حضور الشيخ سعد بوه نفسه الى آدرار، وبعد مدة من المفاوضات، وكان نجاة البعثة بشق الأنفس.

ولقد حصلت الإدارة الفرنسية على معلومات هامة عن البلاد والعباد من خلال هذه الرحلات، وقد أكدت هذه المعلومات على أهمية تگانت وآدرار باعتبارهما مصدرين هامين للمياه، وبهما سهول خصبة، وواحات تستقطب السكان. ووجهة الرأي هذه سيؤسس عليها كبلاني (43) منهجه في (التوغل السلمي) في البلاد، وستتكثف المعلومات عن البلاد من خلال رحلته في البلاد التي ستنتهي به الى التحمس الى اخضاعها للفرنسيين، ويتجسد حلمه، ولكنه لم يدر بخلده انه دشن الطريق الذي سينتهي الى حتفه...

الإحالات:

1- انظر بحثنا المفصل عن التحقيب الأوربي، وحيف تطبيقه على التاريخ العربي الإسلامي (ندوة المصطلحات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة المولى إسماعيل- مكناس/ يناير/ 1993).

2- ليلى الصباغ، معالم تاريخ أوربا في العصر الحديث، المطبعة الجديدة، دمشق/1982، ص: 116.

3- ليلى الصباغ، مرجع سبق ذكره، ص: 118.

4- نفس المرجع، ص: 119.

5- شوقي الجمل، تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، مكتبة الأنجلو المصرية، 1971 ص: 35.

6- ليلى الصباغ، مرجع سابق، ص: 120 وما بعدها.

- ليلى الصباغ، مرجع سابق، ص: 126.

7- نفس المرجع والصفحة.

8- شوقي الجمل مرجع سابق ص: 153.

9- شوقي الجمل ص: 123

10- نفس المرجع ص: 124

11- شوقي الجمل ص: 129

12- نفس المرجع والصفحة.

13- شوقي الجمل ص: 131.

14- الدكتورة خيرية قاسمية، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، مطبعة خالد بن الوليد، 1402هـ/ 1982م، ص: 138.

15- خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص: 140.

16- نفس المرجع، ص: 139.

17- د. شوقي الجمل، ص: 154.

18- د. ليلى الصباغ، مرجع سابق، ص: 77 وما بعدها.

19- انظر مقدمة تحقيق: إمارتا ادوعيش ومشظوف، تاليف الشيخ سيدي بابه ولد الشيخ سيدي، دراسة وتحقيق إزيد بيه ولد محمد محمود/ط2 المعهد التربوي الوطني، 1994، ص: 33 وما بعدها.

20- «وهذا الشيخ - اليدالي هو الذي وفد على نصارى أكادير دوم، وكانت أكادير دوم حينئذ قرية مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فأدركت النصارى من حذاقتهم بعض بواطن أسراره، وظواهر أنواره، وعظمه أمير القرية، وأعطاه مطلوبه من الكاغد، وأهدى له هدايا سنية وشيعه، وذلك الكاغد موجود إلى الآن».

- انظر محمد ولد أحمد يوره الديماني، إخبار الأحبار بأخبار الآبار، ترجمة بول مارتي، تحقيق أحمد بن الحسن، معهد الدراسات الافريقية، الرباط، 1992، ص: 27.

21- P.DE CENIVAL. ET TH. MONOD; DESCRIPITION DE LA COTE D'AFRIQUE DE CEFTA AU SENEGAL; PAR VALANTIM FERNANDES (1506-1507) LIBRERIE LA ROSE; 1938; P.53.

22- ليلى الصباغ، مرجع سابق، ص: 86.

23- شوقي الجمل ص: 185.

24- نسبة إلى مدي بن أحمد بن دامان ثاني أمراء التارزة.

25- ANDRE' DE LCOURT; PASSE MAURITANIEN; LA COLLECTION DES JOURNAUX DE BORD DE (MARINE JJ) ANNALES 4 1; 1975 IMRS N P.44.

26- OP. CIT. P.44.

27- ليلى الصباغ، ص: 351 وما بعدها.

28- نفس المرجع، ص: 366.

29- خيرية قاسمية، ص: 46.

30- يطلق عليه سكان بلاد شنقيط اسم (اندر).

31- DECHASSEY FRANCIS; MAURITANIE 1900- 1975; ED. ANTHROPOS; 1978; OP. CIT. P.63.

32- S/ Lieutnant - 33 PALMIER; Les Id-Aouich P 11

مرقون على الآلة الكاتبة بالوثائق الوطنية وبحوزتي نسخة منه.

34- Mauritanie; - OP; Cit P 62

35- Mauritanie; P - 37

36- السفارة الموريتانية بتونس: الكتاب الأبيض ص 48.

37- Mauritanie; OP Cit P 11

38- انظر الكتاب الأبيض، مرجع سابق، ص: 50.

39- الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ص: 325.

40- سعد خليل، تكوين موريتانيا الحديثة، جزءان، أطروحة لنيل درجة الماجستير، القاهرة، 1977 ص: 211.

41- سعد خليل المرجع السابق، ص: 212.

42- الشيخ سعد بوه: شخصية سياسية وروحية، توفي: 1335هـ، وقف مع الفرنسيين في جميع مراحل دخولهم البلاد، وهو معاصر لهذا الحدث، ومراسلاته لهم تشهد بذلك، وقد ألف رسالة بعث بها إلى أخيه ماء العينين في الشمال تستهدف- فيما تستهدف- إثناءه عن موقفه المناهض للفرنسيين سماها «النصيحة العامة والخاصة في التحذير من محاربة الفرنصه» وقد فرغ من تاليفها على رأس 1327هـ/ انظر تحقيقنا لإمارتي ادوعيش ومشظوف/ص: 49.

43- كبلاني: شخصية فرنسية استعمارية معروفة، ولد سنة 1866 بفرنسا ولكنه تربى بالجزائر وقد أجاد اللهجة المحلية، وشغف بتعلم اللغة العربية والعلوم الإسلامية، فبرع فيها وألف كتابا مع زميل له عن الطرق الصوفية تحت عنوان: (LES CONFRERIES RELIGIEUSES MUSULMANES) صدر سنة 1897

وقد رأى كبلاني في هذا الكتاب أنه بالرغم من الخلاف الشكلي بين هذه الطرق فإن ثمة خيطا رفيعا يجمعها وهو مناهضة الوجود الأجنبي.

وكان يرى أنه يمكن تحقيق مصالح فرنسا وإخضاع هذه القبائل عن طريق الاتصال بالمشائخ (أصحاب السلم والآداب والتجارة والتأثير المعنوي) ومحاولة كسبهم عن طريق الإقناع (PERSUATION) والإغراء (SEDUCTION) ومن أجل أن تكتمل هذه الدراسة عن طريق المزيد من الاطلاع على أصحاب هذه الطرق، فقد طلب من السلطات الفرنسية أن تكلفه بمهمة في إقليم مشابه للجزائر وقد أتيحت له الفرصة حين كلف حاكم السودان الفرنسي بمهمة التعرف على القبائل البيضانية، المحاذية لهذه البلاد من أجل إخضاعها لسلطان فرنسا، ولم يجد كبلاني صعوبة في التفاهم مع هؤلاء الأعيان بالنظر إلى معرفته للغة العربية وفهمه للعلوم الدينية وخبرته السابقة في التعامل مع المسلمين، انظر تحقيقنا لإمارتي ريدوعيش ومشظوف ص ص 38 39.

***

**

*

بعض الهموم الموريتانية والعربية في بداية القرن العشرين من خلال رسالتين نادرتين

سيدى أحمد بن أحمد سالم ـ المدرسة العليا للتعليم

عثرت مؤخرا على رسالتين "نادرتين" إحداهما زودنى بها زميلي الأستاذ أحمد بن محمد يحيى رئيس قسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، والثانية أمدنى بها الأستاذ الفاضل بابَه بن هارون وهو صاحب مكتبة شخصية من أغنى المكتبات الموريتانية بالوثائق والمخطوطات ألا وهي مكتبة أهل الشيخ سيديَ بمدينة بتلميت.

والرسالتان لسيدى أحمد بن الأمين العلوي الشنقيطي، وهو موريتاني مشهور كان مقيما بالمشرق العربي فى بداية هذا القرن، حيث استقر به النوى وأقام بالقاهرة بعد أن أدى فريضة الحج.

وقد أثار انتباهى وشدنى إلى الرسالتين ماتحملانه من معلومات متعددة تتعلق بالمشرق والمغرب وبموريتانيا، معلومات ثقافية أساسا واجتماعية وسياسية كذلك. ومهما كان إيجاز الرسالتين فإنهما تعطيان تصورات دقيقة وإشارات حية عن أوضاع عرفتها مناطق عربية متعددة فى فترات تاريخية حاسمة.

وسأعرف بإيجاز بالمرسِل والمرسل إليه ومضامين الرسالتين، وسيجد القارئ بعد ذلك نصَّيهما.

المرسل:

هو: سيدي أحمد بن الأمين العلوي الشنقيطي، وهو موريتاني اشتهر بكتابه (الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط) الذى ألفه ونشره بالقاهرة سنة 1911م ويعرف المؤلف فى كتب التراجم العربية الحديثة بأحمد بن أمين الشنقيطي(1).

ومع أن الرجل لم يترجم لنفسه فى كتابه الوسيط ولا فى غيره من كتبه حسب علمى، إلا أن زميله المصري فؤاد السيد أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية، والذى اعتنى بطبع كتابه المذكور (الوسيط)، جرد له ترجمة جمع عناصرها ولم شتاتها من هذا الكتاب المفيد. فقد ذهب إلى أن ميلاده قد يكون سنة 1289هـ(2).

فقد درس ابن الأمين، وهو فى بداية عمره، على بعض العلماء الشناقطة الكبار كما يتضح من ثنايا كتابه الوسيط كابن عمه الشيخ محمد فال بن بابَه العلوي وكالشيخ محمد سالم بن ألُمَّا اليدالي وغيرهما ممن كانت له اليد الطولى فى الفقه واللغة والتصوف.

وفى سنة 1315هـ(3) أوقبلها بسنتين(4) بدأ ابن الأمين العلوي الشنقيطي رحلة حجية قادته فى البداية إلى المغرب الأقصى فمر بالمجاهد الكبير الشيخ ماء العينين بالسماره وأقام معه مدة، واطلع على أحوال زاويته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكتب عن كل ذلك ملاحظات ساقها أثناء ترجمته لهذا الشيخ فى كتابه الوسيط.

ثم حل بمكناسة وفاس وبعض حواضر المغرب الأقصى، وكان المغرب يومها تحت حكم السلطان المولى عبد العزيز بن الحسن الأول، فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ المغرب وقد أظلته الحماية الفرنسية...

وقد أدى ابن الأمين فريضة الحج سنة 1317هـ واتصل ببعض علماء الحجاز وأعيانه يومها كعبد الجليل براده الشاعر الحجازي. ثم اتجه إلى الشام وتركيا وروسيا حيث قضى هنالك ثلاث سنوات ألف خلالها بعض كتبه مثل كتاب طهارة العرب.

وثم حل بالقاهرة سنة 1320هـ(5) واستقر بها مؤلفا مضطلعا ومحققا مدققا ومطالعا لا يمل ومعتكفا آثر الكتب وحياتها على ماسواها.

وقد كان ابن الأمين الشنقيطي وهو بالقاهرة على اتصال برجال الثقافة والعلم المصريين مثل السيد محمد توفيق البكري نقيب الأشراف وشيخ مشائخ الطرق الصوفية وأبى بكر لطفي المنفلوطي وأحمد تيمور باشا والسيد أمين الخانجي الذى أعد له سكنا في بناية مطبعته وهي المطبعة الجمالية.

وقد توفي ابن الأمين رحمه الله تعالى في 18 رمضان 1331هـ (1913م)

المرسل إليه:

الرسالة الأولى موجهة إلى القاضي السالك بن بابه بن أحمدْ بَيْبَه العلوي، وذلك واضح من خلال النص، فابن الأمين يقول في بدايتها: "سلام الله وبركاته، ما تعاقبت للفلك حركاته، إلى خاتمة السلف، وقدوة الخلف، من لا زالت ألوية مجده خافقه، وأنهار علومه دافقه، الوالد الأبر، والكبريت الأحمر، العلامة الناسك، السالك أحسن المسالك، قاضي القضاة السالك ابن بَابَه حفظه الله ورعاه." والسالك المذكور ابن عم المرسِل سيدى أحمد بن الأمين الشنقيطي، وهو أحد الأعلام الموريتانيين علما ومكانة. وقد تولى القضاء في منطقته وكانو ذلك في حياة أخيه العالم والشيخ الصوفي والمؤلف محمد فال بن بابّه العلوي، ويعد والدهما بابّه بن أحمد بَيبَه أحد أبرز علماء شنقيط في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي).

وقد توفي القاضي السالك بن بابَه سنة 1333هـ. وله تآليف فقهية متعددة(6).

أما المرسَل إليه في الرسالة الثانية فتحتاج معرفته إلى تمحيص، فمصدر الرسالة كما ذكرت في البداية هو مكتبة أهل الشيخ سيديَ، والمرسِل -ابن الأمين العلوي- لم يصرح باسم المرسَل إليه بل اكتفى بقوله: "إلى حضرة العالم المفضال، المضاد لأهل الزيغ والإضلال، مالك أزمة البراعة، من تقصر عن أدنى مدحه اليراعة، ..." ثم بعد ذلك ذكر ما يدل على مراسلات سابقة بينه وبين المرسَل إليه: "كتابك، سيدى، جلا همومي وحل به سروري وابتهاجي. من موجبه: -أوجب الله لناولكم العافية، والنعم الصافية- أني بخير وعافية وعسى أن تكونوا كذلك".

ويبدو أن مراسِل ابن الأمين هذا قد أخبره بوفاة أحد أقربائه، وربما كان مُحرِجا وهو يخبره بذلك، إلا أن ابن الأمين يعذر مراسله فلا تثريب عليه في عدم كتمان تلك الفاجعة: "وقد أخذت كتابكم الكريم فحمدت الله على سلامة أهلنا وأساله أن يجمعنا مع من نعيتم لنا تحت لواء سيد المرسلين. فيا أخي الموت لا ينبغي أن يكتم عن أحد لأن الميت يحتاج إلى من يقرأ له أو يتصدق عليه بشيء."

فلمن يا ترى وجه ابن الأمين هذه الرسالة؟ إن هذه الرسالة موجودة في مكتبة أهل الشيخ سيديَ وهي في ملف ضمن مراسلات الشيخ سيديَ بابَه بن الشيخ سيديَ الكبير، فمن المحتمل أن تكون مرسلة إليه.

فقد كان الشيخ سيديَ بابَه وهوالعالم الجليل والمجدد السلفي كثير المراسلات متنوعها. وتدل مراسلاته -وقد اطلعت على بعضها- أنه كان حريصا على معرفة أحوال العالم الإسلامي في زمنه، والرسالة

مشحونة بأخبار العالم الإسلامي. فمن المقبول ما دامت هذه الرسالة ضمن رسائل الشيخ سيديَ بابَه وهو معاصر لصاحبها ومعروف برغبته في توسيع معارفه أن يكون هو المعني بها، خصوصا وأن الصفات التي ذكرها ابن الأمين في بداية الرسالة وهي: "حضرة العالم المفضال، المضاد لأهل الزيغ والإضلال، مالك أزمة البراعة، من تقصر عن أدنى مدحه اليراعة" تنطبق على الشيخ سيديَ بابَه، فهو العالم المشهود له بذلك، وهو السلفي المناصر لعقيدة أهل السنة....

وقد ذكر الشيخ سيديَ بابَه عَرَضا في كتابه حول تاريخ إيدوعيش ومشظوف أنه حصل على كتاب "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط" لابن الأمين العلوي الشنقيطي هدية من الشيخ محمد فال بن بابَه العلوي.

مضمون الرسالتين:

تعكس الرسالتان جملة من الأمور ذات الدلالة منها ما هو خاص بالمتراسلين ومنها ما هو عام ذو صبغة ثقافية أو تاريخية أو غير ذلك من الحيثيات. وعموما فالرسالتان تعكسان بصورة جلية بعض الهموم الموريتانية وبعض الهموم العربية في بداية هذا القرن وهو أمر سنقف عليه قريبا.

ومع هذا وذاك فالرسالتان توضحان جزءً من اهتمام ابن الأمين الشنقيطي وطبيعة فهمه للمجتمعات العربية التي زارها أو سكن بين ظهرانيها.

الهموم الموريتانية من خلال الرسالتين:

نفهم من الرسالة الأولى حرص الموريتانيين على أداء فريضة الحج، والاستفهام عن ظروف السفر نحو البقاع الطاهرة والإقامة بها. وتاريخ الحج بموريتانيا تاريخ طويل ونصوص الرحلات الموريتانية نصوص عديدة وبحاجة إلى دراسة.

وابن الأمين في الرسالة الأولى يعطي صورة قاتمة عن ظروف الإقامة بالحجاز في بداية هذا القرن وذلك يعود إلى أسباب اجتماعية واقتصادية ذكرها هو وسنعود إليها لاحقا.

ومن اللافت للانتباه في الرسالة الثانية أن المرسَلَ إليه، وهو الشيخ سيديَ بابَه بن الشيخ سيديَ الكبير كاحتمال قوي، يرغب في الهجرة إلى المغرب الأقصى والإقامة به ويسأل عن ظروفه. وقد قدَّم ابن الأمين في رسالته تحليلا دقيقا وموجزا عن أوضاع المغرب الأقصى السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية وسنعود إليها.

ومن الهموم الموريتانية التي تُنبه إليها الرسالة الأولى ما تركه موت ابن التلاميد التركزي الشنقيطي بالقاهرة من قضايا عالقة حاول ابن الأمين أن يتغلب عليها. وكلام ابن الأمين عن ابن التلاميد في هذه الرسالة يضيف أشياء في غاية الأهمية، فهو ينصفه -ولأول مرة- بعد أن "تحامل عليه" في ترجمته له في كتاب الوسيط.

ففي الترجمة يعدد صاحب الوسيط أخطاء ابن التلاميد في علمه وأخطاءه في معاملاته للحجازيين والمصريين والأتراك، أما في الرسالة التي بين أيدينا فيهب لنصرته بعد موته وقد تكالب الناس على مكتبته الغنية وراموا أن يستحوذوا عليها بالحق والباطل ولا يتردد ابن الأمين وهو يدافع عن حق ابن التلاميد أن يناطح رؤوسا كبيرة قد لا يكون قويا على نطاحها مثل الإمام محمد عبده الذي كان له ضلع -حسب ابن الأمين- في وضع اليد على مكتبة ابن التلاميد بعد موته. فالرسالة إذن تضيف عناصر تتعلق بكتب ابن التلاميد من حيث عددها ومن حيث ما آلت بعد موته، كما أنها تكمل ما يمكن أن نسميه اليوم "تقصيرا" من صاحب الوسيط رحمه الله وعفا عنه في ترجمة ابن

التلاميذ.

ومن هموم الموريتانيين من خلال الرسالتين ما تصح تسميته بـ"الهم الثقافي" ففى الرسالة الأولى يحرص القاضى السالك بن بابَه وهو المرسل إليه على اقتناء بعض الكتب التى لم تكن متداولة فى موريتانيا مثل "كتاب المدونة" وهو من أمهات كتب الفقه المالكي إن لم يكن أمَّها جميعا. ويذكر ابن الأمين أنه استغل علاقاته الخاصة وطلب من بعض أثرياء المغاربة بالمشرق أن يقوم بطباعة المدونة وأنه باشر تنفيذ ذلك. كما يذكر أن كتاب الحطاب، وهو أحد شروح مختصر خليل فى الفقه المالكي، بدأت طباعته هو الآخر.

الهموم العربية من خلال الرسالتين:

بالنسبة للمغرب الأقصى:

يتحدث ابن الأمين عن المغرب الأقصى وحوادثه وهو بالقاهرة فهو فى جانب يسترجع أمورا شاهدها وعايشها وفى جانب آخر يكتب عما سمعه من أخبار المغرب التى تصله وهو بمصر.

فهو يصف المجتمع المغربي فى نهاية القرن التاسع عشر المقسم حسب ما لاحظه إلى:

- فلاحين وهم أكثر طبقات المجتمع تضررا لما ينالهم من ضرائب ومكوس.

- أهل المدن ويبدو من خلال ملاحظة ابن الأمين أنهم أكثر استقرارا من غيرهم، وربما يعود ذلك إلى ما يوفره جو المدينة من مرافق تجارية واجتماعية تعود على الحياة العامة بالنفع.

- أهل الريف: حيث الاضطراب والقلاقل المستمرة.

ويعرض ابن الأمين إلى حادثة تاريخية معروفة فى تاريخ المغرب وهي خروج الجلالي بن إدريس الزرهوني المعروف ببوحماره على السلطان المولى عبد العزيز بن الحسن الأول، ويسميه ابن الأمين بالرسولي. ويفصل ابن الأمين فى هذه النقطة موضحا تطورها وما عرفته من تسلسل كان من نتائجه بداية دخول الفرنسيين وبسط حمايتهم على المغرب.

أما السكن فى المغرب فيقول عنه ابن الأمين: وأما ما سألت عنه من أمر السكنى فى أرض الغرب فإنه أي الغرب أرض خِصبٍ وزراعةٍ وخيرات كثيرةٍ لكنَّ سكنى مدنه الكبار لا يتيسر لصعوبة المعاش: لأن الإنسان إذا كان يريد أن يشتريَ دارا يسكنها فلا يحصل عليها إلا إذا دفع أموالا كثيرة لا يصح دفعها لأحد من أهل أرضنا لأن أغنانا من أفقر غيرنا.

بالنسبة للمشرق العربي:

فى الحجاز:

كان الحجاز يعيش فى بداية هذا القرن وخاصة السنوات الأولى اضطرابات كادت تقضى على طرق الحج ومسالكه، لكثرة اللصوص المتعرضين لركاب الحج.

فالعرب المنتشرون فى بوادى الحجاز كانوا يومها على خلاف مع شريف مكة (الشريف عون) وكان ركاب الحجاج ضحية توتر علاقة الشريف بالعرب حسب ابن الأمين. ويثير ابن فى الرسالتين ما وقع بالمدينة المنورة من بطش كان سببه سوء الإدارة العثمانية هنالك، ولذلك لا يتردد ابن الأمين فى نهاية رسالته الثانية، وقد ساق حديثا مؤلما عن سوء معاملة الأتراك لسكان المدينة، أن يقول متحدثا عن السلطان العثماني عبد الحميد: "وأما السلطان عبد الحميد فالذى يظهر للبصير أن أمره يصير إلى وراءَ لما فعل بجيران رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفى صحيح البخاري

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يكيد أهلَ المدينة أحد إلا انماعَ كما ينماع الملح فى الماء."

وعن بلاد نجد:

يذكر ابن الأمين فى الرسالتين جانبا من الصراع الشديد الذى عرفته بلاد نجد والذى كان دائرا بين عبد العزيز بن سعود وعبد العزيز بن رشيد أمير منطقة حائل وجبلي طيئ. وكان هذا الصراع على أشده وقد حسم بظهور الدولة السعودية على يد مؤسسها الفعلي الملك عبد العزيز بن سعود.

ولا يهمل ابن الأمين فى إشاراته بلاد الشام والعراق واليمن ولا مصر حيث كان مقيما. وهذه الإشارات على إيجازه تعكس اطلاعا واستنتاجا مهما خاصا فيما يتعلق بالاستعمار الغربي. فنجده فى الرسالة الأولى ينبه إلى المحن الشديدة التى كان يلاقيها سكان مكة من الشريف عون قائلا: "أما مكة فإن القاطنين بها يتضرعون إلى الله بأن يملك عليهم النصارى لما نالهم من ظلم الشريف."

كما يتضح من حديثه عن أوضاع اليمن ظهور بواكير الثورة العربية وضلوع الإنجليز بنواياهم المناهضة للعثمانيين والمستغلة لشعور العرب فى ذلك، يقول ابن الأمين: "وأما اليمن الآن ففى غاية القلق وذلك أن عرب بواديها تألبوا وبايعوا أحد أشرافهم وأخرجوا عساكر العثماني من صنعاء وقتلوا منهم كثيرا. وسبب قيامهم ظلم حكام الترك فى أرض اليمن. ويقال إنهم وصلوا قريبا من الحدَيْدَه وبعث إليهم العثماني مائة ألف من عساكره معهم الأنفاظ والمؤن الطائلة ولكن الأنكليز يمدون العرب بالسلاح والمال ويقولون لهم الخلافة لا تكون إلا فى قريش كما قال نبيكم صلى الله عليه وسلم".

وفى حديثه عن مصر نجده "مرتاحا" للاستعمار الإنجليزي الذى وفر –رغم شروره وعدائه للمسلمين– نسبة من الأمن عجز عنها الحكام المسلمون القائمون يومها، يقول ابن الأمين: "وأما مصر فإنها تحت حكم الإنكليز وأهلها فى غاية الراحة والأمن إلا أن الشريعة فيها تركت سدى."

الرسالة الأولى:

الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده

سلام الله وبركاته، ما تعاقبت للفلك حركاته، إلى خاتمة السلف، وقدوة الخلف، من لا زالت ألوية مجده خافقه، وأنهار علومه دافقه، الوالد الأبر، والكبريت الأحمر، العلامة الناسك، السالك أحسن المسالك، قاضى القضاة السالك بن باب حفظه الله ورعاه.

ما بعد فإنه فى أيمن طالع وصل إلي كتابكم الكريم فحمدت الله على سلامتكم فى عجز عشر جمادى الأولى الأول. وقد ذكرتم أنى لم أكتب بشيء، وذلك لأمور منها: ضيق الوقت.

أما ما سألتم عنه من أمر الحج وتيسره فإن الحج لا ينضبط أمره، والأغلب فيه من نحو خمس سنين عدم الأمن. وسبب ذلك أن العرب المقيمين بالحجاز فى غاية الهمجية والجهل ومع هذا فأغلبهم فقراء. وكانت لهم عطيات مخصوصة من أمير مصر وأمير تونس ومن السلطان العثماني؛ وهم يبعثونها إليهم. إلا أن ولاة الأمر من الأتراك يقتسمونها دونهم، وهم يقطعون الطريق نكاية فى الجميع. ولعلهم يردون لهم حقوقهم. وأيضا فإن عون(7) أمير مكة يظلمهم كثيرا، ومن ذلك أنه يحجر عليهم أن لا يكتروا جمالهم للحجاج من مكة إلى جدة إلا بأجرة عظيمة وينزع منهم ثلاثة أرباعها، ومن مكة إلى المدينة كذلك. واعلم أن الخوف لا يحصل للحجاج إلا فى أرض الحجاز، والظاهر أنه يشتد هذه السنة لأن الشريف ذبح أحد أشراف مر الظهران نهارا، وسبب ذلك وكيفيته يضيق عنه الوقت.

أما مكة فإن القاطنين بها يتضرعون إلى الله بأن يملك عليهم النصارى لما نالهم من ظلم الشريف.

وأما المدينة المنورة فقد أوقع فيها الترك أمرا

يفتت الأكباد؛ وهو أن رجلا منهم يقال له عثمان باشا ولي عليها من طرف السلطان فاشتدت شوكته وظلم الناس. فاشتكوا به إلى السلطان فآل الأمر إلى أن بعث السلطان عساكر كثيرة، أخذ من وجهاء أهل المدينة نحو السبعين ومن العساكر القديمة نحو ذلك؛ لأنهم كانوا يميلون إليهم وحبس الجميع في المدينة. ثم أخرج منهم قريبا من مائة مكبلين بالحديد إلى الطائف وزجهم هناك في السجون وترك أولادهم في المدينة يتضارعون من الجوع. وبعد هذا عصا بعض العساكر القديمة ودخلوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغلقوه عليهم ولم يتركوا أحدا يدخله إلا إذا علموا أنه ممن لا حذر منه.

وكانوا إذا حضر وقت الطعام يضربون آلاتهم ومزاميرهم حتى يأتيهم الطعام فوق منارات المسجد الشريف. فدخل عليهم الأمير بالأمن وأنه يفعل لهم ما يريدون ثم قتل منهم ناسا في المسجد الشريف. والحاصل أن المدينة الآن في شدة عظيمة.

أما بلاد الشام فإنها ساكنة وقد وقعت فتنة من نحو سنتين بين المسلمين والنصارى وكان الظفر فيها للمسلمين وقد [.....](8) من مسلمي بيروت في تلك الوقعة شيئا وراء العقل.

أما بلاد العراق فإنها ساكنة ووقع في هذا العام طاعون جارف ببغداد ثم انقطع. وأما البصرة وكربلاء وأم عبيد والكوفة والنجف ففي غاية العمارة.

وأما نجد فقد خرب بسبب حروب عظيمة وقعت بين الأمير ابن الرشيد وبين الأمير ابن سعود، وشرحها يطول(9).

وأما اليمن الآن ففي غاية القلق وذلك أن عرب بواديها تألبوا وبايعوا أحد أشرافهم(10) وأخرجوا عساكر العثماني من صنعاء وقتلوا منهم كثيرا. وسبب قيامهم ظلم حكام الترك في أرض اليمن. ويقال إنهم وصلوا قريبا من الحديدة وبعث إليهم العثماني مائة ألف من عساكره معهم الأنفاظ والمؤن الطائلة ولاكن الأنكليز يمدون العرب بالسلاح والمال ويقولون لهم الخلافة لا تكون إلا في قريش كما قال نبيكم صلى الله عليه وسلم.

وأما مصر فإنها تحت حكم الإنكليز وأهلها في غاية الراحة والأمن إلا أن الشريعة فيها تركت سدى.

وأما محمد محمود بن التلاميد فإنه توفي في هذا العام في ذي القعدة، وقد خلف ألفي كتاب. وقد أوصى مفتي مصر وهو محمد عبدُه فيلسوفي أهل الشرق على أنه ينقل الكتب ويضعها في الكتبخانه الخديوية فإذا جاءها ناس من أهل شنقيط [.....](11)

فلما مات محمد محمود أراد عبده أن يأكل الكتب، فعارضته وقدمت عريضة لحكام مصر، فبعد لأي أعطوني من العسكر ما ذهب معي إلى محلها فختموا عليها وبعد لأي نزلت إلى الكتبخانه الخديوية فلم يزل عبده يسعى بجهده حتى أثبت أنه وصي، فباع ما لم تثبت وقفيته لمن لا يستطاع جنابه. وما بقي وهو ست مائة كتاب نظرت في بعض تلك الكتب مكتوب عليها أنها وقف علي عصبه، وفي بعضها ثم على سائر علماء الشناقطة.

وكان المفتي المذكور سابقا ينصب لي الأشراكَ ثم إن الله أوقعه فيها ومات نعوذ بالله على أسوإ هيئة.

وأما المدونة فإنها لا توجد في القطر الشرقي كاملة وفي الغرب منها نسخ متفرقة. وقد حرضت على بعض أغنياء المغاربة على طبعها فأراد استنساخها من فاس ليطبعها وهو الآن باذل همته.

وأما الحطاب فموجود بمصر وقد حضضت ناسا على طبعه فلم يلتفتوا إلى ذلك واعتذروا بأنهم يصرفون أموالا كثيرة ولا يعتاضونها لعدم الالتفات إلى الكتب الكبار في هذه البلاد، لأن العلم في مصر في غاية التقهقر وسبب ذلك جهل علمائها وعدم

نصيحتهم لطلاب العلم.

وقد سمعت من أحد المصريين أن الحطاب باشر ...(12) طبع المدونة بعد ما كتبت.....(13).

وأما أنا فإنى أتوجه إليكم إن شاء الله تعالى بعد مد .....(14) لأخرى سفر أحد أصدقائي بمصر ويحمد لي السفر قبل مجيئه. سلم لي على سيدي محمد فال بن باب .....(15) الله .....(16) سيدي أحمد بن قاسم جسوس .....(17) لمحمد فال .....(18)

الرسالة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده.

إلى حضرة العالم المفضال، المضاد لأهل الزيغ والإضلال، مالك أزمة البراعة، من تقصر عن أدنى مدحه اليراعة، سلام الله الأتم ورضوانه الأعم.

كتابك سيدى جلا همومى وحل به سرورى وابتهاجى. من موجبه: -أوجب الله لناولكم العافية، والنعم الصافية- أنى بخير وعافية وعسى أن تكونوا كذلك، وقد أخذت كتابكم الكريم فحمدت الله على سلامة أهلنا وأسأله أن يجمعنا مع من نعيتم لنا تحت لواء سيد المرسلين. فيا أخى الموت لا ينبغى أن يكتم عن أحد لأن الميت يحتاج إلى من يقرأ له أو يتصدق عليه بشيء.

أما ما سألتم عنه من أمر الغَرْب(19) فإنى تركته(20) أي أهله على ثلاثة أقسام: فالفلاحون وهم أهل الحراثة في غاية من الضيعة لما يؤخذ منهم من الأمكاس والضرائب، وأما أهل المدن الكبار فإنهم مستريحون، وأهل الجبال لا يستقر أمرهم، فتراهم مرة ثائرين على السلطان، ومرة يفتك بهم السلطان فيقطع رؤوسهم ويعلقها فى الأسواق ليزدجر بهم الناس.

وما سألت عنه من الثائر على السلطان مولاي عبد العزيز(21) فإنه استبد بقريب من ثلث ملكه، وقد ملك من بلاده المشهورة: وجده وتازه والريف. ووقع بينهم كثير من القتال. أما عبد العزيز فإنه خرج بنفسه فى محالٍ فلم يحصل على طائل، بل اشتد الأمر على جنوده وأكلوا البغال لما لاقوه من الجوع، ثم رجع إلى فاس.

ووقعت مسألة أبدت ضعف السلطان عبد العزيز: وهي أن رجلا من أهل الجبال اسمه الرسولي هجم ليلة على طنجة فأتى بيت نصراني من جنس منهم يقال له: "أمريك" فأخذه. فلما وصل الخبر إلى عبد العزيز كربه هذا الحديث، فعلم أنه إن قتله يشتد عليه الأمر لعلمه بما سيلقاه من جماعة الأسير. فأرسل إلى الرسولي فى خلاصه أي الأسير، فامتنع أن يرده إلا بشروط؛ منها: أن يخرج من حبسه كل من كان فيه قبيلته، وأن يعطيه عشرين ألف ريال (أي أوقية) وأن يجعله قائدا، ففعل.

وأما أمر النصارى مع الغرب فإن الفرانس اتفقوا مع انكليز على أن انكليز يستقلون بمصر فلا يعارضهم الفرنسيون، إلا ما كان من أمر الترع وهو نهر حفره الفرنسيون(22)، تمر فيه البوابير وله أموال كثيرة، تؤخذ من الحجاج. ثم إن انكليز رفعوا أيديهم عن الغرب أي عن الطمع فيه إلا ما كان من أمر جبل الطارق وهو جبل بينه وبين طنجة قريب من ساعتين. وهو تحت سلطة انكليز، وقد حصنوه بحصون عجيبة.

والفرنسيون بدأوا يقرضون عبد العزيز الأموال الكثيرة بربا النسيئة ليملكوا بلاده بذلك.

وقد بلغنى قريبا أن أهل سوس وأهل الحوز قاموا عليه الآن، ولم أتحقق هذا.

وأما ما سألت عنه من أمر السكنى فى أرض

الغرب فإنه أي الغرب أرض خصب وزراعة وخيرات كثيرة لكنّ سكنى مدنه الكبار لا يتيسر لصعوبة المعاش؛ لأن الإنسان إذا كان يريد أن يشتريَ دارا يسكنها فلا يحصل عليها إلا إذا دفع أموالا كثيرة لا يصح دفعها لأحد من أهل أرضنا لأن أغنانا من أفقر غيرنا والفلاحون من الغرب حفاة عراة لما يلقونه من الظلم الدائم.

وقد أخبرتكم في الكتاب السابق بما حدث في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. فإن السلطان بعث وفدا لتحقيق ما وقع بين عثمان باشا شيخ الحرم وبين أهل المدينة، وحلّفهم في المصاحف أنهم لا يقولون إلا الحق فلما وصلوا المدينة أعطى عثمان باشا لكل فرد منهم ألف جنيه (أي دينار) فقَلَبوا الحقيقَةَ. فأمر السلطان بالقبض على الجماعة الذين شكوا إليه من جور عثمان باشا فأُخِذوا ورموا في السجن وعددهم خمسة وستون رجلا. ورئيسهم عثمان الداغستاني وكان متولي الفتوى بالمدينة على مذهب أبي حنيفة، ومنهم الشيخ بركات الأنصاري ولم يكن أحد في المدينة من سلالة الأنصار غيره أو نساء لا أدري عددهن، ومنهم طاهر سنبل، ومنهم صديقي محمد رؤوف طاهر الكردي وهو من الفتيان. فمكثوا في الحبس شهرين أو قريبا من ذلك ثم أخرجوهم مكبلين بالحديد تحفهم العساكر حتى وصلوا إلى جدة ففكهم والى جدة ثم أخرجوهم إلى الطائف وحبسوهم فيه.

وأما مكة المكرمة فإن الطريق بينها وبين جدة انقطعت وذلك أن السلطان جعل عسكرا بينهما يؤمنون الطريق فاتفق أن جماعة من العرب خرجوا يحملون أموالا عظيمة من تجار جدة ليردوها إلى تجار مكة، فلما كانوا قريبا من حَادُه وهي في النصف بين مكة وجدة تخاصموا بينهم أي العرب الذين يحملون الأموال فتضاربوا بالرصاص فسمعهم العسكر فأتى فضربهم بالرصاص فتألبوا على العسكر فانهزم العرب وأخذ العسكر الأموال فحملوها إلى مكة وأدوها إلى أهلها، إلا أن كثيرا من الأموال ذهب ولم يعرف من أخذه. فبعد أيام خرجت قافلة من جدة عددها عشرون ألف جمل فنهبها العربُ، وخرجت أخرى ومعها عسكر فتعرض لهم العرب فاقتتلوا قتالا شديدا ومات فيه من العرب خمسون إنسانا ومن العسكر قريب من عشرين فانهزم العرب. والحاصل أن قبائل حرب تألبوا لقطع طريق مكة وهم كثيرون جدا.

وأما بلاد نجد فإن الحرب فيه اشتدت ووقعت وقعة منذ شهرين مات فيها سبعمائة من جند أبن رشيد وضرب هو بسيف وهزم. وبعد ذلك وقعت فتنة أخرى بلغنا أن ابن سعود هزم فيها هزيمة شديدة.

وأما السلطان عبد الحميد فإن البغار يقتل في عساكره ومات في هذه الأيام أخوه السلطان مراد الأسبق الذي خلعوه قبل عبد الحميد بعدما بايعوه ستة أشهر. واختلف في سبب موته فقيل مات بمرض البول وقيل غير ذلك. وقد ابتلي رحمه الله بلاء شديدا حبسه عمه السلطان عبد الحميد قريبا من ثلاثين سنة.

وأما السلطان عبد الحميد فالذي يظهر للبصير أن أمره يصير إلى وراءَ لما فعل بجيران رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يكيد أهلَ المدينة أحد إلا انماعَ كما ينماع الملح في الماء.

في الخامس من رجب عام 1322هـ

هوامش:

1 - انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام المجلد 1 ص 151 (طبعة دار الشروق)

2 - انظر مقدمة الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص 15، ويرجح الدكتور محمد المختاربن اباه في مقدمته للطبعة الرابعة من كتاب الوسيط أن يكون ميلاد ابن الأمين بتاريخ 1280هـ أي قبل ما ذهب إليه فؤاد السيد بثماني سنوات، لكون أحد لداته (وهو محمد عبد الرحمن بن محم العلوي) من مواليد ذلك التاريخ، انظر مقدمة د. ابن اباه ص 4.

3 - المرجع السابق ص 15.

4 - انظر أحمد باب بن أحمد مسكه: الوسيط، لوحة عامة عن موريتانيا في نهاية القرن التاسع عشر، باريس 1975.

5 - انظر الوسيط ص 15 ويذهب محقق كتاب الدرر اللوامع على همع الهوامع الدكتور عبد العالي سالم مكرم إلى أن ابن الأمين الشنقيطي دخل القاهرة على رأس سنة 1323هـ عكس ما ذكره فؤاد السيد من أنه دخلها سنة 1320هـ، (انظر مقدمة تحقيق كتاب الدرر اللوامع على همع الهوامع ص 15، الصادر عن دار البحوث العربية، ط 1، سنة 1401هـ 1981م) وربما كان رأي فؤاد السيد له ما يرجحه خاصة إذا علمنا أن ابن الأمين المذكور كان سنة 1321هـ قد دخل في نقاش لغوي مع الشيخ الشنقيطي الشهير ابن التلاميد وقد كتبا في الصحف القاهرية وخاصة في صحيفة المؤيد كما ذكر ذلك ابن الأمين في كتابه الوسيط عند ترجمته لابن التلاميد ومعلوم أن ابن التلاميد توفي سنة 1323هـ.

6 - انظر حياته في: موسوعة المختار بن حامد التاريخية، جزء العلويين ص 42.

7 - هو عون الرفيق بن محمد بن عبد المعين ولي إمارة مكة سنة 1299هـ بعد انفصال الشريف عبد المطلب بن غالب عنها، ويوصف بجبروته وطغيانه ولذلك خافه الناس، وكانت تصيبه في آخر عمره نوبات صرع وينكر الزركلي في ترجمته عن صاحب كتاب "مرآت الحرمين قوله في الشريف عون: «ليس أدل على فداحة ظلمه وتفاقم شره وتماديه في غيه كلمات ثلاث إحداها رسالة عنوانها :ضجيج الكون من فظائع عون" كتبها السيد محمد بن عبد الرحيم العلوي سنة 1316هـ والثانية "حنين الكون فيما لحق ابن مهنى من عون" رسالة كتبها الشريف محمد بن مهنى العبدلي وكيل الإمارة بجدة وأمير عربانها، والثالثة قصيدة للشاعر أحمد شوقي سنة 1322هـ مطلعها:

ضج الحجاز وضـــج البيت والـحرم

واستصرخت ربها من مكة الأمم

انظر الزركلي: الأعلام المجلد الخامس ص 47.

8 - فراغ في الأصل بمقدار كلمة وربما كانت: ظهر

9 - يعنى الحرب التى قامت بين عبد العزيز بن متعب بن عبد الله الرشيد أمير حائل وحواليها بنجد وبين عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود مؤسس المملكة العربية السعودية الحديثة، وقد عرفت هذه الحرب أياما كثيرة وكان النصر فيها حليف ابن سعود حيث قتل ابن الرشيد في روضـة المهنا (القـصـيم) سنة 1324هـ 1906م، انظر: أمين الريحاني: نجد وملحقاته (دار الريحاني بيروت لبنان) وسنت جون فلبي: تاريخ نجد (تعريب عمر الديسراوي، دار مدبولي القاهرة 1994)

10 - يعنى الإمام يحيى حميد الدين الذى قاد ثورة باليمن ضد الأتراك فانتدب الباب العالى فيضى باشا، وهو أحد القواد الأتراك، لمواجهة الإمام، انظر: تاريخ نجد لفلبي ص 380.

11 - فراغ في الأصل بمقدار سطر

12 - فراغ في الأصل بمقدار كلمتين

13 - فراغ في الأصل بمقدار كلمتين

14 - فراغ في الأصل بمقدار كلمتين

15 - فراغ في الأصل بمقدار كلمتين

16 - فراغ في الأصل بمقدار كلمتين

17 - فراغ في الأصل بمقدار سطر

18 - فراغ في الأصل بمقدار سطر

19 - الغرب: تطلق في الكتابات الموريتانية القديمة على المغرب الأقصا.

20 - ومغادرة ابن الأمين صاحب الرسالة للمغرب كانت قبيل سنة 1317هـ = 1899م.

21 - السلطان عبدالعزيز: هو مولاي عبد العزيز بن الحسن الأول بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام أحد سلاطين الدولة العلوية بالمغرب تولى من 1894م إلى 1908م بدأ معه المغرب يدخل في عهد الحداثة حيث قام ببعض الإصلاحات (مثل الإصلاحات الضريبية 1901). خرج عليه الجلالي بن إدريس الزرهوني اليوسفي المعروف بـ"بو احماره" في منطقة تازه سنة 1902م وأصبح متنفذا في المناطق الواقعة شرقيّ مدينة فاس وهدد بذلك العاصمة. وقد ضغط الأوروبيون على السلطان عبد العزيز حينها لحماية رعاياهم واستعادة ديونهم الكثيرة وقد أدت هذه التطورات الخارجية والداخلية إلى انخفاض شعبية السلطان وازدياد التذمر والفوضى مما أدى بأخيه مولاي حفيظ إلى أخذ السلطة في تاريخ 16 أغسطس 1907.

22 - يعنى قناة السويس الذى ساعد الفرنسيون في إنجازه كما هو معروف.

نموذج من نوادر مخطوطات المكتبات الشنقيطية

أحمد ولد محمد يحيى
باحث بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي

لاتزال المكتبات الموريتانية القديمة تحتضن ثروة هائلة من نوادر المخطوطات الأصلية التي حافظت على تاريخ بلادنا وتراثها الحضاري مكونة بذلك قاعدة حضارية رصينة لضبط مسيرتنا الثقافية الطويلة ومراحل التطور الثقافي والفكري لهذه البلاد.

وقد توزعت هذه المخطوطات على شكل مكتبات خصوصية وأوقاف في مختلف المدن والأرياف الموريتانية ساعد في جمعها واقتنائها الموقع التجاري النشط لبلاد شنقيط الذي كان من أسباب تنشيط الحركة الثقافية وشراء المخطوطات واستجلاب نوادرها واستنساخها فازدهرت سوق المخطوطات وتنافس العلماء والرحالة في شرائها وجمعها فجلبوا نوادر المخطوطات من المشرق والمغرب العربي واهداها لهم الملوك والوجهاء من مختلف هذه الأقطار.

وفي ظل هذا التنافس والتسابق لاقتناء الكتب تأسست مكتبات مهمة كان لها الفضل في حفظ ما بقي من هذه المخطوطات التي تزخر بها مكتبات المدن القديمة وغيرها من المكتبات المتفرقة في سائر البلاد والتي تحمل بدون شك معلومات حضارية وتاريخية تمتد الى أكثر من ألف سنة هي بالتأكيد حصيلة من إنتاجها.

وقد تمكنا في قسم المخطوطات من الاطلاع ميدانيا على ماتي مكتبة من اصل ثلاثمائة مكتبة خصوصية صورنا من مختلفها 2500 مخطوط على الميكروفيلم وفهرسنا 24 مكتبة من مكتبات المدن القديمة: (وادان وشنقيط وولاته) في إطار خطة عاجلة ستشمل فهرسة جميع المكتبات بحول الله، لكن أغلب هذه المخطوطات لم يكشف النقاب عنه وغير مفهرس ولم يحظ بالنشر إلا النزر القليل منه وهذا النزر القليل غير محقق، ولا تزال نسبة 80٪ من هذه المخطوطات التي تقدر بحوالي اربعين ألف مخطوط مملوكة ملكية خاصة وفي ظروف حفظ سيئة تعرضها للتلف والاقراض.

وقد فقدنا بالفعل اعدادا كثيرة من هذه المخطوطات وذلك نتيجة لطبيعة حياتنا البدوية المتنقلة وظروفها القاسية.

فقد أودعت مكتبات للمقابر فضاعت ودفن كثير من المخطوطات العتيقة التي اعتبرها اصحابها في إعداد الموتى فدفنوها حية كما يدفن الأموات خوفا عليها من الإهانة كما نهب المستعمر نصيب الأسد من نوادر هذه المخطوطات وضاع الكثير منها بسبب الأمطار والرياح وتعاقب الحرارة، والرطوبة وتعفن الورق والغلاف، وتعرض المخطوط للماء والحرائق والحشرات والأرضة، وآفات الكتب أكثر من ذلك قال الشاعر:

عليك بالحفظ بعد الجمع للكتب

فإن للكتب آفات تمزقها

اللص يسرقها والنار يخرقها

والنار تحرقها والماء يغرقها

ورغم تحسر الشعراء على ما ضاع من هذه المخطوطات الثمينة فلا تزال مكتباتنا تحتضن عشرات الآلاف من المخطوطات لم تتجاوز العناية بها حدود:

الحفظ والجمع والفهرسة:

1- الحفظ والصيانة:

هناك طريقتان لحفظ المخطوطات:

الأولى مادية: وتتعلق بوضع أوراق أو مسحوق التبغ بين أوراق الكتاب وكذلك مسحوق خشب الأرز والكافور والقرنفل وهذا بدوره يحد من ضرر آفات الحشرات ثم تعريض المخطوطات لأشعة الشمس والهواء الطلق مع قدر مناسب من النور يتخلل خزانة المكتبة ونفض الغبار عنها ورعايتها الدايمة.

الثانية الأسباب المعنوية: والمتعلقة بتحصين المخطوط بواسطة اسماء تكتب في بداية المخطوط ونهايته تحفظه من جميع الآفات وهي: كلمة "كيكتج" وقد اطلعت عليها في كثير من المخطوطات الإسلامية وفي مختلف المكتبات العربية، وقد وردت هذه الكلمة بصيغ متعددة، كيكتج وكيبكج وخيبخج.

وهي أيضا من أسباب الفتح لمن كتبها في لوحه قال الناظم:

يكون ذاك سببا في كيكتج كاتبها في لوحه فتحه

ومعنى الكلمة: اسم ملك أو اختصار لبعض أسماء الله الحسنى كل حرب منها يشير إلى اسم، مثل: كلمة "بدوح" التي يكتبها الحرفي على صناعته.

ولقد تم في مجال طرق الصيانة الحديثة ترميم 260 مخطوطا وتصوير 2500 مخطوطا على الميكروفيلم و 250 على الميكروفيش.

2- الجمع:

وقد بدأ اهتمام الدولة الموريتانية بجمع المخطوطات بعد سنوات الجفاف التي غيرت ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد ولم يعد أصحاب المكتبات قادرين على صيانة وحفظ مكتباتهم فانشيء المعهد الموريتاني للبحث العلمي سنة 1974م من أجل حفظ وصيانة ونشر التراث الموريتاني وقد انشيء ضمن أقسام هذا المعهد قسم خاص بالمخطوطات 1975م فتابع في البداية جمع المخطوطات بطرق الشراء والاستنساخ والتصوير فتم جمع ما يزيد على 6.000 الاف مخطوط.

3- الفهارس:

تتواصل عملية فهرسة المخطوطات سواء منها ما تم الحصول عليه في المعهد والذي مازال املاكا خصوصية، فتمت فرسة 3600 مخطوطا من مكتبة قسم المخطوطات نشر الجزء الأول منه هذه السنة 96م.

كما أنجزت فهرسة مكتبة الميكروفيلم باللغتين العربية والألمانية، هذا بالإضافة إلي فهرسة 24 مكتبة خصوصية من مكتبات المدن القديمة سوف تنشر قريبا بالتعاون مع مؤسسة الفرقان الإسلامية.

* محتوى هذه المخطوطات:

تتكون هذه المخطوطات من ثلاثة أقسام:

أ- قسم المصاحف الشريفة: ويحظى بالعناية والرعاية فقد كانت موضع تنافس وإبداع الخطاطين واجتهادهم في جودة الخط وتميزه بالوضوح والمبالغة في زخرفته وتوشيته وتفويفه سواء تعلق الأمر باستخدام انواع الحبر في كتابة المتن أو في وضع أشكال هندسية بديعة على غلاف المصحف الخارجي وتزويقه ونمنمته، ولا يخفى أن أنواع أخبر الأصفر والأخضر والأحمر لاتستخدم في كتابة المصحف لغرض الديكور والزخرفة فقط وإنما استخدمت كذلك في ضبط ورسم المصحف الشريف يقول الناظم:

الهمز إن حقق عنهم جائى

في مصحف بنقطة صفراء

وخضر وانقط لإبتدائى

ونقط حرف تابع الهجاء

وحمر والنقط في التسهيل

ومدلو جملة لتشكيل

وسودوا الكل بلوح وكعين

محقق والغير نقط دون مين

ب- القسم الثاني: مخطوطات قديمة لمؤلفين مشارقة ومغاربة بقيت أصولها في المكتبات الشنقيطية واختفت في أكثر المكتبات الأخرى نذكر

منها على سبيل المثال:

* تصحيح الوجوه والنظائر من كتاب الله العزيز لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ت 395هـ نسخة قديمة كتبت بخط نسخي جميل تقع في 398 صفحة ورق سميك قوي في مجلد واحد ثم نسخه سنة 480هـ.

البداية: الحمد لله ذي النعم الجليله والمنن الجزيله الداعي إلى الرشاد والهادي إلى السداد ذي الفضل الجسيم والاحسان العميم.

النهاية: قد أتينا على الأبواب التي تقدم بها الشرط في أول الكتاب وشرحنا من مضمونها ما احتاج إلى الشرح في غير اكثار ولا اقلال ... وفرغ منه في شهر ربيع الأخير سنة 480هـ حامدا الله تعلى ... وكتبه محمد بن سعيد القيسي مقرا لله بالوحدانية.

الملاحظات: لاتذكر المصادر هذا المخطوط بالاسم "الوجود والنظائر" لكن ياقوت يذكر له كتابا اسمه "المناسي في تفسير القرآن" وكارل ابروكلمان يذكر له كتابا في تفسير القرآن لم يسمه، يمكن الرجوع إلى نسختين منه بمشهد وطهران وقد ذكره بالاسم الوجوه والنظائر ما جد الذهبي ضمن قائمة مؤلفات أبي هلال العسكري التي ضاعت.

نسخة المخطوط الأصلية موجودة في مكتبة أهل حبت بمدينة شنقيط (5) والكتاب ما زال مخطوطا ولم ينشر بعد، وقد عثر الأستاذ الخليل النحوي أخيرا على نسخة ثانية من الوجوه والنظائر في مكتبة خصوصية في طهران وهو الآن يواصل تحقيقه على نسختي شنقيط وطهران.

* **مروج الذهب ومعادن الجوهر:** لأبي الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي ت 346هـ نسخته الأصلية كتبت على رق الغزال وهي ناقصة البداية والنهاية وبخط مغربي جميل ويمكن أن تكون هذه النسخة هي أقدم مخطوطات الكتاب الذي نشر بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ولم يذكر في المقدمة مخطوطاته التي اعتمد عليها في نشر الكتاب (6) ونسخة المخطوط الأصلية عثر عليها سنة 1980 في مدينة وادان التاريخية وهي الآن مودعة بمكتبة قسم المخطاطات.

* **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص:** بخط مؤلفه عبد الرحيم بن احمد العباسي ت 963هـ والذي فرغ من تاليفه سنة 934هـ نسخة المؤلف الأصلية.

البداية: الحمد لله الذي اطلع في سماء البيان أهلة المعاني وأبدع بديع الاعجاز آيات المثاني.

النهاية: وكان الفراغ من تاليفه وتوشيته وتويفه بالقاهرة المعزية عام احدى وتسعمائة ومن زيره وتحريره يوم الأربعاء المبارك الثاني والعشرين من رمضان المعظم قدره وحررته عام اربعة وثلاثين وتسعمائة، وذلك على يد مؤلفه الفقير الحقير المعترف بالعجز والتقصير عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن احمد العباسي. (7).

وقد نشر هذا المخطوط بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد سنة 1947م الطبعة الثانية معتمدا علي نسختين في القاهرة لم يذكرهما بالوصف والتبيين.

* **جامع ابن يونس لمؤلفه محمد بن عبد الله بن يونس الصقلي ت 451هـ (8) اختصار كتاب المدونة ومن أشهر أمهات كتب المذهب المالكي المعتمدة.**

يقول النابغة الغلاوي: في نظم الكتب المعتمدة (بوطليحية):

واعتمدوا الجامع لابن يونس

وكان يدعى مصحفا لكن نسي

وقد نسي هذا الكتاب فعلا لندرة نسخة وقلتها في المكتبات وقد نسي حتى في فهارس المخطوطات فقد أهمله صاحب كشف الظنون ولم يرد له ذكر إلا في كتاب اسماعيل باشا عند ذكره لشروح المدونة قال: "وقد شرحها ابن يونس الافريقي المالكي" (9).

وابن فرحون في الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب عند ترجمة مؤلفه ابن يونس (... والف كتابا في الفرائض وكتابا جامعا للمدون أضاف إليه غيرها من الأمهات وعليه اعتماد طلبة العلم للمذاكرة وأول من أدخله سبتة الشيخ أبو عبد الله محمد بن خطاب فانتسخه منه القاضي ابو عبد الله محمد بن عيسى التميمي (10)، ومع قلة نسخ هذا الكتاب لم يطبع بعد وتوجد في مكتباتنا نسخة جيدة من هذا

المخطوط "الجزء الأول" من جامع ابن يونس "نسخة كاملة قديمة بخط مغربي جميل كتب بالحبر الأسود والأحمر والأخضر وزينت صفحته الأولى بماء الذهب، تقع في 331 ص قياس 30 x 20، خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ. (11).

ج- القسم الثالث: المؤلفات الموريتانية التي ألفها العلماء الموريتانيون وهي كثيرة

أما تاريخ حركة التأليف في موريتانيا وأقدم هذه المؤلفات فالحكم النهائي عليه مازال ينتظر الكشف عن جميع مخطوطاتنا المتفرقة والتي ما زلنا نجهل عنها الكثير، ويكفي دليلا على ذلك أننا لانكاد نجد أثرا مكتوبا ذا بال عن حقبة تاريخية هي أهم حقب البلاد والممتدة من القرن 5 إلى 11 الهجري والتي قامت فيها دولة المرابطين لنشر الإسلام بواسطة

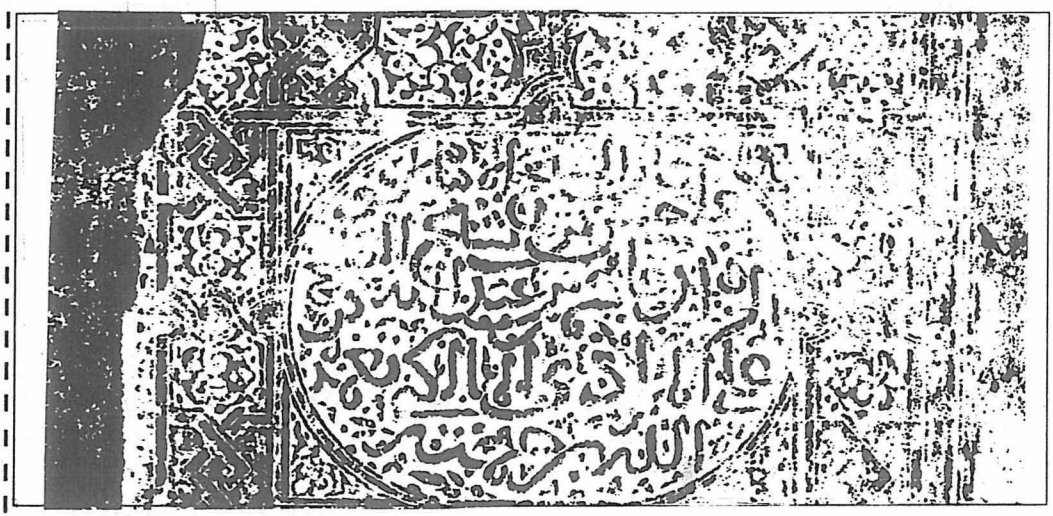

ومتنوعة طرقت مختلف المواضيع التي ألف فيها اخوانهم العرب من علوم شرعية ولغوية وتمات منطقية وبلاغية وطب وتاريخ وحساب وفلك الخ...

وقد اتجه التأليف عندهم الى مستويين:

أ- الشروح والطرر والاختصار فلم يتركوا كتابا اعتمد للتدريس في المحظرة الموريتانية إلا واشبعوه بالشرح والتعليق وأحيانا بالنقد والتجريح.

ب- التأليف المستقل وهو من انتاج الموريتانيين لحما ودما والذي صدر فيه العلماء عن ثقافتهم ومعرفتهم الخاصة، فقد اعتنوا بتفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والفقه وعلوم اللغة والأدب والشعر.

وكتبوا في مواضيع خاصة مثل النوازل الفقهية والطب التقليدي والتراث الشعبي. (12).

*** بداية حركة التأليف:**

الثقافة والتعليم، إلا ما كان من كتاب الإشارة في تدبير الإمارة للإمام محمد بن أبي بكر الحضرمي ت 489هـ.

يقول الأستاذ الخليل النحوي "وإن كتاب الأخلاق (الإشارة في تدبير الإمارة) لابد أن يكون فاتحة التاليف بموريتانيا والمعجزة حقا هي بقاؤه (13).

وهكذا فلا نجد تاليفا بعد الحضرمي إلا في القرن العاشر هو كتاب "موهوب الجليل" شرح مختصر خليل لمحمد بن احمد بن أبي بكر الوداني الذي كان حيا سنة 933هـ (14)، ويلي هذين المؤلفين مؤلفات العلامة الطالب محمد بن بلعمش العلوي ت سنة 1107هـ في القرن الحادي عشر الهجري.

وقد بدأت حركة التأليف تصل إلينا بكثرة من بداية القرن الثاني عشر الهجري الذي تشكلت فيه نهضة علمية رفيعة وصلت إلى قمة نضجها في القرن

الثالث عشر وبداية الرابع عشر.

ونذكر هنا بشيء من التفصيل مؤلفين نعتبر كل واحد منهما نموذجا لحقبة حضارية كبيرة ما زلنا نجهل عنها الكثير هما:

- كتاب الإشارة في تدبير الإمارة
- موهوب الجليل شرح مختصر خليل.

1- كتاب الإشارة في تدبير الإمارة لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي توجد منه في مكتبة الأوقاف نسخة قديمة بخط مغربي جيد تقع في 70 صفحة بقياس 13 x 10 ناقصة الآخر صفحة واحدة. (15)

البداية: قال الفقيه أبوبكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي رضي الله عنه.

الحمد لله علي فضيلة العقول وصلى الله على سيدنا محمد أفضل نبي ورسول وعلى آله وسلم، أما بعد أطال الله بقاءك في عز لايزال الولي يحمده والعدويحسده.

النهاية: والشكر قيد النعم وعصمة من النقم وانت أخو العز ما التحفت بالقناعة.

وقد نشر هذا المخطوط في طبعتين مختلفتين في سنة واحدة في المشرق والأخرى بأقصى المغرب.

فقد نشرت دار الطليعة للطباعة والنشر في بيروت / إبريل سنة 1981م كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة دراسة وتحقيق الدكتور رضوان السيد، الذي اعتمد على نسختين من دار الكتب الوطنية في تونس وليدن (16)، كما نشرت مطبعة النجاح الجديدة/ في الدار البيضاء سنة 1981م كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة تحقيق الدكتور سامي النشار الذي اعتمد في تحقيق الكتاب على ثلاث مخطوطات من تونس والخزانة الملكية (17).

أما مخطوطة دار الكتب التونسية رقم 14.277 فهي النسخة التي اعتمد عليها المحققان في نشر الكتاب.

الملاحظات:

- يرجع السبب في اختلاف عنوان الكتاب إلى أن رضوان اعتمد عنوان مخطوطة دار الكتب الوطنية بتونس المعنونة: "الإشارة في أدب الإمارة" أما مخطوطة ليدن فهي مشرقية مصرية تم نسخها عام 1060هـ وهي المعتمدة عند المحقق (18).

أما العنوان في كتاب سامي النشار فهو عنوان مخطوطة الخزانة الملكية التي اعتمدها "الإشارة في تدبير الإمارة".

- وتوجد فوارق واضحة بين مخطوطة تيشيت مع مخطوطة ليدن التي اعتبرها البعض خطأ مخطوطة تيشيت (19).

2- كتاب موهوب الجيل شرح مختصر خليل لمؤلفه محمد بن أحمد بن أبي بكر الوداني الحاجي الذي ترجم له صاحب فتح الشكور بقوله "الفقيه سيدي محمد بن أحمد بن أبي بكر الوداني الحاجي صاحب المجمع، له شرح على مختصر خليل في مجلدين سماهما موهوب الجليل شرح خليل فسمي بالمجمع، فيه نكت عجيبة ومسائل مفيدة ونقول صحيحة كان حيا عام ثلاثين وتسعمائة رحمه الله (20).

لقد تم الكشف عن نسخة من كتاب "موهوب الجليل شرح مختصر خليل" مجلدين في مكتبات تيشيت أقدمها نسخة مكتبة الأوقاف الجزء الثاني شرح الباب من مختصر خليل وهي نسخة قديمة تم نسخها سنة 1093 قياس 19 x 15 الأوراق الأخيرة منها بها انطماس.

البداية: هذا السفر الثاني من "موهوب الجليل في شرح مختصر خليل" للإمام العالم الأعلم المحقق أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الوداني الشهير بالحاجي رضي الله عنه.

النهاية: عند زكاة الدين: "فإن كمل الإقتضاء بنفسه أو بفائدة أو بمعدل زكاة من يوم يزكى المقبوض... كمل والحمد لله رب العالمين ووافق من فراغه ضحوة يوم الثلاثاء، حادي عشر شوال 1093هـ (21).

النسخة الثانية: من "موهوب الجليل شرح السفر الأول من مختصر خليل" وهي نسخة مكتبة الشريف بوي كاملة القياس 18 x 12 سم

عدد الصفحات 450 بخط مغربي جيد تم نسخها سنة 1183هـ.

البداية: الحمد لله الذي لم يستفتح له وجود .. العليم الذي لم يلده والد فيرثه مولود الكريم الذي لايضارع معبود.

النهاية: قوله وللحاضن قبض نفقة المحتضن وسكناه .. كمل شرح السفر الأول من المجمع بحمد الله تعلى وحسن عونه على يد عبد الله المذنب يحيى بن عمر بن عمر بن اغوجفت البرتلي نسبا والولاتي وطنا المالكي مذهبا عام 1183هـ (22).

الملاحظات:

- هذا المخطوط لم يطبع بعد ولم ينشر
- في أثناء شرح مختصر خليل يستطرد المؤلف أجوبة العلماء في بعض المسائل الفقهية المشهورة.
- كما توجد في الكتاب كثرة التفريعات "فرع"
- وقد أكثر المؤلف العزو لشيخه محمود بن عمر وكتاب اكمال الاكمال للأبي والذخيرة.

هوامش البحث:

1- الدنبجه بن معاوية - المغرب المبسوط في المرسوم والمضبوط/ مخطوط رقم 166 قسم المخطوطات بدار الثقافة.

2- أبي هلال العسكري تصحيح الوجوه والنظاير من كتاب الله العزيز ميكروفيلم رقم 12 قسم المخطوطات.

3- ابروكلمان - تاريخ الأدب العربي ج/2، 254 مطابع دار المعارف 1977م مصر.

4- أبي هلال العسكري - أسماء بقايا الأشياء- تحقيق ماجد الذهبي/ منشورات مركز المخطوطات والوثائق بالكويت 1993م.

5-فهرس مكتبات شنقيط ووادان - قسم المخطوطات

6- المسعودي - مروج الذهب ومعادن الجوهر / نشر دار المعرفة بيروت

7- نسخة المخطوط الأصلية رقم 2664 قسم المخطوطات.

8- ابن فرحون - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب / 274

9- اسماعيل باشا ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون م 4/456.

10- الديباج المذهب/ 274 مصدر سابق.

11- جامع ابن يونس نسخة اصلية رقم 2008 قسم المخطوطات.

12- أحمد بن محمد يحيى / التراث الثقافي في المدن التاريخية مجلة الشعاع للمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية 77م

13- مجلة الفكر التونسي عدد خاص نفمبر سنة 1977م.

14- فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور طبعة دار الغرب الإسلامي/ 1981 صفحة 112.

15- الإشارة في تدبير الإمارة ميكروفيلم رقم 310 قسم المخطوطات

16- راجع كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة دراسة وتحقيق د/رضوان السيد

17- راجع كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة تحقيق د. سامي النشار.

18- الإشارة إلى أدب الإمارة طبعة بيروت 1981 ص: 33 مصدر سابق.

19- راجع الإشارة في تدبير الإمارة (مخطوطة تيشيت) ميكروفيلم رقم 310 مصدر سابق.

20 - فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور/ 112 مصدر سابق.

21- موهوب الجليل شرح مختصر خليل ج 2 ميكروفيلم رقم 307 قسم المخطوطات.

22- موهوب الجليل شرح مختصر خليل ج 1 ميكروفيلم رقم 469 قسم المخطوطات.

دور التعليم الأصلي في تأكيد الذات الموريتانية

ذ/ الشيخ المعلوم ولد محمد سالم

تتفاعل المعطيات الجغرافية والتاريخية والثقافية لكل مجتمع لتخرجه لمجموعة من السمات المشتركة التي تجعله يوصف بنوع من التميز عن غيره من المجتمعات الأخري وهو ماقد يعبر عنه بالخصائص الحضارية أوالمقومات الثقافية للأمم والشعوب. المجتمع الموريتاني ليس استثناء من هذه القاعدة، فله مقومات وسمات تميزه وتدل عليه وتشكل تعريفه ومن أهمها تعليمه الأصلي، **فماذا يعني التعليم الأصلي؟ وماهو دوره في تأكيد الذات الموريانية؟**

مفهوم التعليم الأصلي:

بإمكاننا أن نعرف التعليم الأصلي بأنه ذلك النمط التعليمي الذي ساد المجتمع الموريتاني من عهد المرابطين إلي اليوم، والذي احتضنته بنيات تعليمية عرفت بالمحاظر، بالظاء أوبالضاد، أجرزت تسميتها من المحاضرة والحضور للدرس، أومن الإحتظار والحظيرة التي تحيط بموقع المحظرة. ويرجح العلامة محمد سالم ولد عدود الدلالة الأولي مؤكدا أصحيته بمرجعيات في أمهات الكتب العربية المعروفة، وهو حجة في هذا المقام(1).

وبغض النظر عن المدلول اللغوي للتعبير فإن هذه المؤسسات استطاعت عبر التاريخ أن تزود هذا المجتمع بغزير المعارف الدينية واللغوية وخرجت بذلك علماء أجلاء مثلوا البلاد خير تمثيل، وحملوا صيتها إلي أصقاع العالم الإسلامي، محققين نهضة ثقافية مذهلة كتبت لهذا البلد مجدا أثيلا وعزا تليدا. فعرفوا بخصوصيتهم الموسومة ونبوغهم المتميز. كما تميزت المؤسسة بنهجها التربوي المتميز القائم علي حفظ المتون، ومراعاة الفروق الفردية وحرية الإختيار، وفردية المدرس، وتعدد الدارسين، والتمايز التخصصي، إذ بإمكان الشيخ الواحد أن يدرس القرآن العظيم واللغة العربية والفقه والمنطق والسيرة النبوية الشريفة وأنساب العرب.. الخ.

وماتزال هذه المحاظر تقاوم التحديات بالتكيف مع الظروف المتحولة. ولقد شهد بعضها نوعا من إعادة صياغة الهياكل الشكلية ومتضمنات البرامج التربوية، مشكلة مدارس ومعاهد للتعليم الأصلي. ويتعلق الأمر بمدارس بن عامر ومدارس الفلاح، وهي صيغة جديدة تدخل في مفهوم التعليم الأصلي من حيث موضوعاتها ومراميها: موضوعاتها الشرعية اللغوية ومراميها تخريج علماء قادرين علي الإستمرارية في العطاء، يحملون إلي محيطهم (كما كان أسلافهم يفعلون) نور الإيمان والمعرفة، ويجددون عهد السفارة لبلاد شنقيط العلم والعلماء، ويذكرون بعهود أعلام البلد، من أمثال محمد محمود ولد التلاميذ- أبناء مايابه- محمد يحي الولاتي...إلخ/

وإذا كانت العلوم النظرية شكلت الموضوعات الأساسية للمناهج المحظرية فإن السلوك العملي ودعوة الأشياخ إلي العمل والإنتاج وترويض التلاميذ علي التقشف، إضافة لخبراتهم الشخصية في ميدان العمل، كانت بمثابة نوع من التعليم العملي بغية التكيف مع المحيط الطبيعي لتوفير الإمكانات المادية.

دور التعليم الأصلي في تأكيد الذات الموريتانية:

سنتعرض لمفهوم الذات، ودور التعليم الأصلي في صيانتها، وتأكيدها عبر ثلاث مراحل:

-قبل الإستعمار – إبانه– بعد الإستقلال.

الذات الموريتانية قبل الإستعمار:

تشكلت الذات الموريتانية قبل الإستعمار من مكونات عرقية وثقافية واجتماعية ، انتظمت بناظم عقدي لتعطي معا الذات الموريتانية المعروفة عند الأخرين بالشنقيطية، هذه المكونات تعود في أبعادها العرقية إلي اختلاط عربي – بربري –زنجي– ارتبطت عبر التجارة والتواصل الأخوي بعقيدة الإسلام. وشريعته لتشكل سمات مشتركة تتميز في مجملها بواحدة أوأكثر من السمات التالية: الشجاعة، الكر، العلم ، التآخي في العقيدة.إلخ.

إبان الإستعمار

لقد ظلت البلاد محافظة علي ذاتيتها الثقافية المحددة أعلاه رغم عدم وجود وحدة سياسية مركزية يخضع لها الإقليم بكامله، وماكان ليتم ذلك لولا الفعالية العالية لمؤسسات التعليم الأصلي (المحاظر). وبطبيعته عمد الإستعمار الفرنسي علي التغلغل داخل الكيان المجتمعي، وهز ثوابت لحمته الذاتية، فعزف علي أوتار العرق، العقيدة، الفوارق الإجتماعية، محاولا إدخال ثقافته وعقائده السياسية والدينية أحيانا. ولكن الحصانة في صميم البنية الثقافية لمجتمع (المنارة والرباط) علي حد تعبير الأستاذ الخليل النحوي(2)، حطمت كافة الجهود التى بذلها المستعمرون في هذا المجال؛ بل تجاوزت ذلك إلي انفجار مقاومة ثقافية أخذت مختلف أشكال النضال الفكري ابتداء من فتاوي العلماء وشعر الشعراء ورفض التعامل، تكفي لإبعاد المجتمع عن التعامل معهم، وقد شكلت هذه المقاومة دعما قويا للمقاومة المسلحة التي خاضها رجال الجهاد الوطني(3). كما وصل الرفض الجمعي لثقافة المستعمر أوجه في المنظور القيمي لثقافة المجتمع، إذ اضطر بعض ذوي المكانات العليا في المجتمع اللذين أجبرهم المستعمر علي إدخال أبنائهم في مدارسه، وهذا يعني أن التعامل الثقافي مع المستعمر أمر غير مرغوب ومرفوض. وما ذلك إلا للحفاظ علي هوية وذاتية المجتمع المسلم العربي الإفريقي الذي لم يقبل المساس من كيانه. ولم يقبل بآليات التغلغل الإستعماري حتي رحل الإستعمار دون أن يؤثر تأثيرا تأثيرا يذكر علي هذه الشخصية، فقد ظل خلال فترته عبارة عن وحدات عسكرية وإدارات تمارس السلطة علي المجتمع من خارجه، وظل التفاهم بواسطة مترجمين يستجلب معظهم من الخارج. وإن كان قد تمكن في فترة من فتراته أن يكون مترجمين محليين. إلا أن معظمهم ظل يتشبث بقيمه ومجتمعه أكثر من تعلقه بالمستعمر. وللفرنسيين في هذا المقام شهادات تؤكد أنه لم يطب له المقام مع ثقافة الرفض، هذه التي عشعشت في الكيان الوطني لموريتانيا.

بعد الإستقلال:

استلم الشعب الموريتاني سيادته في 28 نوفمبر 1960 في إطار تنازل المستعمر الغربي عن مستعمراته المباشرة، ولكنه ظل يحتفظ بأساليبه غير المباشرة مركزا علي علاقات التعاون الثقافي والفني والإقتصادي مع الدين سلمهم إدارات بلدانهم. ولكن الموريتانيين واجهوا صعوبات حقيقية تمثلت في ندرة الكوادر المسيرة فكان عليها أن تبذل جهدا علي الصعيدين، فعلي المستوي الأول شهدت المدارس الرسمية إقبالا كبيرا، خاصة أنها لم تعد مدارس «النصاي»، ومع ذلك فإن بعض المواطنين ظل ينظر إليها بارتياب. أما علي المستوي الثاني هناك عوائق تتعلق بفرنسة الدولة لعب الأدوار علي الوجه الأكمل، مع تطوي البلاد وماشاهدته من تغيرات اجتماعية واقتصادية وثقافية ازداد دور خريجي محاظر التعليم الأصلي مشكلين مقاومة جديدة في وجه الإستلاب والتبعية الثقافية مجسدين بذلك حركة مطالبة بالاستقلال الثقافي والسير قدما علي طريق انسجام السلوكيات الرسمية مع الثوابت الوطنية، ومع

بداية انسجام السلوكيات الرسمية مع الثوابت الوطنية، ومع بداية السبعينيات شهدت المدن الوطنية خاصة نواكشوط، هجرة كبيرة من الريف، أدت بها إلي الإكتظاظ مما دفع المهاجرين الي الإقبال علي المراكز الثقافية العربية في نواكشوط لتطوير معارفهم وإثرائها بمفاهيم العلوم الطبيعية والرياضيات ليصبحوا أكثر جدارة لأداء المهمات الحكومية. وفي هذه الظروف رأت الإدارة أن بإمكان هؤلاء أن يلعبوا هذه الأدوار ليشكلوا بذلك رافدا لدعم الدولة بعدد كبير من القضاة والمدرسين والإعلاميين والاداريين. إلخ.

وهكذا استمرت هذه الادوار التي لعبها التعليم الأصلي في تحديد الهوية والذات الوطنية تتقدم شيئا فشيئا من بداية التأسيس ماقبل الإستعمار والمحافظة والدفاع إبانه، والنضال والتطوير فيما بعده إلي أن وصلنا إلي مرحلة النقاء التأسيسي مع الإدارة الرسمية التي عبرت عنها الإرادة السياسية للبلد أيام تولي فخامة الرئيس معاوية ولد سيدي أحمد الطايع لقيادة البلاد، لقد شكل الحفاظ على الذاتية الوطنية ومقوماتها الثقافية اهتماما رئيسا من اهتمامات هذا الرئيس حيث عبر فى أكثر من مرة عن الدور المتميز للمحاظر والعلماء فى تحديد الشخصية الوطنية، فأنشئت كتابة دولة مكلفة بمحاربة الجهل وتطوير التعليم الأصلي، عهد إليها بتنظيم المحاضر وتطوير معارف شيوخها حتى تستجيب لمتطلبات التنمية الوطنية وتكمل أدوا التعليم العام في هذا المجال، كما أنشئ فى نفس السياق معهد للتكوين المهني خاص بخريجى هذه المحاضر، ليعطي بذلك نموذجا للشخصية الحضارية التى تجمع فى الآن نفسه بين العلوم الشرعية والعلوم التقنية. كما نظمت ندوات عديدة للتكوين حول تكييف المحاضر مع الواقع المتجدد.

وقد شكلت دسترة الثوابت الوطنية التعبير الأسمى لإدارة الأمة فى التشبث بذاتيتها الوطنية «كشعب عربي مسلم أفريقي يسعى إلى تحقيق وحدة المغرب العربي الكبير والأمة العربية وافريقيا» «والإسلام دين الشعب والدولة» و«اللغات الوطنية هي العربية البولارية السوننكية الولفية. اللغة الرسمية هي العربية»(5).

الهوامش:

1 -العلامة حمدا ولد التاه: محاضرة مقدمة في الندوة الوطنية لترقية المحاظر والتعليم الأصلي بعنوان: إدخال مواد جديدة إلي المحظرة ضرورة دينية واجتماعية، يونيو 1995

2 -الأستاذ محمد المختار ولد امبالّ: الدور التايخي للمحاظر فى تكوين الشخصية الوطنية / يونيو 1995 .

3 -الأستاذ الخليل النحوي / المنارة والرباط / ط 87

4 -الأستاذ محمد المختار ولد المصطفى / ضرورة إدخال مواد جديدة في تعليمنا الأصلي، يونيو 1995

5 -دستور 20 يوليو 91 للجمهورية الإسلامية الموريتانية.

* أبطال المقاومة: الشيخ ماء العينين / بكار ولد اسويد احمد / سيد أحمد ولد أحمد عيده / سيدي ولد مولاي الزين/ أحمد ولد الديد / ولد عبدوك... إلخ

ردا على مقال:

الطب التقليدي ماله وما عليه

تعقيبا على مقال (الطب التقليدي ماله وما عليه) للدكتور عبد الله بن محمد ناجم، هذا المقال الذي صدر في مجلة الموكب الثقافي الوطنية بتاريخ نهاية شهر دجمبر 1996 حسب ما هو مثبت في المجلة المذكورة.

إنني سأرد على المقال المذكور لأمرين: أحدهما أن المقال موجه للمهنة الوحيدة التي أمتهنها في ما مضى من عمري، وثاني الأمرين هو أنني شاركت على كل المستويات في معرض الصيدلة الوطنية الأول الذي ألقى المقال المذكور ضمن الطاولة المستديرة التي نظمت على هامشه. فأنا مثلا تقدمت في الطاولة المذكورة بمقال بعنوان (أشياء موريتانية تشفي من بعض الأمراض الجلدية) وقد تكلمت في المقال الذي قدمته على أكثر من عشرين من الأشياء الطبية المحلية، كما تكلمت أيضا عن أكثر من ثلاثين مرضا من الأمراض الجلدية، كما شاركت أيضا في الملصقات التي غطيت بها جدران المعرض بصور ملونة للعديد من الأمراض التي أظهرتها الصور وهي في مراحلها المختلفة أي مرحلة شدة المرض والمرحلة التي يكون فيها قد تماثل للشفاء ومرحلة اكتمال برئه، ومن بين تلك الأمراض الأكزيما التي كانت تعرف بالآكلة في الطب التقليدي والسمفة والصدفية والصلع البقعي والقوباء إلخ ... هذا عن مشاركتي في معرض الصيدلة المذكور والطاولة المستديرة التي نظمت حوله. ثم إنه لايسعني إلا أن أشكر السيد الدكتور كاتب المقال على نشره للمقال الذي يعبر فقط عن النظرة التي ينظر بها بعض الأطباء العصريين إلى الطب التقليدي، وهذا لابد أنه سوف يكون مفيدا لأنه يعطينا فرصة لمقلنة طبنا مع ما يروق لأذواق الأطباء اليوم ما وسعنا ذلك. كما أنني أشكر المجلة أيضا على نشرها للمقال المذكور الذي نفترض أنها لاتهدف من ورائه إلا إلى بعث الروح فيما أصيب بالخمول من جوانب ثقافتنا المحلية.

إن مقال الطب التقليدي هو مقال جيد إلى حد ما، لكن ألاحظ عليه من حيث المبدأ ملاحظتين هما:

الملاحظة الأولى: حول مدى دراسة صاحب المقال للطب التقليدي. والملاحظة الثانية: حول ما ختم به المقال من أنه "لايرى مسوغا لتعاطي الطب التقليدي في شكله الحالي كأسلوب للتداوي". كما نلاحظ أن صاحب المقال استخدم فيه أحد ألفاظ العموم وهي (ما) فقال: "الطب التقليدي ما له وما عليه" وهذا يعني بالضرورة أن كاتب المقال قد عرف الطب التقليدي معرفة تامة أو شبه تامة لأن معرفة جميع إيجابيات وسلبيات الطب التقليدي وهو ما يعنيه بقوله: "ما له وما عليه" لايمكن أن يتوصل إليها بصفة موضوعية إلا المتبحر في معرفة هذا الطب وهذا ما لم يتصف به كاتب المقال بالأدلة القطعية الموجودة في المقال المذكور، ويكفينا للدلالة على هذا أن نأخذ المثالين التاليين من نفس المقال وهما:

أولا: أن صاحب المقال قد قال إنه: حسب الطبيب التقليدي فإنه إذا تم تصنيف مرض ما على أنه (مرض أبرود) مثلا فإن المعالجة المقترحة لهذا الداء تكون هي نفسها المعالجة المقترحة لمئات من الأمراض الأخرى". وأنا أقول إنه لايوجد في الطب التقليدي تعليل للأمراض بالطبائع أي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، إلا في حالات قليلة كالضربة الشمسية والجمود كما سيأتي. وإنما تعلل الأمراض في الغالب بما يسمى بالأخلاط التي هي ما يعرف في الطب الحديث بالهرمونات. يقول أو في في كلامه على الأسباب العامة للأمراض:

واعلم بأن أكثر الأمراض من

فساد الأخلاط فعلمها فمن

فهو إذن قال إن أكثر الأمراض من الأخلاط ولم يقل إن أكثرها من الطبائع، وما دام كاتب المقال قد وضع مصطلح "الطبائع" التي هي حالات مناخية توجد خارج جسم الإنسان مكان الأخلاط التي هي سوائل تدخل في تركيب جسم الإنسان فإن معنى ذلك أنه، أي صاحب المقال، ما زالت دراسته للطب التقليدي دون

المستوى الذي يخوله أن يحيط بإيجابياته وسلبياته. والمثال الثاني الذي نأخذه من المقال المذكور للدلالة على أن كاتبه لم يتبحر بعد في الطب التقليدي هو أنه قال: "إن الأطباء التقليديين إذا وجدوا أعراض الحصباء: (بوحيمرون) أي السعال والرشح والتهاب الملتحمة والحمى، فإنهم يعللون هذه الأعراض بأنها (ابرود) ولذا فإنهم وحسب تصنيف الطبائع يعالجون صاحب هذه الحالة بالتدفئة الشديدة والتغطية سد منافذ الرياح في الغرفة" وهذا ما يختلف تمام الإختلاف مع ما هو مثبت في الكتب التقليدية المعتمدة المحلية وغير المحلية، ولنأخذ ما قاله أوفى في الباب السادس من كتابه (عمدة الطبيب) التي هي منظومة تزيد على ألف ومائتي بيت وذلك حيث قال:

والحب الأحمر بحر جائى
مهيج للدم والصفراء
حماه والخراج والسعال
تؤذي ولكن فوقها الإسهال
علاجه ببارد الغذاء
مع قلة وبارد الهواء

فأين قول أوفى:

علاجه ببارد الغذاء
مع قلة وبارد الهواء

من المبالغة في التدفئة وسد منافذ الرياح في الغرفة؟ هذا إذن عن الملاحظة الأولى، وأما الملاحظة الثانية التي هي حول ما خلص إليه الكاتب من أنه لايرى مسوغا لتعاطي الطب التقليدي في شكله الحالي كأسلوب للتداوي، فإني أقول عنها إن المقال باحتوائه على هذه الفقرة قد خلا تماما من أي نوع من الإنصاف الذي كان من المفروض أن يكون متبادلا بين مختلف طبقات الأطباء، وذلك لأنه من الصعب جدا إثبات خلو المنهجية التقليدية للعلاج من كل أنواع الإيجابيات، خصوصا وأنه توجد منظومة تزيد على ألف ومائتي بيت كما تقدم، وقد جمع فيها أوفى جميع العلوم الطبية التقليدية كالصيدلة وتشخيص الأمراض والجراحة الخ... وإذا كان من الصعب أن نأتي بما تضمنته العمدة من المعلومات الطبية التي أثبت الطب الحديث صحتها، فإنه بإمكاننا على الأقل أن نأتي بأمثلة من الأقوال التي قالها أوفى في كتابه العمدة وأثبت الطب الحديث صحتها، فمثلا نأخذ "الونكل" الذي يعتبر أوفى هو مكتشف خصائصه الأول حيث اكتشف جل خصائصه العلاجية التي منها:

أولا أنه ينفع من الصفار الذي هو أهم مميزات الأنيميا الخبيثة، وبما أن العلم الحديث أثبت أن "الونكل" غني بالحديد بنسبة 48 في المائة فإنه يكون أفضل علاج للأنيميا الخبيثة التي هي من أشد أنواع نقص الحديد تأثيرا على صحة الإنسان. وإذا كان بعض الأطباء العصريين يعتقد بأن أوفى يعني بقوله: إن "الونكل" ينفع من الصفار الذي يظهر في العينين فإن هذا الإعتقاد بعيد كل البعد من الحقيقة لأن صفرة العينين تدل على مرض آخر هو اليرقان وله علامة أخرى تظهر في البول وفيه يقول أوفى:

واليرقان بعضه صفراوي
والبعض منه هكذا سوداوي
بصفرة المقل والأبوال
يعرف الأول مع الهزال

ولذا فإن "الصفار" الذي يعنيه أوفى هو صفرة البدن بكامله بما فيه الأظافر. وهذا الصفار هو أهم الأعراض التي تميز الأنيميا بصفة عامة والأنيميا الخبيثة بصفة خاصة كما تقدم، انظر الموسوعة الطبية الحديثة تحت عنوان (أنيميا)، كما ذكر أوفى فائدتان أخريان "للونكل" هما أنه يحسن اللون وينفع في هضم اللبن أي يقلل من إمكانية انعقاده في المعدة هذا الانعقاد الذي يسمى محليا (بالذانون)، أما تحسين الونكل للون البشرة فإنه معقول جدا من الناحية العلمية لأن "الونكل" غني بالحديد الذي هو أهم مكونات الهيموغلوبين ولذا فإنه من المعقول أن يزداد صفاء البشرة كلما ازداد الدم غنى بالحديد لأن الحديد هو أهم مكونات الهيموغلوبين والجلد هو بمثابة المرآة التي تعكس حالة تركيب الدم.

وأما كون الونكل يقلل من احتمال انعقاد اللبن في المعدة فإنه معقول جدا كذلك من الناحية العلمية لأن اللبن رغم كونه من أغنى الأغذية بالعناصر الغذائية حيث يقدر غناه ب 85 في المائة إلا أنه فقير فيما يخص الحديد، ولذا فإنه إذا أضيف إليه "الونكل" الذي هو من أغنى المواد الطبيعية بالحديد فإن ذلك يجعل غناه بالعناصر الغذائية قريبا من أن يكون مائة في المائة وهذا مما قد يساعد في تقوية المعدة على هضمه هضما سليما. وهكذا يكون أوفى قد اكتشف الخصائص العلاجية الهامة للونكل. وكان أوفى قد تكلم أولا عن عرق الحديد ثم قال إن منافعه كلها موجودة

في "الونكل" وينفرد "الونكل" ببعض الخصائص الأخرى وذلك حيث قال:

وانسب جميع نفعه للونكل
وعند بعضنا اعتداله جل
يحسن اللون وينفع البدن
من الصفار وهو هاضم اللبن

كما أن أوفى قد تكلم أيضا على بعض الخصائص العلاجية للصمغ العربي الذي يعرف عندنا بالعلك حيث قال: "إن العلك ينفع في أضرار الحبوب هذه الأضرار التي هي ازدياد مفرط في بعض الأحماض أو ما يسمى عندنا بالمحور". وهذا صحيح من الناحية العلمية لأن الصمغ العربي مادة قلوية من شأنها أن تقوم بمعادلة الأزدياد المفرط في الحامض المعدي الذي قد ينشأ عن الاقتصار في التغذية على الحبوب وذلك حيث قال:

والعلك يوصف بالاعتدال
والنفخ للصفراء ذو إسهال
يطرد ريحها ويدفع ضرر
كل الحبوب ومع اللحم غرر

وهذه الإكتشافات تكفي لأن تجعل الطب التقليدي الموريتاني ليس خاليا من بعض الإيجابيات إن لن نقل إنه مليء بها في سابق الزمن. كما أن وجود أدوية تستعمل اليوم على نطاق واسع في نواكشوط منذ أكثر من عشرين سنة كأشربة الصمغ العربي و"الونكل" وهي من الأشربة التي تحضر في عيادتنا هذه، وهي أي الأدوية ذات فوائد علاجية مؤكدة، يجعل من طبنا التقليدي الحالي طبا ليس خاليا هو الآخر من أن تكون له بعض الإيجابيات. وكما هو معلوم لدى الكثيرين من أطر وزارتي الصحة والصناعة فإنني قد قمت بتوزيع إعلان على العديد من الوزارات ويتضمن الإعلان المذكور أنني قد تمكنت من تحضير عشرين دواء من الأدوية التقليدية المحلية التي هي في شكل أشربة أو دهانات أو طلاءات وأنني تمكنت بهذه الأدوية من القضاء على العديد من الأمراض التي تعتبر الأمراض الجلدية أكثرها. وقد حصلت بالفعل على بعض الردود الإيجابية من طرف بعض الهيآت المختصة وذلك منذ أكثر من عشر سنوات وبالتحديد في سنة 1986م.

هذا إضافة إلى أنه توجد مدارس أخرى للطب يتعاطى أهلها الطب التقليدي منذ حقب طويلة ولا بد أن لأهلها قديما وحديثا بعض النجاحات التي قد لاتكون أقل أهمية مما سبق ذكره من نجاحات أهل المدرسة الأوفائية، تلك المدارس هي ما كأهل أباه وأهل آچه وأهل احمذيه وأهل المقاري والترتيب هنا ليس للفضلية وإنما للأبجدية، هذا وإني بعد الملاحظتين السابقتين سوف أبدأ الآن في الرد على عشرة محاور من المقال المذكور مرتبة حسب تتابعها فيه غالبا وهي:

المحور الأول: هو قول كاتب المقال "ولم تعرف الممارسة في شكلها الحديث طريقها إلى مجتمعنا إلا في العقود القليلة الماضية" ولعل الحداثة عندنا بهذا الشكل من الممارسة، إضافة إلى ارتباط وروده إلينا بالاستعمار يفسر على الأقل جزئيا العقبات العديدة التي واجهت ولا تزال، محاولة تعميم هذا النوع من الممارسة في مجتمع يجد نفسه غريبا تماما في تعامله مع هذا الشكل من الطب، سواء تعلق الأمر بالأسلوب أو الوسائل أو بالشكل. وهكذا يمكن الافتراض أن الغرابة في أسلوب ووسائل الطب الحديث. إضافة إلى عوامل أخرى تفسر من ناحية العديد من إخفاقات الطب الحديث، كما قد تفسر من ناحية أخرى نجاحات الممارسة التقليدية إلخ.. إن هذا المحور هو أحد المحاور التي تدل دلالة واضحة على أنه هناك بعض النجاحات التي حققها الأطباء التقليديون على أرضية الواقع، هذه النجاحات التي قلما يقر الأطباء العصريون بوجودها، ثم إن الإفتراض الذي ذكره كاتب المقال في تفسير سبب هذه النجاحات وتلك الإخفاقات هو افتراض أو لنقل إحتمال، وهو يشكل جزءا من الحقيقة ولكن افتراضا آخر ربما يكون أقوى من الأول هو السبب القوي للإخفاقات والنجاحات الآنفة الذكر، وهو بقاء الممارسة التقليدية على المنهجية القديمة للعلاج، واتخاذ الممارسين العصريين لمنهجية حديثة قد لاتكون صالحة كلها لمزاولة العلاج بصفة مطابقة لخصوصيات جسم الإنسان، فمثلا الأطباء التقليديون يحرصون كل الحرص على أن يجعلوا أدوية المريض من أعشاب إقليمه أو دولته على الأقل، وذلك بناء على توصية لأبقراط وافقه عليها جميع أطباء الحضارة الإسلامية كما للأنطاكي في تذكرته، تقول هذه التوصية (عالجوا كل مريض بعقاقير أرضه فإنه أجلب لصحته) بينما يحاول الأطباء العصريون أن يعالجوا جميع الأمراض بالأدوية المستوردة من مختلف الدول بل والقارات أيضا رغم احتياج الدول السائرة في طريق النمو للإنتفاع بأشيائها المحلية بدل الأشياء المستوردة التي قد لاتكون أكثر جودة من الأشياء المحلية، ومثال آخر هو أن الأطباء التقليديين يكثرون من إشراك الأغذية والمسهلات في علاجاتهم كأمر أهل

القوباء والأمراض الجلدية الأخرى التي تنجم عن النقص الكبير في البروتينات ونضوب إفرازات الغدد الزهمية في الجلد كلبن البقر ولحم الضأن من الأغذية الغنية بالشحوم والبروتينات، بينما يقتصر الأطباء العصريون في كثير من الحالات على إعطاء بعض الأدوية التي تجعل على موضع المرض وترك المريض يأخذ ما شاء من الأغذية حتى ولو كانت الأغذية التي يستعملها خالية من الشحوم والبروتينات، بحجة أن المرض فطري أو بكتيري وأن الأدوية التي أعطوها مضادة له وكفى. وكذلك فإن الأطباء التقليديين يأمرون أهل الأمراض التي يستغرض علاجها مدة طويلة بأن يواظبوا على شرب المسهلات كل أسبوع لغرض تنظيف القناة الهضمية وخصوصا الأمعاء الدقيقة وجعلها أكثر قابلية لإمتصاص خلاصة الأغذية والأدوية وفي ذلك يقول أوفى:

وعاود المسهل كل أربعا

لمزمن إن لم يكن ممتنعا

أي إن لم يكن إعطاء المسهل ممنوعا بما كقرحة المعدة التي تنزف التي مثلا، وعلى العكس من هذا لايولي الأطباء العصريون اهتماما للمسهلات بل قد يحذرون منها المرضى بحجة أنها نوع من الإسهالات المرضية الذي يلزم الإبتعاد عن مسبباتها، إلى غير ذلك من التناقض الواضح في مكونات المنتهجتي التقليدية والحديثة للعلاج، هذا التناقض الذي كان من المفروض أن لايكون بشكله الحالي لأن كلا من التقليديين والعصريين يهدفون إلى أمر واحد هو حفظ الصحة، إما في حال وجودها بالإجراءات الوقائية، أو باسترجاعها بعد زوالها بالعلاج، ولعل أقوى دليل على أن الحق قد يكون مع الأطباء التقليديين أكثر من غيرهم هو ما نتلقاه اليوم في جميع وسائل الإعلام المحلية والعالمية من تفضيل الرضاعة الطبيعية على الرضاعة بالألبان الإصطناعية، لأن الأطباء التقليديين لايستخدمون في العلاجات إلا الأشياء الطبيعية بينما لا يستخدم الآخرون في الغالب إلا الأدوية المصنعة.

المحور الثاني: هو قول كاتب المقال: "إعتمد الممارس التقليدي في تعامله مع الأمراض على التجارب سواء أكان ذلك في علاجها أو في التعرف عليها "إلى أن يقول" وهكذا فإن الممارس التقليدي باحتكاكه مع الأمراض وشح وسائل التشخيص والمعالجة يكتشف ويطور عددا كبيرا من المواد الدوائية الخام، وكما مماثلا من التجارب العلاجية التي تستحق الإهتمام اليوم في إطار من البحث العلمي الجاد إذا توفرت الإمكانيات المادية الضرورية لذلك" إن الرد على هذه الفقرة من المقال هو أنني لم أفهم ما يعنيه كاتب المقال إلا إذا كان يعني بها أن الممارس التقليدي لم تكن عنده مراجع يدرس فيها الط، وإنما كان يمارس التجارب علي الأدوية التي يستخدمها في العلاج، كما يقوم أيضا بإلقاء التجارب بعلاجاته علي المرضى، وبناء على هذا الطرح فإنه أراد أن ينفي وجود طب تقليدي يدرس.

وهذا هو عكس الواقع في نفس الأمر وخصوصا بالنسبة للممارسين التقليديين من أصحاب المدرسة الأوفائية التي أنتمي إليها وذلك منذ أكثر من مائة سنة، (مؤسس هذه المدرسة هو أوفى بن أبي بكر المتوفى سنة 1300هـ) وقد ألف كتابا جمع فيه جل علوم الطب المعروفة آنذاك وهو كتاب "عمدة الطبيب" كما تقدم وهذا الكتاب من ستة أبواب، وقد بدأه بكلامه على علم الطبيعة أي طبيعة الإنسان والزمان والمكان وذلك بقوله بعد المقدمة طبعا:

وأول الأبواب في الطبيعة

وما بها من حكمة بديعة

ولنا عودة إلى هذا العلم في محور لاحق بحول الله، ثم ثنى بعلمي الأغذية والأدوية فقال فيهما:

وثاني الأبواب طبيعة الغذا

وطبع الأدوية فيه تلوذا

وهكذا فقد تكلم في هذا الباب عن الحبوب كالقمح والذرة والأرز والشعير كما تكلم عن لحوم الحيوانات كالضأن والمعز والإبل والبقر وتكلم عن السمك ولحم الطير وعلى عدد من أنواع الفواكه كالتمر والتين والزيتون والسفرجل والعنب ... هذا وقد تكلم أيضا عن الألبان الطازجة والمجففة ... كما تكلم في هذا الباب عن الكثير من أحكام علم صناعة الأدوية وتكلم كذلك عن بعض الأدوية التقليدية كالسدنا والصمغ العربي والونكل إلخ ... وقد بدأ كلامه عن الأدوية بقوله:

فصل والدواء وصف يعهد

ونفعه بدونه لايوجد

وهو الذي يضيف أهل المعرفه

به له وصف الصلاح فاعرفه

وما من الدواء فيه ضرر

ففعله بدون وزن خطر إلخ

والباب الثالث من العمدة خصصه للأمور الضرورية لحفظ الصحة حيث بدأه بقوله:

وثالث الأبواب في الضروري

لكل الأبدان من الأمور

منه الهواء خيره ما اعتدلا

ومن نداوة وتكدير خلا

إلى أن يقول:

ومنه الأكل خيره دون الشبع

لجاذع في صالح له وقع

إلى أن يقول في الرياضة:

وأفضل الحركة المعتدلة

وبعد هضم فالرياضة اعقله

تسخن الجسم وتنفي ما بقي

من فضلة الغذا وفوقها اتقي

كما خصص أوفى الباب الرابع من العمدة لعلم تشخيص الأمراض وبدأه بقوله:

ورابع الأبواب في الأمراض

محملة الأسباب والأعراض

مجملة الأجناس والمزاج

والوقت والأعضاء والعلاج

إلى أن يقول:

واعلم بأن صفة العليل

تعرف بالعرض والدليل

كالفعل والخارج والأحوال

والألم الموصوف بالأقوال

وعلمها علامة العرفان

وجهلها من موجب الضمان

وهنا أنبه إلى أن أوفى قال صراحة إن الطبيب قد يضمن المرضي إذا قام بعلاجات خطيرة لاتخول له دراسته للطب أن يعمل بها. والباب الخامس خصصه للأمراض التي تخص بعض أعضاء البدن عن البعض الآخر كالصلع البقعي الذي كان يعرف بداء الثعلب في الرأس والرمد في العينين والسل وذات الجنب في الصدر والملح في الركبة والديزنتاريا وبعض الإسهالات الأخرى من أمراض الجوف وبدأ هذا الباب بقوله:

وخامس الأبواب ذكر ما انفرد

مرتب الأعضا به بعض الجسد

مما يصيب الرأس داء الثعلب

تمرط الشعر كأثر اللهب

كما خصص أوفى الباب السادس والأخير من العمدة للأمراض التي تعم على البدن كالحمى، أو التي تنتقل من عضو لآخر كالدماميل والجمرة الخبيثة التي تعرف عندهم بالسلعة، وانفصام الشخصية، والخبال الذين كانا يعرفان بالماخوليا. كما تكلم أيضا في هذا الباب عن البرص والبهق والجذام والسكتة الدماغية والفالج والقوباء وتكلم أيضا عن جل أحكام الجراحة في هذا الباب حيث تكلم عن الجروح فقال:

والجرح تفريق اتصال ذو مرض

للسبب الخارج للجسم عرض

داوه بكل شيء يدمل

وخط من الأعصاب ما ينفصل

يتبع في العدد القادم

للمجلس التنفيذي للإسيسيكو17الدورة

مريم بنت بكر
أستاذة
اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم

نشأت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة وهي منبثقة عن منظمة1982(إيسيسكو) سنة وقد دأبت منذ نشأتها حتي اليوم،المؤتمر الإسلامي علي حماية الشخصية الإسلامية داخل البلدان السلامية وخاجه، وكان لذلك أث واضح من خلال الأعمال والمنجزار التي غطت رقعة العالم. وقد بين المدير العام للمنظمة د. عبد العزيز بن عثمان التويجري ذلك في كلمة له أمام الدورة 17 للمجلس التنفيذي حيث قال «المنظمة سارت في الطريق الذي رسمته لها الدول الاسلامية التي أسستها لتكون الجهاز الاسلامي المتخصص فى ميادين التربية والعلوم والثقافة، وهي اليوم أقوي ماتكون تصميما علي تحقيق الأهداف المرسومة لها وأكثر استعدادا لخدمة العالم الإسلامي .فى مجالات اختصاصها»

ويتكون الجهاز الاداري للمنظمة من المؤتمرالعام - .المجلس التنفيذي -الادارة العامة

وللتذكير فإن المجلس التنفيذي للمنظمة قد انعقد 1 - 6 فى الفترة مابين 17بالرباط فى دورته وقد شاركت فيه بلادنا بوفد يترأسه1996ديسنبر .الأمين العام للجنة الوطنية للتبية والثقافة والعلوم

والمجلس التنفيذي يعقد كل سنة، ويتم خلالة استعراض نشاط المنظمة خلال الفترة التى تفصل بين الدورة الماضية والدورة الحالية، فهو يقيم عمل المنظمة .خلال السنة المنقضية

وفي الدورة السابعة عشرة هذه تم استعراض من طف مديرها1996نشاط المنظمة خلال سنة .العام

وقد تميز هذا المجهود بتوسيع النشاط الدولي للمنظمة حيث تم التوقيع علي العديد من اتفاقيات وابروتوكولات التعاون بينها وين المنظمات الولية والاقليمة، وبذلت المنظمة خلال هذه السنة مجهودا واسعا من أجل تحديد مجالات العمل وتجويد أساليبه .وطرق الأداء والتنفيذ

وقد بلغ مجموع الأنشطة التي قامت بها المنظمة نشاطا موزعة312 حوالي 1996خلال سنة نشاطا تربويا، 87كالتالي علي مديريات المنظم: 14 نشاطا ثقافياو 124 نشاطا علميا و70و أنشطة لدعم4نشاطا في مجال التوثيق والمعلومات و أنشطة لدعم قضية3القدس الشريفو و . نشاطات لدعم اللجان الوطنية3البوسنة والهرسك، و 90 بالمائةالي80وقد بلغ معدل التنفيذ من بين وهذه الأنشطة المتعددة المجالات تنصب كلها في.بالمائة .التنمية التربوية والعلمية والثقافية للعالم الاسلامي

حلقة دراسية وندوة26هذا بالاضافة إلي عقد منحة179تربوية وعلمية وثقافية، وخصصت دراسية للطلبة من مختلف أنحاء العالم، وقدم الدعم ندوة15المالي للجامعات والمؤسسات العلمية لتنظيم عالما متخصصا في العلوم 30وملتقي، ودعمت دوة تدريبية وورشة عمل32التطبيقية، وأصدرت مؤسسة تربوية وثقافية42تنوعت مجالاتها، ودعمت .داخل الدول الأعضاء

وقد اعتمد المجلس التنفيذي وأشاد بالجهود الكبيرة التي بذلتها الإدارة العامة للمنظمة من أجل وكذلك اعتمد.تنفيذ الأنشطة للسنوات الثلاثة المقبلة 2000و1998المجلس خطة العمل الثلاثية

صدور عدد خاص من مجلة الاداب اللبنانية عن الادب الموريتاني

بصدور عدد مارس ابريل 1997 من مجلة الآداب البيروتية نضيف مكسبا غير يسير للمسيرة الثقافية.

فبعد تحقيق وتوثيق المدونة الثقافية الشعبية يدخل أدبنا الفصيح هذه المرة بدوره مرحلة جديدة تضعه على الطريق الصحيح لاستكمال الإنتشار والذيوع من خلال "الملف" الذي ينشر لأول مرة في هذه الدورية الأدبية المتخصصة تحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية السيد معاوية ولد سيد أحمد الطايع وبإشراف مباشر من مستشاره الثقافي الدكتور/ موسى ولد أبنو.

ويتضمن "الملف" إبداعات شعرية وقصصية ومقالات في نقد الشعر والرواية.

فهل يغدو هذا العدد من مجلة الآداب «وسيطا» يمنح الأدب الموريتاني المعاصر شروط التغلغل في أفقه العربي؟

ان مما يزكو به هذا الملف بدءا أن يكون الشاهد الدامغ لمن يعوزه الشاهد وينقصه الدليل على الخطوات التي قطعها الأدب العربي المعاصر في هذه الربوع والمكانة التي كانت ولا تزال تتبوؤها بلاد المليون شاعر في ساحة الإبداع العربي.

والملاحظة الأولى الجديرة بالتسجيل هنا أن الملف لم يستكمل بطبيعة الحال النخبة المبدعة؛ بل إن النصوص المنشورة قد لاتكون الأجود من حيث التجربة الإبداعية المحلية، وكتاب هذه النصوص قد لايكونون أجدر من غيرهم ممن لم يحظوا بالنشر ضمن هذا الملف الذي أعد على طريق الاستعجال، وبالتالي لم يستوف كتاب الحقلين الإبداعي والنقدي.

وبالرغم من هذه الملاحظة فالمبادرة بحد ذاتها جليلة ونبيلة بل لعلها حسنة تذكر فتشكر للمشاركين فيها والمساهمين، ولا يفوتنا في هذا المضمار أن ننوه بالتأطير الممتاز لهذه الخطوة التي تأمل أن لاتكون الأخيرة، كما لايفوتنا أن نسجل بإكبار وتجلة هذا السبق للأدباء اللبنانيين دائما في التعريف بالموروث الأدبي لهذا القطر النائي.

ففي الستينيات خص الباحث اللبناني يوسف مقلد بلادنا بكتابة "شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون" الذي نشرته 1962.

وهاهو سهيل ادريس المدير المسؤول لمجلة الآداب اللبناني الجنسية أيضا يسلط الضوء على المقاربات النقدية ونقد الرواية. وهي حسب ترتيب الملف سبعة نصوص.

أ ـ يتصدر الملف مقاربة حول الحكايات والأساطير الشعبية للكاتب محمد بن محمد علي

ب ـ ظهور الرواية الموريتانية تحول من أدبية الشعر إلى أدبية القص محمد الأمين ولد مولاي ابراهيم.

ج ـ مقدمة في تاريخ الشعر الموريتاني عبد الله بن محمد سالم

د ـ رواية مدينة الرياح قراءة أولية، خديجة بنت عبد الحي

هـ ـ البنية الإجتماعية في رواية القبر المجهول محمد الأمين ولد احظانا

و ـ تعريف بدواوين شعرية موريتانية سيد أحمد ولد احمد سالم

ز ـ يختتم الملف بمقاربة نقدية للدكتور محمد ولد عبد الحي

ح ـ أوديب وليا.. محمد ولد أحمد (ولد تتا)

3– القصص القصيرة:

تشمل ثلاثة نصوص مرتبة في الملف كما يلي:

انتحار .. امكلثوم بنت أحمد

طال التيه.. محمد فال ولد عبد الرحمن

الحبل الأخضر.. محمد ولد احمد (ولد تتا)

ويعترف المدير المسؤول للمجلة الدكتور سهيل ادريس ان هذا الملف لايعدو كونه يقدم نصوصا تسهم في اطلاع القراء العرب على جوانب من الانتاج الأدبي قد لايتاح لهم الإطلاع عليها من أجل أن تكتمل او تتكامل رؤيتهم للوضع الأدبي في مسار الأقطار العربية وليفتح الباب واساعا أمام الأقلام الموريتانية لتشارك في الموكب الأدبي العربي الكبير ناظرة بثقة إلى المستقبل، وهو مستقبل بعون الله أكثر استواء وانقى صفاء.

المختار لسان الدين

صحفي منتج ـ رئيس مصلحة البرامج التهذيبية بالتلفزيون الموريتانية

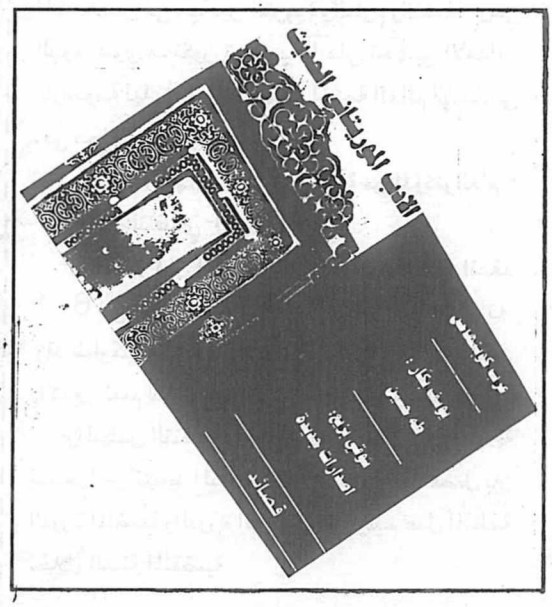

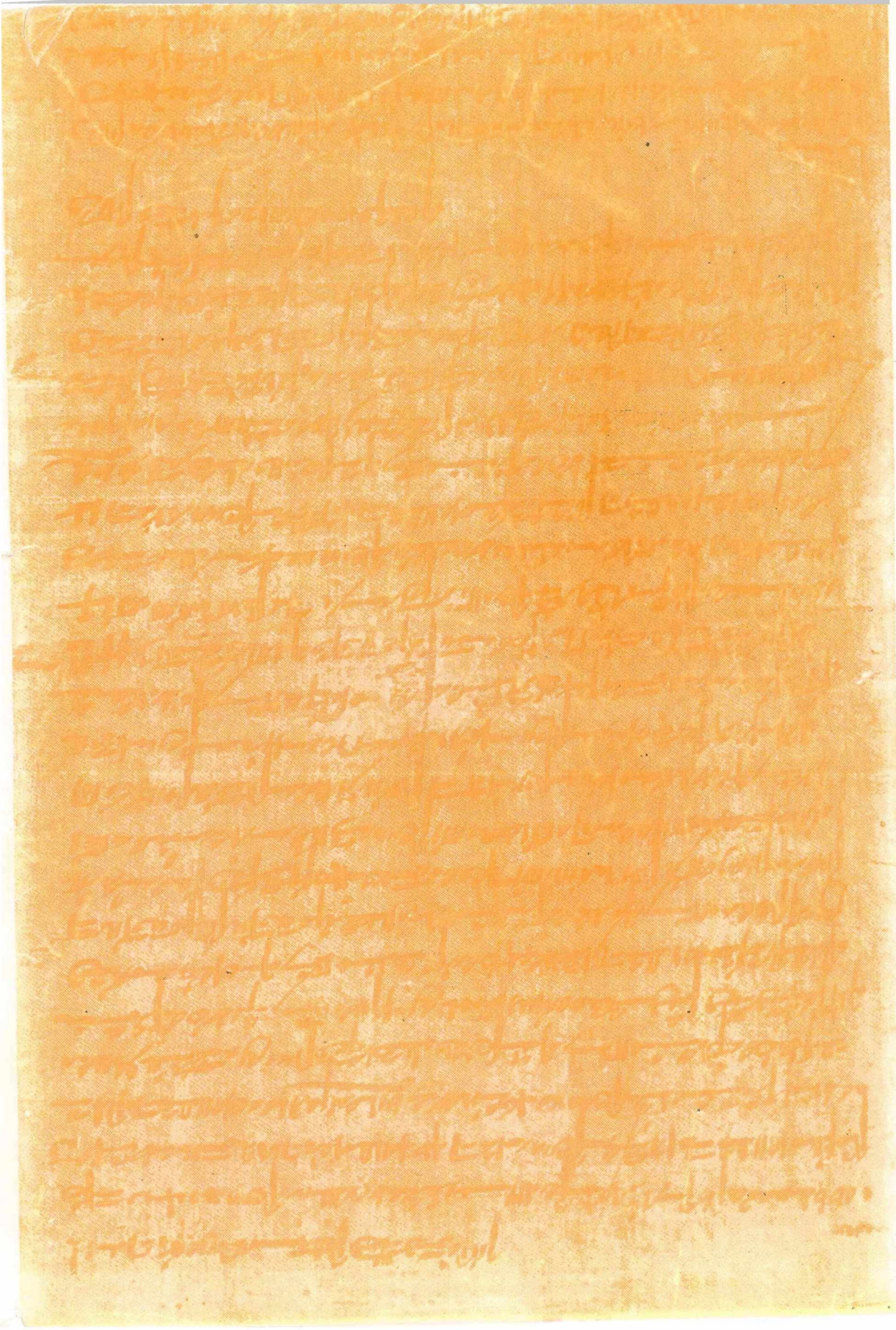

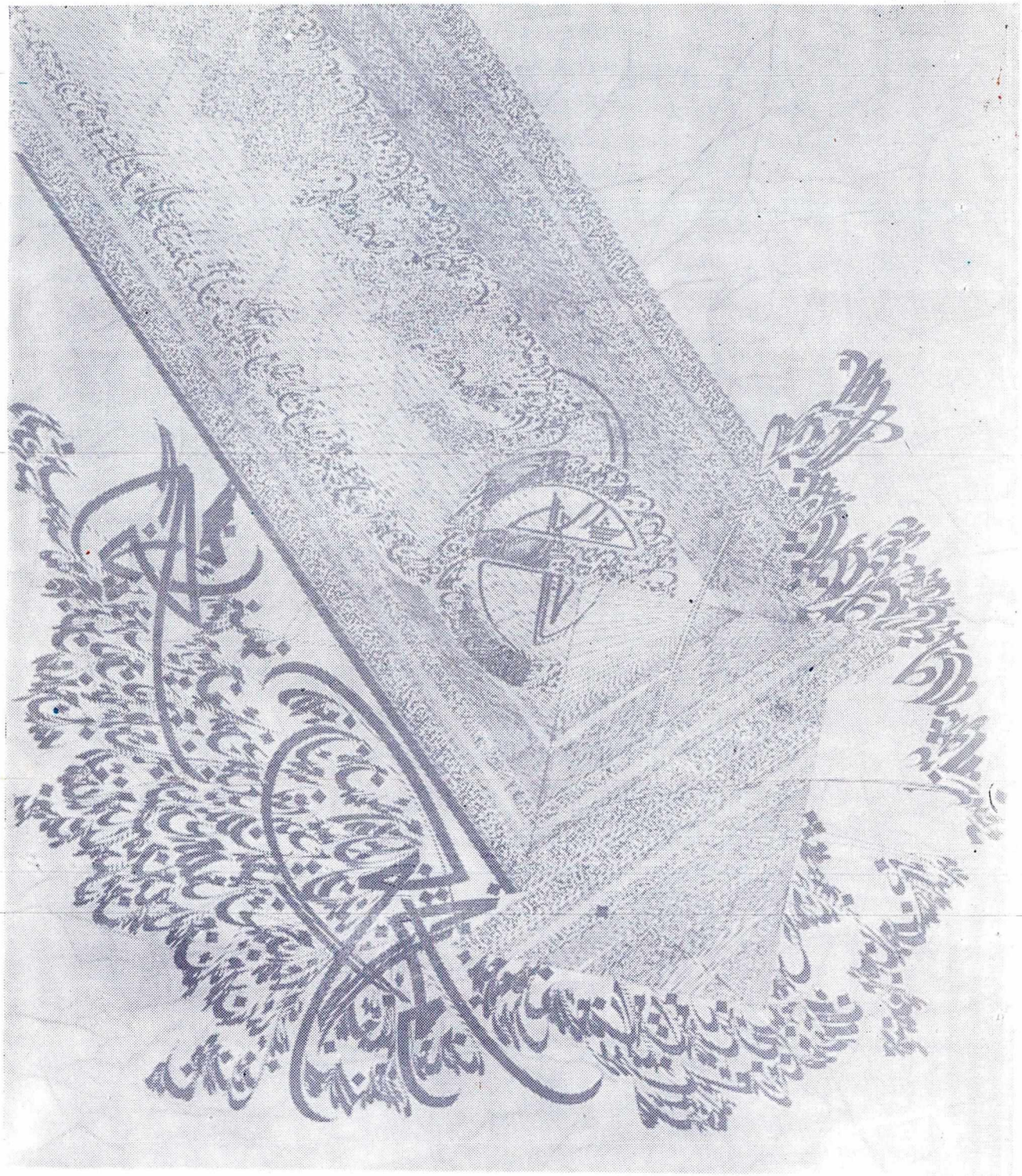

CHANT NEMADI

YALLA LI LEYLA
IL EST ALLE VERS L'EST
YALLA LI LEYLA
IL A APERCU LE GIBIER
YALLA LI LEYLA
UNE GAZELLE MAGNIFIQUE
YALLA LI LEYLA
IL A COURU DERRIERE ELLE
YALLA LI LEYLA
RAPIDE COMME LE VENT
YALLA LI LEYLA
IL HUME LES TRACES DE LA GAZELLE
YALLA LI LEYLA
LE VENT EFFACE TOUT
YALLA LI LEYLA
MEME L'ODEUR DE L'ANIMAL
YALLA LI LEYLA
MEME LE BRUIT DE SA COURSE FOLLE
YALLA LI LEYLA
LE SOLEIL BRULE TOUT
YALLA LI LEYLA
MEME LES CROTTINS DE LA GAZELLE
YALLA LI LEYLA
MAIS IL REVIENDRA QUAND MÊME
YALLA LI LEYLA
AVEC DE LA VIANDE FRAICHE
YALLA LI LEYLA
JE LUI FERAI ALORS UN MECHOUI SUCCULENT
YALLA LI LEYLA
ET LE SOIR JE LUI CHANTERAI CET AIR
YALLA LI LEYLA
IL EST ALLE VERS L'EST.

Adapté par Idoumou

*** Une équipe d'animateurs**

Trois animateurs, appuyés par leur comité de gestion, s'occupent de l'organisation quotidienne du Centre dont ils ont la charge. Ils bénéficient régulièrement de stages et de perfectionnement.

144 CLAC REPARTIS DANS 12 PAYS D'AFRIQUE ET DE L'OCEAN INDIEN

BENIN	20
BURKINA	11
BURUNDI	10
COMORES	10
CONGO	10
C.D'IVOIRE	10
GABON	9
GUINEE	10
MAURICE	15
NIGER	12
RWANDA	10
SENEGAL	16

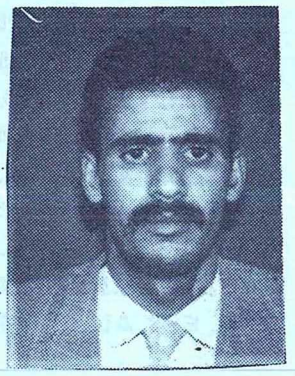

Services offerts par les CLAC

- le prêt des livres, leur consultation
- des services audio-visuels (visionnement des cassettes - vidéos, émission de télévision, etc)
- organisation d'activités d'animation (culture, débat, théâtre, sport, jeux etc)
- appui au développement par la création d'activités en matière de santé, d'éducation, traditions etc...

Compte tenu des moyens mis à leur disposition notamment en termes d'équipements les CLAC contribueront sans nul doute à l'épanouissement de la culture, mais aideront surtout les populations rurales à acceder à l'information, devenue aujourd'hui l'une des principales clefs du développement.

QU'EST CE QU'UN CLAC ?

* Un centre de lecture et d'animation culturelle en milieu rural; le public y trouve des livres, cassettes-vidéo, films, jeux, etc. Une équipe d'animateurs l'aide, l'informe et organise des activités culturelles.

* **Un réseau structuré**

Pour créer une dynamique d'échange, les CLAC sont organisés en réseau d'une dizaine de centres couvrant une région, une province ou un département, selon le découpage administratif du pays.

* **Une action suivie**

Le coordinateur circule régulièrement à travers le réseau dont il est responsable. Il veille au bon fonctionnement du réseau et recueille les statistiques de fréquentation de chaque unité. De son côté, l'Agence de la Francophonie organise des missions annuelles d'évaluation dans chaque pays.

IMPLANTATION D'UN RESEAU CLAC EN MAURITANIE

Depuis plus d'une décennie, l'Agence de la Francophonie (ACCT) oeuvre à la promotion de la lecture publique par l'implantation, en milieu rural, des centres de lecture et d'animation culturelle (CLAC).
Ces CLAC sont aussi bien des bibliothèques rurales que des lieux de loisirs où la culture occupe une place de choix. L'implantation en réseaux des CLC est d'autant plus réussie que dans douze pays d'Afrique et de l'Océan Indien , on compte déjà 144 CLAC. Implantés dans les agglomérations de 5000 à 20000 habitants pourvus d'infrastructures administratives, scolaires et sociales, les Clac sont dotés d'ouvrages, de jouets et jeux éducatifs.

L'expérience Mauritanienne

La Mauritanie va bientôt rentrer au club des pays où les clac sont présents. Un réseau de 10 CLAC sera implanté dans les localités de l'intérieur du pays (Akjoujt, Aleg, Atar, Boghé, Boutilimit, Maghama, Chinguitti, Méderdra, Moudjéria, Tintane), et toutes les dispositions nécessaires ont été prises, pour la réussite de l'expérience. Les responsables concernés travaillent d'arrache-pied et attendent avec impatience l'inauguration officielle du projet, prévue en octobre prochain.
Fruit de la fructueuse coopération entre le Gouvernement Mauritanien et l'Agence de la Francophonie (ACCT) en partenariat avec l'ISESCO, l'implantation des clac se fera au grand bonheur des populations rurales qui sont les premiers bénéficaires.
On peut d'ores et déjà parier sur la réussite de l'expérience mauritanienne vu l'intérêt, qu'accorde son Excellence Monseiur le Président de la République et les orientations qu'il a toujours données pour la promotion de la culture la propagation du savoir, la maitrise de la science et de la technologie.
Notons que le réseau CLAC mauritanien aura la particularité d'être le seul réseau bilingue (Arabe-Français) en Afrique et dans l'Océan Indien. Ceci s'explique par intérêt qu'accordent les pouvoirs publics à la sauvegarde du patrimoine national.

OBJECTIF DES CLAC

Les centres de lecture et d'animation culturelle s'assignent entre autres objectifs :
- le désenclavement des communes rurales en y créant des structures à partir desquelles les ruraux accèdent à la culture et à l'information.
- le développement en milieu rural des échanges dans les differents domaines de la vie : éducation,alphabétisation,santé,agriculture,élevage,technologie, communication, etc.
- permettre l'épanouissement des cultures locales et des traditions populaires

(Partners in Aviation Communications Technology), ONG installée en Mauritanie depuis 1995 a permis de donner des accès (E - Mail et Forum News) à des partenaires mauritaniens. Celle de Mauritanie Net initiée par un enseignant chercheur mauritanien à l'Université a permis de regrouper pndant quelque temps près d'une centaine d'abonnés, étudiants et chercheurs mauritaniens ainsi que de nombreux étrangers intéressés par des informations sur la Maurianie.

Toutes ces expériences, les différentes autres tentatives ont fini par alimenter le débat et mettre d'actualité le thème même de l'intérêt d'une interconnexion à grande échelle. Un passage obligatoire des tentatives timides et isolées vers un choix décisif qui engage tout le pays vers une véritable interconnexion à temps plein.

A l'heure qu'il est, les interrogations s'articulent essentiellement sur le comment et le combien. L'OPT qui gère le marche d'Internet en Mauritanie compte dans le courant du mois d'Août disponibiliser les équipements accessoires pour l'interconnexion des abonnés.

Les usagers devront uniquement disposer d'une ligne téléphonique pourvue d'un modem en plus naturellement de leur ordinateur. Les modem appropriés seront incesamment mis en vente au prix modique de 25 000 UM environ l'unité.

Par ailleurs le prix d'une connexion d'un abonné à Nouakchott qui relie le réseau international grace au noeud sera celui d'une communication téléphonique locale. C'est le coût le moins cher de la sous-région aussi, des prestataires privés pourront se développer et servir ainsi de relais.

Autant dire que nous sommes déjà engagés sur les autoroutes de l'information et que, plus que jamais, la reflexion devra porter sur la façon la meilleure d'éviter un enclavement pour ne pas subir unilatéralement les flux d'information.

Les milieux officiels, scientifiques, culturels et financier, etc devront dès à prèsent oeuvrer pour développer des bases fiables de données spécifiques sur la Mauritanie en harmonie avec nos valeurs et nos impératifs de développement.

La révolution industrielle s'est faite sans nous , nous avons suivi de loin et avec un grand retard le progrès informatique. Nous n'avons pas le droit de rater la révolution du prochain millénaire qui prend djéà les ailes des autoroutes de l'information.

INTERNET EN MAURITANIE

Par Hamada O. Mouhamed Saleh, Journaliste

La Mauritanie sera propulsée bientôt et de plein-pied dans l'ère des grandes autoroutes de l'information, grace à son intrerconnexion au réseau international d'Internet à travers un noeud principal qui sera installé fin juillet à Nouakchott et l'installation d'un noeud secondaire dans la capitale économique, Nouadhibou.

Au delà des réflexions que suscite la problématique de fond, deux constats s'imposent. D'abord le fait que l'initiative et l'investissement sont publics; ce qui procède d'une conscience politique, d'un choix de ne pas rater cette "révolution qui marquera sans doute le prochain millénaire.

Le second constat est la prise en charge par l'Etat des coûts d'interconnexion qui ne sont pas amortis aux frais des utilisateurs. Ce choix procède d'une option "démocratique" du développement; favorisant un élargissement des utilisateurs potentiels d'internet.

Déjà en décembre 1991, le projet d'interconnexion était sérieusement envisagé dans une rencontre autour du sujet entre l'ex ISS, l'Université de Nouakchott et l'Office des Postes et Télécommunications. Mais il ne s'agissait à l'époque que d'un débat, il est vrai sérieux, mais dont les perspectives se dessinaient encore mal.

Entre temps, le secteur privé a pris des initiatives concrètes d'interconnexion. Fort onéreuses du reste, elles ont eu la mériite tout au moins de forger une expérience et de familiareiser avec des concepts et des supports tout à fait nouveaux. Après l'expérience de l'ex ISS, désigné alors point national pour la Mauritanie, connecté au réseau en février 1995, la BNM fut le premier privé à être connecté en 1996 à travers le prèstataire de service parisien CALVACOM; offrant ainsi à sa clientèle en temps réel des informations utiles notamment l'évolution des cours de devises sur les marchés monétaires et ceux des matières premières (Bourse de Chicago). Mais en l'absence d'un noeud Internet en Mauritanie, la connexion était relativement chère : 70 000 UM de facture bimestrielle pour des connexions de 2 à 3 minutes tous les deux jours environ. Le coût était par conséquent assez onéreux et les chercheurs, sensés être les utilisateurs de choix étaient de fait exclus.

Deux autres expérience ne manquent pas d'intérêt non plus.Celle de PATEC

Ils ont beaucoup plu au public, non pas parce qu'ils sont riches, mais parce qu'ils témoignent d'une grande maîtrise de l'art de créer et d'agencer les couleurs. Ainsi, à la différence de la peinture traditionnelle les oeuvres de la jeune génération de peintres mauritaniens interroge la couleur, tente de lui faire dire les mouvements de sa propre âme. Les couleurs cessent alors d'être seulement des artifices, des ressorts en vue d'accéder à la perfection du beau, pour devenir des signifiants dans toute la puissance évocatrice du terme.

A ce sujet, on peut évoquer "la contemplation" de Mokhis. Là on peut apprécier le travail minutieux qui permet au peintre, non seulement de récréer chaque détail dans toute sa réalité (le couleur du turban, le bleu azur des perles du chapelet, le noir bleuissant des amulettes..) mais aussi la création de la lumière, élèment indispensable car la scène se passe la nuit. Grâce à la bougie, le personnage, le livre et même les écritures, sont arrachés à la nuit, apparaissent dans toutes leur réalités. Mieux encore, le foyer incandescent autour duquel s'affaire la femme, au fond, s'adjoint de la faible lueur de la lune de quelques heures, pour soustraire une autre partie de la scène à l'obscurité. Ici, les couleurs sont très bien élaborées, les mélanges bien réussis, et ne subsiste plus de la nuit qu'un soupçon, juste de quoi conserver un peu de réalisme au tableau.

Idoumou O/ Med Lemine, Professeur

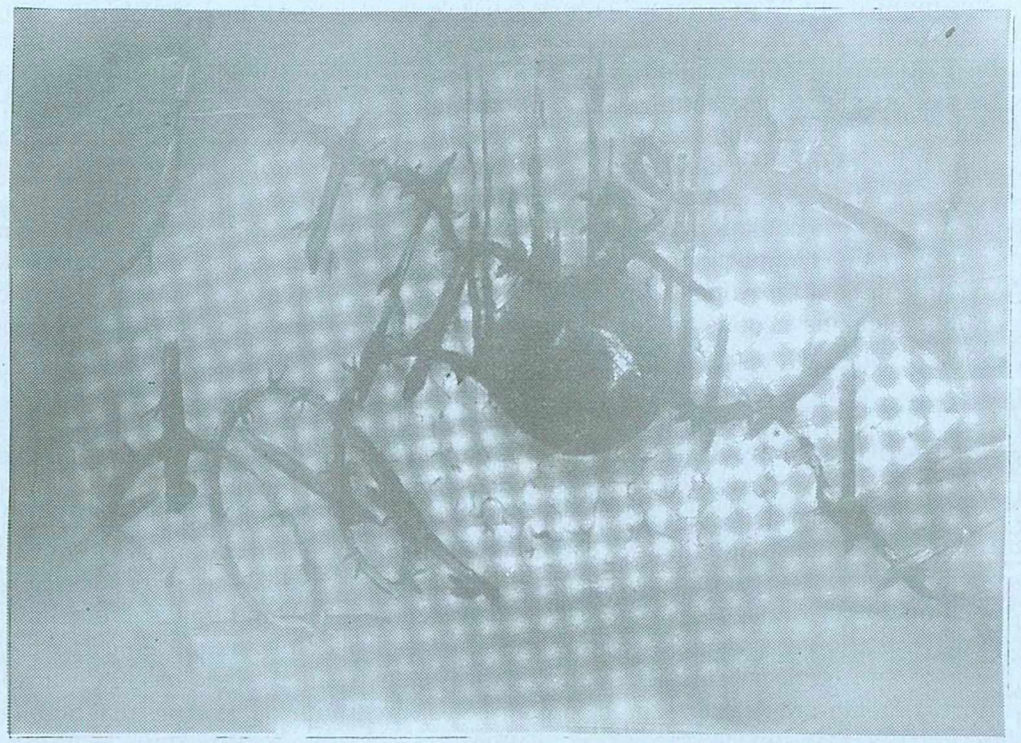

Pourtant, ils peignent déjà comme de véritables professionnels, et leur participation à l'exposition "Tendances de la peinture contemporaine au Maghreb"organisée par un collectif de banques a pu les révéler à un public plus vaste. Ce n'est pas que nous les croyons déjà aussi grands que les Hawi, Khadda ou autrs Mahdaoui, mais ils ont quand même, on ne peut mieux, bien suivi la cadence.

III. COULEUR ET LUMIERE DANS LA PEINTURE MAURITANIENNE

La peinture traditionnelle est, par essence, décorative. Pour cette raison, elle se caratérise d'emblée par :

- l'enploi de couleurs vives, très fortes même
- la diversité des nuances (simples surtout)
- la culture systématique du contraste

Toutes les couleurs simples sont employées par la m'alma avec une tendance à trop utiliser le rouge. Cela est d'autant plus remarquable que le concept "rouge" sert parfois de critère de distinction, par oppositon à "blanc". Une "natte rouge" c'est une natte colorée, alors qu'une natte banche" ne l'est pas systématiquement, elle est parfois multicolore. Mais comme le rouge est sa couleur dominante, le travail de coloration consiste, le plus souvent, à créer le contraste. Le rouge (couleur très forte) est souvent adjoint au jaune, couleur plus douce ou du blanc qui soudain, devient agressif. Des effets particuliers sont tirés du support (La peau, le plus souvent), et l'on sent, derrière le choix et l'agencement des couleurs, un souci permanent de l'harmonie.Sur le mur, les femmes de Oualata peignent à la chaux (d'où la prédominance visible du blanc), mais elle emploient d'autres couleurs (vert, marron, noir etc) et se servent beaucoup de la couleur d'argile dont le mur est badigeonné. Récemment, nous avons rencontré une femme peintre à Néma qui pour sauver les murs de Oualata qui doucement, tombent en ruine, reproduit leurs peintures sur d'autres supports (papier, toile). Elle nous a confié qu'elle emploie les mêmes produits utilisés pour décorer les murs.

Quant à la peinture moderne, elle ne se prête pas encore à une analyse thématique sérieuse Jeune, elle se cherche encore une voie; un style, et les oeuvres qu'elle a déjà produites sont très peu nombreuses. Des peintres comme Mokhis, Sidi Mohamed Yahya ou Mohamed Vall n'ont , au plus, que cinq ou six tableaux à leur actif. Néanmoins, on peut signaler qu'ils tirent des effets très heureux du mélange des couleurs. Le rouge-sang de Sidi Mohamed est trés authentique, Mokhis réussit très bien la récréation du personnage et du cadre dans "le prêcheur", et Ahmd Vall, sobre peint très fidélement le verre dans la "transparence" . Ces trois tableaux ont été exposés au Maroc, en Algérie en Tunisie et dans le cadre de l'exposition "Tendancesx de la peinture contemproraire au Maghreb" organisée par un groupe de banques maghrébines.

fixe dans la conjugaison des figures, autre domaine d'exercice de la liberbé artistique. Le "coeur" par exemple s'associe, indifféremment avec le serpent, le scorpion, la faîtière ou les cauris. Dès fois plusieurs motifs sont associés pour former une seule et même figure complexe, dans laquelle s'investit, encore une fois, le génie créateur. C'est là, incontestablement, la preuve que la peinture traditionnelle évolue.

II. LA PEINTURE MAURITANIENNE MODERNE

L'activité peinturale traditionnelle se poursuit, malgré le cadre hostile, installé par la sédentarisation massive du fait de la sécherese, et l'invasion de la civilisation moderne (rareté du support, désuétude des composants de l'intérieur mauritanien traditionnel mutation sociale.)

Heureusement, la relève est assurée par de jeunes peintres, dont l'exercice des arts plastique relève d'un double défi :

- se faire une place dans un milieu qui ne connaissait que la peinture traditionnelle (décorative, utilitaire), que d'ailleurs il délaisse tout doucement

-"déféminiser" les arts plastiques et donc introduire, en Mauritanie, une nouvelle "classe" d'artistes.

Ajoutons à celà que les peintres de la génération qui monte, en plus de leur dénuement, sont presque tous autodidactes en la matière : Mokhis a été intitié à la peinture par un privé (Denis Resd), Sidi Mohamed Yahya et Mohamed Vall ne l'ont été par personne, Ould Meyn presque auto- formé... Il n'y a pas d'école de beaux arts en Mauritanie, plus d'initiation au dessin ou à la calligraphie dans les établissements d'enseignement.

signifie, d'emblée, la réclusion perpétuelle de la femme; la condamnation des uniques ouvertures du mur sur le monde extérieur Sur les oreillers en cuir, les coussins et autres objets on trouve également des motifs itératifs; des variations sur des objets d'usage quotidien (faitière de la tente, écuelle, tabatière) sur des êtres vivants (serpents, scorpions, tiques...) ou des variations graphiques (lettres de l'aphabet). Ces dernières, on les rencontre surtout dans le henné. Nous ne nous lancerons pas dans une symbolique de cette peinture. Entreprise périlleuse et forcèmentent réductrice, que d'autres ont d'ailleurs commencée. Nous dirons tout simplement que, parmi les motifs souvent invoqués, figure la main. Instrument génial la main est aussi, dans certains région de la Mauritanie considérée comme un objet magique. La main du mort est, par exemple, réputée irremplaçable pour amener au lit un mari volage, ou décider un parti récalcitrant.

Nous accompagnons cet article de quelques uns des motifs employés par la peinture murale, et la peinture sur le cuir. Bien entendu il ne s'agit dans notre intention, que de fournir des élèments pouvant aider à une meilleure description de la peinture traditonnelle mauritanienne, une sorte d'alphabet - partiel d'ailleurs - pour une éventuelle "lecture" d'objets peint. Deux remarques s'imposent à ce sujet :

- la peinture traditionnelle mauritanienne utilise des fomes fixes, sur lesquelles s'opèrent des variations, d'où la naissance d'un langage, d'une expression chaque fois particulière, car aucun motif n'est repris dans deux pièces et par deux

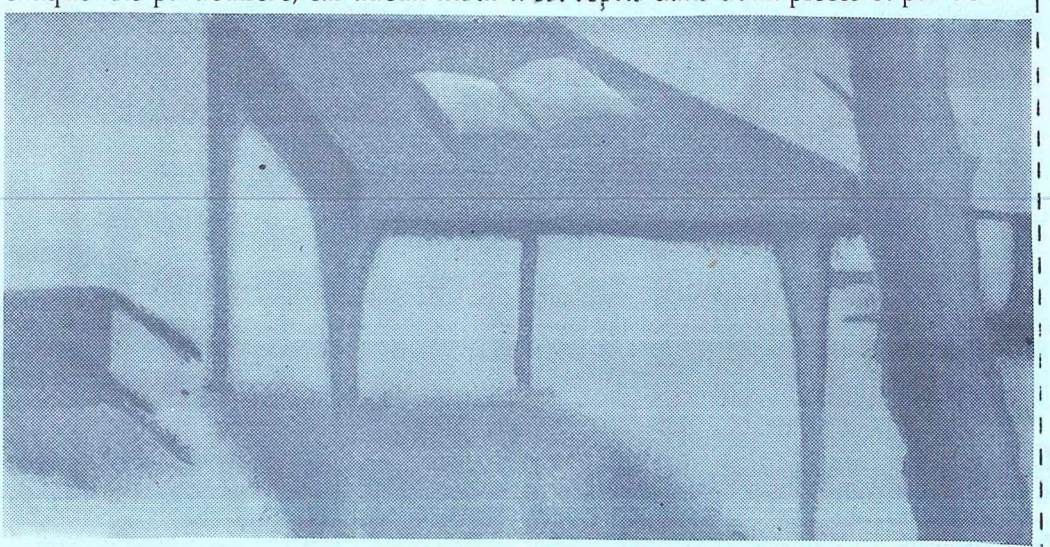

"peintres" différents de la meme manière.

On réduit le motif ou la figure à sa forme essentielle, d'où l'infinité de variations posssibles, lieu d'inscription du talent particulier de l'artiste.

- Chaque motif porte un nom qui le distingue des autres, et il n' ya pas de règle

LA PEINTURE EN MAURITANIE

En Mauritanie, peindre ne signifie pas la même chose qu'ailleurs. La mentalité bedouine et la nature même du pays et des hommes favorisent plutôt ce qui est précaire, inévitable - instantané? - et qui se réduit au strict nécessaire. L'activité plastique ne peut échapper aux caractéristiques du pays et des hommes.

Confinée depuis des temps immémoriaux dans l'utilitaire (artisanat décoratif, décoration murale, caligraphie) l'action de peindre donne naissance aujourd'hui à une "peinture". Celle-ci emerge timidement mais à pas sûrs, de l'anonymat où l'immensité du territoire et l'isolement la maintenaient. Dans cette rapide présentation, nous allons essayer d''en faire connaître l'itinéraire et certaines des caratéristiques.

I. La peinture traditionnelle

A la faveur de la rencontre entre l'acte peignant et le besoin d'enjoliver les objets d'utilité pratique, est né donc ce qu'on peut appeler une "peinture tradionnelle" en Mauritanie. Elle est aussi ancienne que l'usage de la sermiyya, la naissance des villes anciennes (Oualata, Chinguitti) ou la reproduction du livre Saint. Nous choisissons de l'appeler peinture traditionnelle au lieu d'artisanat pour deux raisons :

1) Analogique : le même paradoxe qui fonde et consacre aujourd'hui la littérature orale justifie qu'on abandonne, dans le domaine de l'art, le parti pris minorant et au demeurant stupide de considérer ce qu'on appelait jadis artisanat" comme un folklore;..comprenez art mineur.

2) Plastique : le travail des m'allma mauritaniennes est très beau; il relève certes d'un savoir faire héréditaire, d'un "métier" mais on y surprend, toujours, les traces du génie de la personne, les perfomances d'un talent qui individualise chaque pièce. Nous somme tentés, d'ailleurs, par revendiquer la "personnalité esthétique" à chaque production, même si , au fond, nous admettons que chaque sermiyya décorée et chaque mur badigeonné, portent les stigmates de la réécriture des même figures, la reprise des mêmes motifs.

La peinture traditionnelle mauritanienne est, en effet, décorative avant tout. On comprend dès lors que les figures représentéees et les motifs peints y soient itératifs. Autour des portes des maisons de Oualata on reconnaît toujours, la "Terraha" (chaîne) avec ses maillons fortement enlacés et son cadenassement sordide. Ce motif

cherche de financement de leurs activités que pour tous autres domaines.

La Commission Nationale a également publié de nombreux travaux et articles sur notre patrimoine culturel et ce dans les colonnes de sa revue "El Mewakb Al THaghafi" paraissant à Nouachott. Sur les huits numéros déjà parus, deux ont été consacrés à la publication des travaux de la conférence de Chinguitti sur les cités et le patrimoine culturel du Sahel.

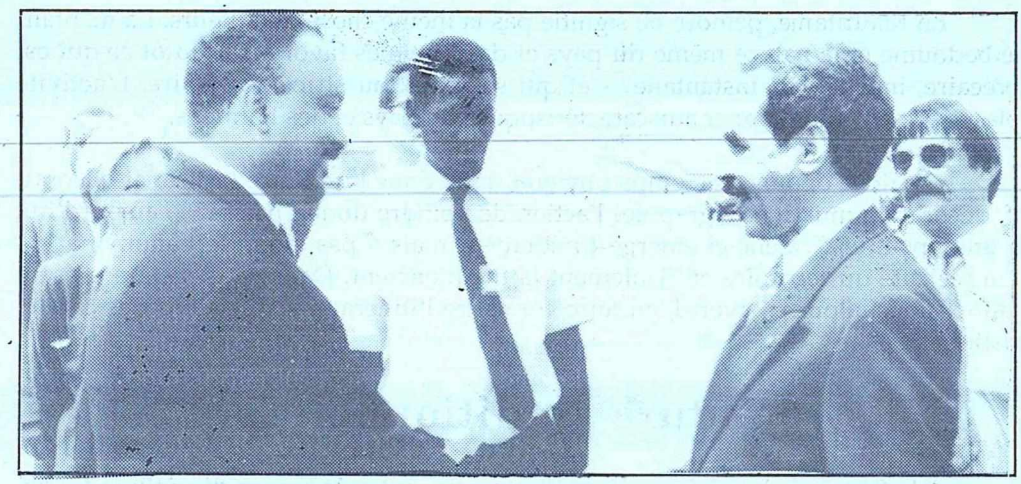

La Commission s'intéresse également au patrimoine oral, et s'active pour sa transcription, consciente qu'il renferme une part importante de la culture humaine et que des eforts particuliers doivent être menés pour le reccueillir.

Il est sans contestation aucune que la Commission Nationale en fournissant aux organismes locaux des informations sur les plans d'action de l'UNESCO, en recevant auprès d'elles et à temps toutes les données sur leurs projets d'activité en vue de les mieux soutenir favorisera grandement la collaborateur fructueuse entre la Mauritanie et l'UNESCO

DOCUMENTS :

- Documents de l'Assemblée Générale de l'UNESCO 24e session 1987
- Appel du Directeur Général de l'UNESCO à propos de la campagne internationale de sauvegarde des villes anciennes de Mauritanie
- Lettre du Directeur de la Fondation nationale pour la sauvegarde des villes anciennes n° 89 du 20/7/97
- Rapport de mission de l'équipe conjointe de l'UNESCO et de l'IMRS en date du 23/7/97

QUATRIME PHASE :

- Mise en place d'un plan d'action détaillé
- Recouvrement des financements
- Réalisation des actions de conservation des sites
- Information sur les progrès réalisés
- Evaluation des différents stades d'exécution
-Clôture de la campagne
- Publication du rapport final

Le plan de campagne prévoyait les réalisations suivantes :

1. PROJETS D'ORDRE SOCIAL, ECONOMIQUE ET CULTUREL

Il fallait offrir aux villes anciennes les commodités essentielles telles que l'eau, l'électricité, et des routes permettant de rompre l'isolement dans lequel elles étaient confinées. Il fallait également, organiser les marchés locaux, encourager l'agriculture et l'elevage, combattre l'avancée des sables, encourager la production artisanale et le tourisme, promouvoir les activités culturelles, et construire des locaux pour abriter les manuscrits, les bibliothèques et les musées.

2.LES TRAVAUX DE RESTAURATION

L'accent à été mis sur certains sites spécialement choisis, telles que les grandes mosquées de Oualata, de Tichitt, et de Chinguitti ainsi que la vieille mosquée de Ouadane. L'effort de restauration a demandé la formation ou le perfectionnement de près de 20 personnes dans les domaines de l'architecture, de l'archéologie, des manuscrits, de la culture, de la société, de l'agriculture en terres arides.

Sur un autre plan l'UNESCO a épaulé la Mauritanie en vue de l'inscription de ces sites dans la liste du patrimoine culturel de l'humanité. Ces efforts ont été couronnés de succés en décembre 1996 à la Conférence de Mexico.

L'UNESCO, soutient également, à travers la Commisssion Nationale mauritanienne, plusieures associations culturelles, en particulier le club Ibn Khaldun.

Elle a également soutenu plusieurs missions scientifiques ainsi que la publication et la traduction en arabe et en français du livre de l'Espagnol G. Coral "Cités des caravanes".

II. APPORT DE LA COMMISSION NATIONALE

La Commission est le courroie de transmission entre les organisations culturelles internationales et les départements mauritaniens concernés. Elle joue donc un rôle essentiel pour épauler les organismes culturels nationaux, aussi bien pour la re-

d'action international pour la protection des villes anciennes de Mauritanie. Le plan d'action adopté pour cette campagne s'articulait ainsi :

1. PREMIERE PHASE :

- Consultations préliminaires entre la Mauritanie et l'UNESCO
- Prise de décision de lancement de la campagne
- Adoption d'une déclaration d'intentions
- Accord sur la déclaration d'intention

2. DEUXIEME PHASE

- Recherche d'un financement préliminaire
- Désignation d'un coordinateur national
- Evaluation des infrastructures essentielles nécesaires
- Etude Générale des sites
- Clarification des liens avec la convention sur le patrimoine culturel
- Accord sur la stratégie
- Déclaration d'existence d'un patrimoine en danger

3. TROISIEME PHASE

- Mise en place d'une structure administrative
- Mise en place d'un programme national d'information
- Désignation d'un responsable technique de la campagne
- Preparation d'un plan d'action
- Organisation des moyens de promotion
- Adoption du plan d'action
- Appel pour le lancement de la campagne

C'est à la fin de cette troisième phase que le Directeur Général de l'UNESCO fit son appel à la solidarité internationale en faveur de la sauvegarde des villes anciennes de Mauritanie, le 16 février 1981, et ce en application de la décision prise par l'Assemblée Générale, en sa session d'octobre 1978.

Différentes missions de l'UNESCO s'étaient rendus sur les sites entre février 1979, et juin 1980. Le plan d'action devait aboutir entre 1971 et 1975, et la Mauritanie devait mettre sur pied les mesures nécessaires, pendant que l'UNESCO assurait directement, ou indirectement le financement de l'opération.

Des difficultés inattendues devaient retarder la mise en place de l'opération à la date prévue. C'est durant la quatrième phase que seront mises progressivement en oeuvre les mesures nécessaires pour la réussite du plan d'action.

UNESCO:

Un Combat pour la Paix

L'UNESCO, la plus importante des organisations culturelles internationales est née, le 16 novembre 1946, à l'heure où la fumée des combats et le grondement des armes s'étaient à peine éteints. Il fallait, après une guerre qui avait ebranlé les valeurs morales et culturelles, détruit des monuments historiques et des trésors artistiques, reveiller les consciences et les éduquer, afin que l'humanité ne puisse pas retomber dans les errements qui avaient conduit à deux conflits internationaux.

Les Etats savaient bien que la culture créait des liens humains et rapprochait les civilisations differentes, que la science donnait l'envol au développement et que l'éducation garantissait la perennité des futures générations. C'est pourquoi ils firent de ces préocuupations, de grands axes de leur action.

L'étiolement des valeurs culturelles, la montée des idéologues racistes, la faiblesse des systèmes d'éducation avaient joué un rôle imporant dans l'éclatement de la folie nazie. Il devenait donc nécessaire de renforcer le potentiel culturel et scientifique de l'humanité, rapprocher les civilisations différentes.

Après 51 ans d'existence, le bilan de l'UNESCO est largement positif, aussi bien en ce qui concerne sa vocation d'espace de rencontre des civilisations qu'en ce qui concerne son rôle propre de sauvegarde du patrimoine culturel de l'humanité.

L'UNESCO menant des activités permanente dans différents pays, finançant elle même, ou oeuvrant pour le financement de différents projets culturels ou éducatifs, appella à la création de commissions nationales chargées de la représenter dans chaque pays et de superviser les actions qu'elle mène.

C'est ainsi qu'est née en Mauritanie la Commission Nationale pour l'Education, la Science et la Culture qui représente l'UNESCO ainsi que l'ALESCO, l'ISESCO, et l'ACCT.

ROLE DE L'UNESCO DANS LA RENAISSANCE DU PATRIMOINE CULTUREL MAURIANIEN

Si l'on veut aborder le rôle joué par l'UNESCO dans la préservation de notre culture on ne peut que jetter les feux d'abord sur l'action multifome qu'elle a mené en faveur de nos villes anciennes (Ouadane, Chinguitti, Tichitt, Oualata). C'est ainsi qu'en collaboration avec les autorités mauritaniennes, l'UNESCO a adopté un plan

Vers où?
Vers quoi ?
Ce voyage, mes frères ?
Est-il écrit que notre sort
Sera une errance
Eternelle?
Ou alors partons-nous
En connaisance de cause
Et avec l'espoir
Que notre odyssée
Se terminera un jour
Et que nous rentrerons
Victorieux
Et triomphants?
Et que nous ramenerons
Les "deux-cueilleurs"
Vivants?
Et que nous conterons
Des choses fabuleuses
Que ni Temime
Ni Sindbad
Ne virent auparavant?
Débarquerons-nous
Au pays de merveilles
Dans une vallée de cocagne
Où les nuages seront blancs?
Ou les éclairs
Seront allegresse
Où les orges
Seront verdure
Où les sermentis
Seront fidélité
Et où le ciel reprendra
Ses couleurs d'antan?

fff

Là... là-bas
Aurons-nous de nouveau
Une félicité de résurrection?
Aurons-nous de nouveau
Des racines,
Et nos steppes reverdiront?
Et nos instituts s'épanouiront,
Et nos rêves
Et nos jours
Se retrouveront;
Quand l'acacia fleurira
Quand le palmier ondulera
Quand l'oiseau lui chantera
L'arôme des "batha"
Et les charmes du matin;

fff

Adieu nos contrées
Adieu nos rivages
Le vaisseau
Et la mer
Reviendront-ils
J'ignore
Et les miens ignorent
Ce que le lendemain
Ecrira
Ce que la veille
Rétablira
Notre présent
Etant un voyage pour la survie
Sur les chemins du néant
Avec le temps
Fuyant ses origines
Sur une soucoupe de vent;
Nous sommes partis
Comme partis nos pères
Nous prenons la mer
Comme nos ancêtres prenaient
La mer
Nous disait
La voyante des sables.

Nous sommes partis,
Le jour de notre départ coïncida
Avec l'aube de l'ascension
De la constellation
Des pleiades.
Peu avant la prière de l'aurore,
Ce fut un jour d'ensablement
Des étoiles;
De déchainement
De l'harmattan
D'errance hagarde
Pour les égarés
Assoiffés qui s'en allaient
Se désalterer au mirage
Avide qui les engloutissait:
Et le mirage restait
Mirage ; et des assoiffés
On n'entendait plus parler,

fff

Je m'empressai
De la calmer;
"Ménages-toi ma tante!
L'imagination visionnaire
Trouble la conscience
Et creé un univers
Qui n'a point d'existence":
ELLE DIT: "je clamerai
La vérité ;
Votre lot
Est un vaisseau
Qui affronte des flots
Gluants
J'ai vu des tentes
En laine
Pliées
Avec frieux et cordages
Et entassées
Dans une cale bondée
De toutes les couleurs
Et de toutes les espèces
J'ai vu des chèvres
Mordre à pleines dents
Une planche
De la charpente
Et lécher un mat
Rouillé;
Et le mat s'inclinait;
Et la voile s'inclinait,
J'ai vu des vieilles femmes
Aux ongles allongés
Psalmodier
Des poèmes d'"AlBouçairy"
En rêvant
Au pélerinage
Elles emportaient quelques "corans"
Avec lesquels étaient fourrés
Des flacons
De parfums de la Seine
Et des tubes
De rouge à lèvres;
J'ai vu des hommes
Deguster duthé
Sur le grand pont
Et rire à gorges déployées
Ils n'avaient d'autres provisions
Que des sacs
De fourrage
Pour chameaux;

fff

Je quittai
La voyante des sorts;
Je n'ecouterai pas le délire et la mystification
En pleine illumination;

fff

LE VAISSEAU

(Traduit de l'arabe par A.S.O.T.

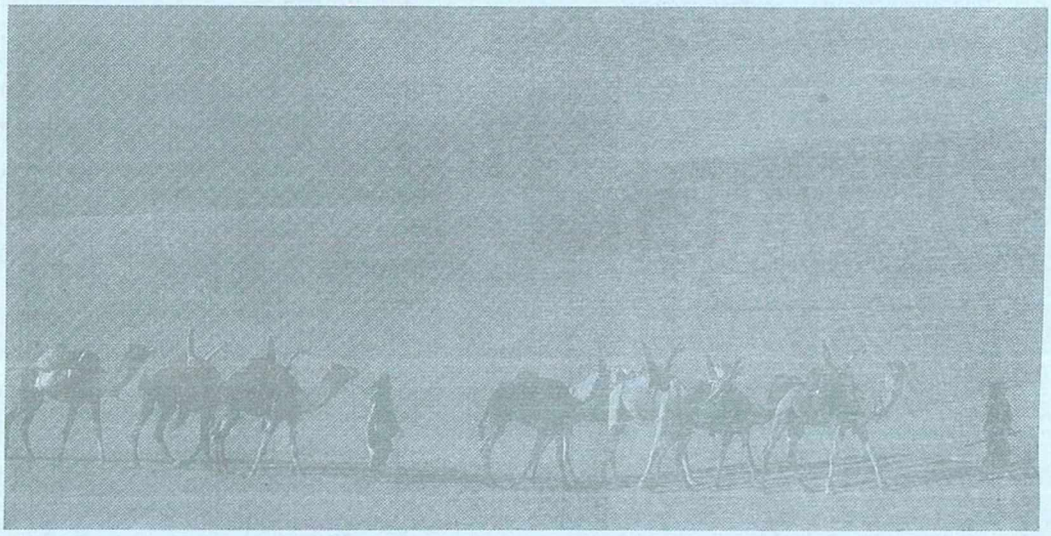

Nous sommes partis
Comme partaient nos pères;
Nous prenons la mer
Comme nos ancêtres prenaient la mer;

La voyante des sables

Nous dit : "c'est étrange!
Notre vaisseau a rompu
Les amarres,
A pris la mer,
Ne le sentez-vous pas ?
Et je l'interrogeai
Deviant ses prétentions
Tandis que les autres
Ignoraient son cas :
As-tu lu des augures
Heureuses
Pour nous ?

Que sera notre lot ?
Aura-t-il la couleur radieuse
Du lait frais
Ou sera-t-il sombre
Comme les coeurs
Des nuits aveugles?

Elle ramena
Sa main au sol
Et y imprima
L'ombre de ses doigts;
A droite, elle retrancha
Puis rajouta;
A gauche, elle diminua
Etirant les lignes;
Et le regard rivé
Aux confins-sud
De l'horizon
Elle chantonna:
"Nous sommes partis;

lumière crue sur la déchéance de cette humanité".

Au fil de son long commentaire, Haibetna se revelera poète. Il évoquera avec nostalgie les oasis de son enfance dévastées, "la batha "d'Atar qui ne coule plus, la fraicheur des fruits et du blé, et la présence miraculeuse de l'eau.

Cependant à aucun moment Haibetna ne cèdera au pessimisme. Il refusera même qu'Ahmedou O/ Abdel Kader ait cédé à ce sentiment. C'est qu'à ses yeux, celui-ci "loin de brûler ses vaisseaux nous en propose un, à la fois réel et imaginaire, dont les voiles gonflées de nos obsessions nous emportera vers une Mauritanie nouvelle, renaissant de ses cendres et des sables".

Le débat autour du poème de Ould Abdel Kader fut nous l'avons dit, un grand moment de notre littérature. Pas par la profondeur des idées, ni par leur originalité, mais par l'échange même qui se produisit.

Les conditions qui donnèrent naissance au "Vaisseau", ne sont plus bien sûr celles d'aujourd'hui. Les vents de la sécheresse se sont calmés. La démocratie politique a remplacé le baillonnement par la liberté d'écrire, l'économie s'est peu à peu améliorée. Le désespoir d'Ahmedou n'a peut-être plus sa raison d'être. Gardons-nous pourtant de brûler le "Vaisseau", car le cri qu'il a poussé ne s'est point éteint, notre culture, notre civilisation ont de plus en plus du mal à se frayer un chemin dans les coeurs de mauritaniens désormais attirés par les seules vertus des Mousselsselatt.

Plus grave, nous n'avons pa su jusqu'ici faire naitre une littérature qui soit nôtre, qui puisse exprimer notre génie propre. Nous n'avons même pas su débattre en permanence des freins qui enserrent notre génie.

M'Bareck Ould Beyrouk

L'auteur dénonce la sécheresse et l'émigration qui en résulte et qui est déracinement. "Je considère que l'exode est total, et qu'il est à la fois matériel et spirituel". Ould Abdel Kader voit la sécheresse non pas simplement comme un phénomène écologique doulereux, mais le dernier coup assené à une culture déjà mourante Il n'ya plus de rive à aborder plus d'espace de transhumance où emigrer. "Je crois dit le poète que c'est là l'annonce de la fin de cette civilisation" Une fin déjà inscrite dans "l'hésitation entre les idées de l'Occident et nos idées authentiques : de ces dernières il n'est retenu que des traces alors qu'il est emprunté aux premières tout le revêtement".
C'est l'interview même de Ould Abdel Kader, plus que son poème, qui attira la polémique. C'est Mohamed Nagi qui, le premier ouvrit le feu": j'ai classé ce poème au rayon de la littérature du desespoir", mais ajoute t-il "le sentiment pessimiste est un facteur positif lorsqu'il sonne l'alarme. Lorsqu'il évolue vers le désespoir il devient un facteur négatif".

Isselmou O/ Beya, répond a Mohamedou Nagi, qu'il qualifie d'"intellectuel politicien". A ses yeux, le poème de Ould Abdel Kader est un avertisement, et "lorsqu'un Ahmedou braque son genie littéraire vers des horizons imperceptibles et que, par inspiration, il accède à l'au delà du champ visuel,... il ne nous revient pas de réfléchir à son propos mais de nous considérer avertis".

La passe d'armes entre Mohamedou Nagi et Isselmou O/ Beya durera quelque numéros, elle dérivera facilement vers des considérations éloignées de la littérature, ce que ne manquera pas de souligner Med Abdallah i O/ Mohamed El Moustapha. Pour lui "les deux auteurs ont dès le début découvert l'un chez l'autre des sujets de critique et se sont tirés le glaive... ils se sont tout simplement écartés du thème. Mohamed Nagi, infatigable escrimeur répondra sur le ton de l'ironie à Mr. Ould Mohamed El Moustapha et fustigera ces "Don quichotte" qui n'excusent pas ceux qui refusent de pleurer sur le passé.

Mohamed Salek O/ Med El Moustapha, Dah Ould Ehmedane, Mohamed Mahmoud O/ Sidi Baba, et bien d'autre plumes participeront au débat. Mais il reste certains, que c'est Mohamed Haibetna O/ Sidi Haiba qui apportera au débat l'apport le plus signé.

Mr. Ould Sidi Haiba, par une analyse détaillée du poème, fera ressortir la composition ternaire de l'oeuvre, en démontera la suave écriture. Il ne s'étonnera pas une minute du choix du thème, car écrit-il "il n'est pas surprenant dans les conditions d'extrême précarité de l'existence, de fragilité du destin des hommes et de leur terre, que le dernier recours ou le salut véritable vienne de la poèsie". Haibetna, fera ressortir les contrastes entre l'exiguité du vaisseau, et l'immensité du désert, la faiblesse des hommes et la force des calamités qui les agressent, l'errance du bateau et la vie de transhumance habituellement si reposante pour ceux qui l'aiment. Il évoquera certains détails comme "les flacons de rouge à lèvre glissées dans les pages du coran" ou "l'aliment de bétail qui sert de nourriture aux hommes" qui "projettent une

"LE VAISSEAU"

"POLEMIQUE AUTOUR D'UN CRI D'ALARME"

Mr. Ahmédou O/ Abdel Kader est décidèment en littérature, un véritable pionnier. Il sait ouvrir les portes closes. Comme tout vrai poète, il refuse de se taire, il aime se lancer dans le nouveau, il refuse la médiocrité ambiante.

Son poème, le Vaisseau fut un véritable cri du coeur, la plainte angoisée d'une âme essoufflée mais qui veut exhaler sa peine. En 1984, l'année du poème, l'avenir semblait bouché. La sécheresse, véritable cataclysme destructeur avait dénudé les plaines, décimé les bêtes, contraint toute une civilisation à l'exode et à la mendicité. Les populations misérables fuyant la faim, gonflaient les villes. La sécheresse semblait devoir être un fléau permanent.

Sur le plan politique, l'organisation spartiate du pouvoir semblait devoir egalement perdurer. Un système rigide cloisonnait les libertés. L'économie également paraissait aller inéluctablement à la dérive.

Le Vaisseau fut d'abord un cri d'alarme, un appel au secours, une main tendue. L'auteur montre le navire en péril, les flots montants, les passagers inconscients, déracinés, incapables de comprendre le péril. Un bateau à la dérive, une voyante qui prédit la mort et des hommes désorientés, déculturés, sur un vaisseau sans capitaine.

La force du "Vaissau" ne fut pas seulement de naître mais de faire naître un débat passionné, suivent polémiste, et qui fut incontestablement un grand moment de notre histoire littéraire. Plus important que le débat (dont le niveau fut généralement bas) l'écho qu'il eût dans les milieux culturels et politique et l'intérêt que lui porta toute la population demontrent bien que le "Vaisseau" avait ravivé une plaie ancienne et que les vagues qui l'assaillaiet menaçaient aussi tout le monde.

Le débat fut amorcé par la publication du poème dans la colonne du quotidien Chaab, et par une interview que lui accorda le poète.

L'écrivain est-t-il le mieux situé pour parler de son oeuvre? En tout cas, il est le plus à même de parler de ses propres préoccupations, des soubassements intimes de sa création.

Ahmédou O/ Abdel Kader n'en fait pas mystère : c'est le pessimisme et le désespoir qui, tout au long du poème , ont soutenu sa plume. "Que ce poème soit de ton pessimiste, voilà qui est incontestable déclare t-il, et plus loin il souligne que "le pessimisme qui le marque s'explique par la gravité de la situation"

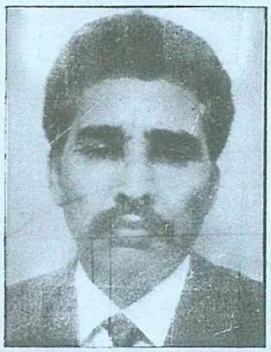

Khadijettou M/ Abdel Hay et Med O/ Ahmed reviennent au dernier roman de Moussa O/ Ebnou. Des remarques interessantes, mais des articles qui ne font que s'ajouter à là déjà abondante critique d'un ouvrage qui n'a que très peu de détracteurs.

La nouvelle mauritanienne est représentée dans la revue El Adab" par Oum Kelthoum M/ Ahmed, Med Vall Abderrahmene et Mohamed Ben Ahmed.

Sidi Mohamed O/ Mohamed Salem présente les recueils de poèmes de Moubaraka M/ El Bara , Mohamed O/ Abdi, Mohamed O/ Taleb Biya O/ Bediouh et Beddi O/ Ebnou.

Sans être exhaustive, cette revue de la littérature mauritanienne aborde l'essentiel, les differentes tendances, les thèmes majeurs, les oeuvres maitresses. Et pourtant, malgré la saveur de certains passages, l'on reste sur sa faim, avec, en soi,un sentiment d'inachevé, une soif non éteinte.

C'est que la poésie mauritanienne d'aujourdhui, écrite en un arabe classique souvent sévère, empruntant à la littérature orientale ses grands traits de style, n'est point arrivée à exprimer l'âme profonde du mauritanien.

Le génie de notre langue, la grandeur de notre poésie, la richesse de nos émotion ne se retrouvent point à mon avis dans ces intellectuels teintés de demi- modernisme.

Nos grands poètes, ceux qu'on sait citer, qui nous font extasier s'appellent Mohamed O/ Adebe - Ould El Gassri, Cheikh O/ Mekeyen, Ahmed Salem O/ BOuboutt, Sid'Ahmed O/ Aida ou Mohamed O/ Heddar etc... Une littérature élevée empruntant au mysticisme son élan plongée en même temps dans le réel mauritanien, véhiculant les grands mythes, les grandes inquiétudes, les grandes attentes qui forment le fond de l'âme de ce peuple.

La poésie mauritanienne d'aujourd'hui restera mineure tant qu'elle ne s'inspirera pas de ces vrais modèles

Le roman mauritanien lui, a encore trop de chemin à faire. Certes Moussa O/ Ebnou est incontestablement, malgré la jeunesse de son oeuvre, un vrai romancier du siècle, Ahmedou O/ Abdel Kader, même s'il est incontestablement meilleur poète que romancier demeure un prosateur sublime, mais deux noms suffisent- ils à une génération qui se veut fille de son temps?.

iode à nos jours.

Dans la première partie de l'ouvrage, l'auteur distingue 4 grandes périodes poetiques:
1) Avant le 18e siècle : la poésie de cette ère porte fortement la marque religieuse. Il s'agit d'abord d'une poésie du "Fiqh". L'auteur cite des noms : l'Imam el Hadrami, Ibrahim Dhekwani, Med baba O/ Med Lemine.

2. le 18e s : la poésie se diversifie, le ghazl et le nessib deviennent un genre noble, le "Med-h" et le "Hija"reprennent leurs titres de noblesse. L'auteur cite deux grands poètes de ce temps : Mohamed El Yedali et Ould Razga.

3. le 19e s : c'est l'âge d'or de la poésie mauritanienne. La notion de "Vetta" oblige tout jeune homme qui veut passer pour un "honnête homme" à savoir d'abord versifier . Le livre de Mohamed Ben Lemine Ech-Chinguitti, "El Wasit, publié ou en1911 reste la principale source de référence pour la poésie de cette période.

4.Les débuts du 20es, virent naître un penchant pour la littérature populaire, une tendance représentée par les poèmes de Mohamed O/ Ahmed Youra.

La poésie de la 2de moitié du 20e s voit naître une nouvelle forme d'écriture avec Chighali O/ Med Mahmoud, Med O/ Mohamed Vall, et à partir des années 70 ,le verbe d'Ahmédou O/ Abdel Kader viendra planer sur cette littérature. Les représentant de la nouvelle vague littéraire sont d'ailleurs largement repris dans les pages d'Al-Adab" : Naji Med Limam, Moubaraka M/ El Bara, Sidi O/ Lemjad voient publié chacun un poème.

Mohamed Lemine O/ Ehdhana, choisit lui, de se pencher sur le roman d'Ahmédou O/ Abdel Kader : "le tombeau inconnu ". Cette oeuvre aborde le thème des grandes divisions sociales de la Mauritanie d'antan. A côté des Awlad Soueilim, guerriers arabes ignorants et assoifés de sang, vivent les Awlad Abderrhmane, marabout saints et érudits et les Awlad Hmeidan bergers zanaga opprimés. Les Awlads Soueilim engagés dans une lutte à mort contre une autre tribu guerrière, les Awlad Emeira, seront vaincus et rendus à l'état de zanaga, pendant que les Awlad Hmeidan eux, remontent dans la hierarchie sociale et se transforment en guerriers. La morale de l'histoire est assez simple. La triptyque guerrier - marabouts, zanaga conduit à une interessante incursion dans la société mauritanienne d'hier. Mais le parti pris de l'auteur, son rejet quasi - atavique de la caste guerrière et de ses préjuges interdisent toute objectivité à la critique.

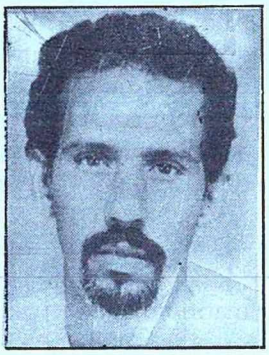

Les pages spéciales sur la littérature mauritaniene débutent par une critique du recueil des "récits et légendes populaires de Mauritanie" publié par une commission dirigée par Mr. Moussa O/ Ebnou. Mr. Mohamed Ben Mohamed Ali, ne tarit pas d'éloges sur le travail mené par cette commission. Il y découvre l'excellence de cette mémoire populaire "qui traverse le temps comme les caravanes traversaient le désert". Un travail, certes colossal que ce recueil de 392 récit et de 2754 dictions!.

L'auteur se penche d'abord sur la méthodologie de travail de la commission. Il en souligne le caractère organisé, scientifique. Il se félicite de l'effort de transcription des textes, (peut-on parler de traduction!) recueillis en hassaniya et réécris en arabe classique. Il découvre là un utile travail littéraire. Comment ne pas être emerveillé en retrouvant , en arabe classique, des termes aussi familiers que "Azz"ou "Adress"? Mohamed Ben Mohamed Ali rencontre, au fil de sa lecture de l'oeuvre les préocuppations de l'homme mauritanien, la difficulté de son environnement, la philosophie qui l'anime. Il s'étonne tout de même que tout au long de l'ouvrage, il n'est pas fait mention de la tribu, cette entite qui forme le cadre de vie du nomade mauritanien. Nous ne pouvons que s'en étonner avec lui.?

- Mohamed Lemine O/ Moulaye Brahim a choisi un thème plus moderne que celui des contes anciens : "Naissance du roman mauritanien: de la littérature poétique à la littérature romanesque".

Le premier roman mauritanien a été publié seulement en 1981. Il s'agit du roman de Mr. Ahmédou O/ Abdel Kader, "El Esma El Mouteghayara",(" les noms changeants"). L'auteur explique la montée du roman par l'emergence, après le 10juillet 78, d'une nouvelle classe politique et sociale, plus moderne, et qui veut s'exprimer à travers un autre genre que la poèsie.

Il évoque trois grands débats qui influencèrent le monde intellectuel : en 1975 s'opposèrent les adeptes du classicisme et ceux du renouveau, en 1984 le publication du poème d'Ahmédou O/ Abdel Kader suscita une un débat passionné, et en 1986, Abdallahi Ben Hmeïda nie l'existence même d'une vraie poésie mauritanienne, ce qui donna lieu à une vraie levée de bouclier.

L'auteur constate le recul de la poésie classique , le développement de la nouvelle et le renouveau du récit populaire. Malheureusement, il ne put découvrir que seulement deux véritables romanciers : Moussa O Ebnou et Ahmédou O/ Abdel Kader.

- Dans son "introduction à l'histoire de la poésie mauritanienne, Mr. Abdallahi O/ Mohamed Salem a rencontré bien plus d'écrivains. Il divise l'histoire de la poésie mauritanienne en deux parties : du début du 18e s à la montée du 20es, et de cette pér-

LA LITTERATURE MAURITANIENNE VUE PAR "EL ADAB"

"EL ADAB", une revue mensuelle culturelle, éditée à Beyrouth, a consacré son numéro de mars-avril 1997, à la littérature mauritanienne. Il s'agit là en soi, d'un grand évènement, car notre culture est généralement assez mal connue à l'extérieur, et rares, les revues littéraires arabes qui se sont intéressé à notre effort de création.

La revue avant même d'ouvrir, ses pages spéciales sur notre jeune littérature, publie dans sa rubrique "nouvelles parutions" une critique du roman de Moussa O/ Ebnou "Barzakh". L'auteur, Mr. Chawki Bezigh, avoue avoir ouvert le livre avec appréhension, un sentiment vite dégagé: "j'avais peur de perdre mon temps en le lisant, mais dès que je le lis je ne m'en séparai pas avant de le terminer". Voilà le meilleur hommage qu'on puisse adresser à un écrivain.

L'auteur découvre une grande habileté dans la trame du récit. Il y retouve aussi le "secret de la technique romanesque occidentale, la présence du sens de la mythologie oriental, l'influence de la croyance islamique," et malgré tout cela, il y lit egalement "l'esprit de la négritude opprimée, revoltée contre l'esclavage et l'injustice". On ne peut mieux souligner le caractère universel de l'oeuvre.

d
i
t..
o
r
i
a
l

Il est aujourd'hui évident que la communication est devenue une préoccupation essentielle de l'humanité.
Elle est outil de puissance, levier d'influence, et déjà, elle s'avère devoir être la grande arme qu'utilisera le XXIe siècle.

Déjà, une véritable course aux moyens d'information s'est engagée, un combat qui dépasse de loin toutes les luttes menées jusqu'ici pour l'acquisition des techniques.

Cette situation nous oblige à considérer la communication comme primordiale pour toute nation qui ne veut pas rester indéfiniment au ban de l'histoire.
Il est également certain que le respect des différences culturelles est le secret de toute compréhension humaine, car il assure la paix et la stabilité mondiales.
La confrontation entre les peuples est en effet, toujours le fruit amer de l'intolérance mutuelle.
On conclue aisément, que la communication permet à travers une connaissance approfondie de la culture d'autrui une interconnexion entre les peuples et un dialogue entre les civilisations.
C'est pourquoi, nous avons voulu offrir, à travers ce numéro d'el Mewkeb une aperçu de la littérature et des arts de notre peuple, ouvrant ainsi une fenêtre sur les civilisations islamique, arabe et africaine .

Nous espérons ainsi ouvrir la voie à une meilleure connaissance de la culture Mauritanienne . Nous avons également essayé, à travers quelques articles de faire connaître les activités des organisations internationales auxquelles notre commission nationale est de relai. Ceci est en soi un objectif important.
Notre revue a accumulé cette année plusieurs mois de retard.Nous nous en excusons auprès de nos lecteurs.

C'est pour combler ce retard, que nous publions ce numéro double.

Nous reprendrons dés la fin du mois d'Août notre rythme régulier de parution.
Notre ambition est de faire de cette revue la pierre angulaire d'un espace Mauritanien d'information culturelle qui créera les conditions idéales pour la recherche scientifique, pour la création, et pour l'édition

Ely O. Bouboutt

Al Mewkih Al Thaqafi

CNESC Nouakchott Mauritanie

Directeur de Publication:
Ely O. Bouboutt

Directeur Technique:
Mohamed O. Hdana

Assisté de:
M'Bareck O. Beirouk
Ahmed O. Cheikh
Ahmed Salem O. Bouboutt

Rédacteur en chef:
Mohamed lemin O. Mounir

Redaction:
Mohamed Vall O. Abderrahman
Baoiba O. Mohamed Naffé-
Cheikh El Maloum O.
Med Salem
Mariem M/ Bekrinn
Abdellahi O. Seiid

Abonnements - Suivi
Resp.
Souleiman O. Bouna Mouctar

Assisté de:

Cheikh Tidjani

Secretariat de Redaction:
Ahmed Jiddou O. Med

Al Mewkih Al Thaqafi

N° 09 & 10 du Jan. Fev. - Mars Avr. 1997

Revue Bimestrielle éditée par la Commision Nationale pour l'Education, les Sciences et la Culture.

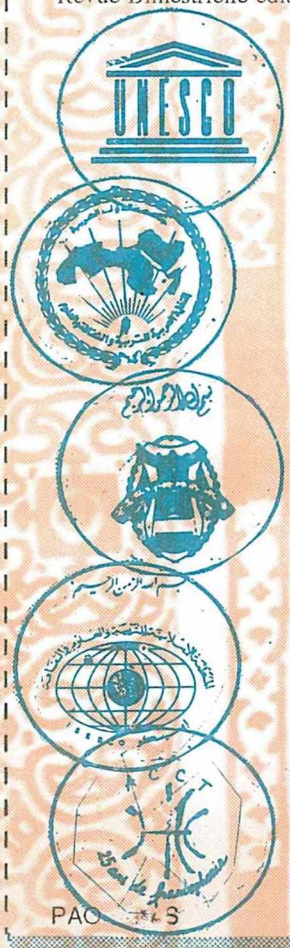

UNESCO:
Un Combat pour la Paix

INTERNET EN MAURITANIE

LA PEINTURE EN MAURITANIE

LA LITTERATURE MAURITANIENNE VUE PAR "EL ADAB"

"LE VAISSEAU"

"POLEMIQUE AUTOUR D'UN CRI D'ALARME

Responsable de publication:
Ely O. Bouboutt